الأدب الإسلامي

بين النظرية والتطبيق

دكتور

علي علي صبح

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ الإسراء : ٩ ، ﴿ وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ الحج : ٢٤ ، ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ۝ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ۝ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ۝ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ إبراهيم : ٢٤ - ٢٧ ، ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ۝ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ۝ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ۝ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ فصلت : ٣٣ - ٣٦ ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾ الزمر : ١٨ ، ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ لقمان : ٦ - ٣٢ ، ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ۝ ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ۝ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد .. ﴾ إلى قوله : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ۝ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ الحج : ٨ - ١٣ ، ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ۝ ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ۝ كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ﴾ الإسراء ٣٦ - ٣٨ ، ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة

وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ آل عمران : ٧ ، ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ۝ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ الأنعام : ١٥٩ - ١٦٠ ، ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ۝ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .. هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ۝ تنزل على كل أفاك أثيم ۝ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ۝ والشعراء يتبعهم الغاوون ۝ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ۝ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ۝ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ الشعراء : ٢١٤ - ٢٢٧ .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ ، بعثه ربه بالحق هاديا ومبشراً ونذيرا ليحق الحق بكلماته ويزهق الباطل ويقطع دابر الكافرين : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ۝ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما ﴾ الفتح : ٢٨ - ٢٩ ، وبعد :

فهذا هو الجزء الثاني اختص بالعصر الأموي ، عصر التابعين الثقاة ، الذين نالوا هذا الشرف بمعاشرة الصحابة ﷺ ، واقتدوا بهم في القول والعمل والسلوك عن صحبة ومشافهة ورواية وقدوة حسنة ؛ فكانوا أعظم تأثرا بهم وأقوى ، وخيرا ممن جاءوا بعدهم ؛ فقد حقق الله عز وجل على أيديهم من الفتوحات الإسلامية ونشر الدين الإسلامي في أنحاء العالم بما لم يحدث مثله بعد ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ التوبة : ١٠٠ ، وقول النبي ﷺ : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. » ، فكان أدب التابعين امتداداً لأدب الصحابة ، فصار به مصدراً ثالثاً من مصادر الأدب الإسلامي وامتدادا له ، وسار

على منهجهم في القيم الخلقية والفنية ، فقد أجمع المؤرخون على أن سعيد بن المسيب كان يفتي والصحابة أحياء ، وقال أحمد بن حنبل : « لقد قتل سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه » ، وقال مسلمة بن عبد الملك : « كيف يضل قوم فيهم مثل الحسن البصري » ، وقال الذهبي : « عمر ابن عبد العزيز معدود عند أهل العلم من العلماء العاملين والخلفاء الراشدين » قال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ الأنعام : ١٥٣ ، أسأل الله عز وجل أن ينفع به ، وعلى الله تعالى قصد السبيل .

القاهرة في رمضان المبارك ١٤١٨هـ
يناير ١٩٩٨م

علي علي صبح

أدب التابعين في العصر الأموي
من مصادر الأدب الإسلامي

تحدثنا في الجزء الأول عن مصادر الأدب الإسلامي : القرآن الكريم ، ثم الحديث الشريف ، ثم أدب الصحابة ﷺ في عصر الخلفاء الراشدين ، واختص الجزء الثاني بالأدب الإسلامي في العصر الأموي ، وجعلته تابعا للمصدر الثالث لأن التابعين ﷺ تميزوا عمن بعدهم بشرف الاتباع والصحبة والتلقي المباشر والمشافهة لأصحاب رسول الله ﷺ ﷺ ، بل عاش كثير منهم شطرا كبيرا من حياته في ظلال حكم بني أمية ، وامتد عمر عدد منهم إلى قرب نهاية دولتهم وقبيل قيام دولة بني العباس ، فتبوأ التابعون للصحابة ﷺ مرحلة هي أسمى مراحل التبعية والصحبة ، ودرجة هي أعلى درجاتها وأولاها ، واتصف من جاء بعدهم بمرتبة تابعي التابعين ، فاستحقوا بذلك الفضل الأول والأسمى حين وصفهم بها سيدنا محمد ﷺ ؛ فألبسهم حلتها فقال : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. » ، وكما في الآية السابقة ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان .. ﴾ .

لذلك كان الأدب الإسلامي في العصر الأموي مصدرا من مصادره الأولى ورافدا قويا من روافده المتنوعة ، التي أثرت كل التأثير في العصور اللاحقة ، في العصر العباسي ، والأندلسي ، وعصور الدويلات ، والعصر المملوكي ، والعصر العثماني ، وفي العصر الحديث ، وستظل هذه المصادر وتلك الروافد تؤثر في مستقبل الأدب الإسلامي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

والأدب الإسلامي في العصر الأموي متنوع الأغراض الشعرية ، وكثير الفنون الأدبية ، بعضها يعد امتداداً للأغراض في عصر صدر الإسلام كالمدح والرثاء والحماسة والزهد وغيرها ، وبعضها اتخذ ثوبا جديدا كالفخر والشعر القصصي والهجاء وغيرها ، وبعضها كان مبتكراً كالشعر السياسي والوصف والغزل العذري ، وسنتحدث عن هذه الأغراض الشعرية بالدراسة والتحليل والنقد .

وكان من بين الأغراض الشعرية الجديدة في العصر الأموي : « الشعر

التعليمي » الذي نهض به الرجاز ومنهم رؤبة بن العجاج ، وأبوه عبد الله بن رؤبة المعروف بالعجاج ، وأبو النجم العِجْلِيٌّ ، فقد جعلوا الرجز حقلا لغويا للألفاظ والأساليب الغريبة والحوشية ، حتى أصبحت مادة ومتونا لغوية ، اعتمدت عليها مدرسة اللغويين في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي ، واشتهرت بأعلامها : يونس بن حبيب ، وأبو عمرو بن العلاء ، وأبو إسحاق الحضرمي وعيسى بن عمر ، وغيرهم ، الذين كانوا يتلقون عن رؤبة مباشرة ؛ فقد اعترف يونس بن حبيب بأنه تلميذ لرؤبة ، تلقى عنه عن مشافهة واتصال ورواية ؛ فقال : « والله لرؤبة أفصح من معد بن عدنان وأنا غلام رؤبة » (١) .

وكان لهذا الشعر التعليمي في الغريب من اللغة أثر كبير في شعر الطرماح بن حكيم ، وفي شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام ، وله أثره أيضا في منظومة إبان ابن عبد الحميد اللاحقي التعليمية في « أحكام الصيام » وكذلك في مقامات الهمذاني ومن سار على نهجه ، وفي ألفية ابن مالك الأندلسي في اللغة والنحو ، وفي الموشحات الأندلسية التي قامت على وحدة الشطر كما في الرجز لا وحدة البيت كما في القصيدة ، يقول رؤبة في أرجوزة له (٢) :

وقَاتِمِ الأعماقِ خَاوي المُخْتَرَقْ ... مُشْتَبَهُ الأعلام لَمَّاعِ الخَفَقْ
يكلُّ وَفْدُ الريح من حيث انْخَرَقْ ... شَأْز بِمنْ عَوَّهَ جَدْبِ المُنْطَلَقْ
ناءٍ من التَصْبيحِ نائي المُغْتَبَقْ ... تَبْدُو لنا أعْلامُهُ بعد الغَرَقْ
فِيِّ قِطَعِ الآلِ وَهَبْوَاتِ الدُّقَقْ ... خارجَةً أعناقُها من مُعْتَنَقْ
تنشَّطَتْهُ كلُّ مِغْلاةِ الوَهَقْ ... مَضْبُورَةٍ قَرْوَاءَ هِرْجَابٍ فُنُقْ

(١) الأغاني للأصفهاني : ص ٥٧ جـ ٢١ .

(٢) ديوان رؤبة : ص ١٠٤ . قاتم الأعماق : تظهر في نهايته قاتمة لبعدها عن مرأى العين . خاوي المخترق : ساكن مهب الريح والمراد شديد الحرارة . مشتبه الأعلام : متشابه الجبال . لماع الخفق : خداع السراب . وفد الريح : مقدمته . انخرق : تحرك ، الشأز : الغلظة . بمن عوه جدب المنطلق : أصابه الجفاف كما تعرض لغلظة الصحراء . ناء من التصبيح نائي المغتبق : لا ماء في الصباح ولا في المساء . تبدو أعلامه بعد الغرق : كأن الجبال تغرق في السراب . هَبوات الدقق : هبوب التراب الناعم . خارجة أعناقها من معتنق : تبدو الجبال كأنها أعتقت رقابها من السراب . تنشطت الناقة : أسرعت . الوهق : حركة العنق أثناء السير . مغلاة الوهق : سرعة حركة العنق تدل على سرعة الناقة وقوتها فهي مكتملة الجسد . مَضبورة : مكتملة البنية . قرواء : فارعة . هرجاب : ضخمة . فنق : مكتنزة اللحم .

وكانت فنون النثر الأدبي متنوعة في العصر الأموي ، سواء صارت متجددة ظهرت فيها ملامح التجديد مثل الخطب والرسائل والقصص والوصايا ، أو كانت جديدة مبتكرة مثل فن المناظرات ، ومقامات الزهاد ، وفن الكتابة وغيرها .

وسنعرض في الجزء الثاني الأغراض الشعرية القديمة والمتجددة والمبتكرة في دراسة أدبية وفنية ونقدية للوقوف على الخصائص الفنية والسمات الأدبية في قيمها الخلقية والفنية ، وأثر هذه القيم في الأدب الإسلامي للعصر الأموي ، حتى أصبحت مصدراً قوياً من مصادره في العصور التالية ؛ ليؤدي دوره تابعا للمصادر الأولى في عصر صدر الإسلام ، التي شرحناها وفصلنا فيها القول في الجزء الأول من هذا الكتاب .

* * *

المـــدح

من مـدائح الفرزدق الرائعـة يمدح زين العابدين علي بن الحسين ﵁ في قصيدة يقول فيها [(١)] :

هذا الـذي تعـــرفُ البَطحَاءُ وَطأتَهُ ... والـبَيـتُ يَعْرِفُـــهُ والحِـلُّ والحَــرَمُ
هذا ابـنُ خَيْرِ عـــبـــاد الله كُلِّهِمُ ... هَذَا الـتَّقـيُّ الـنَّقـيُّ الـطَّاهـر الـعَلَمُ
هذا ابنُ فـاطمـة - إن كنْتَ جَاهِلَهُ - ... بجَدِّهِ أَنبِيَاءُ الله قـــــد خُتِمُوا
إذَا رأتْهُ قُرَيْشٌ قَـــال قَائلُهـــا ... إلى مَكَـارِمِ هَـذَا يَنْتَـــهِي الـكَرَمُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَنْ هَذَا ؟ بِضَائِرِهِ ... الـعُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرْتَ والـعَجَمُ
يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمـــا يُكَلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَـــسِمُ
بـكَفِّهِ خَيْزُرانٌ رِيحُهـــا عَبِقٌ ... مِنْ كـفِّ أَرْوَعَ فــي عِرْنِيـنِهِ شَمَمُ
يَكـادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَـــانَ رَاحَتِهِ ... رُكْنُ الحَطِيم إذا مـــا جَاءَ يَسْتَلِمُ
اللهُ شَرَّفَهُ قِدْمـــاً وَعَظَّمَهُ ... جَرَى بِذَاكَ لـهُ في لَوْحِهِ الـقَلَـمُ
أيُّ الخَـــلاَئِقِ لَيْسَتْ في رِقَـابِهِمُ ... لأَوَّلِـيَّـــةِ هَــذَا أَوْلَـــهُ نِعَــمُ
مَنْ يَشْكُرِ اللهَ يَشْكُـرْ أَوَّلِيـــةَ ذا ... فـالدِّينُ مِنْ بيْتِ هَـذَا نَالَـهُ الأُمَمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُـــمَـــا ... يُسْتَوْكَفَانِ وَلا يَعْرُوهُمـــا عَـدَمُ
سَهْلُ الخَلِيـــقَةِ لا تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... يَزِينُهُ اثْنَـانِ : حُسْنُ الخَلْقِ والشِّيَمُ
حَمَّالُ أَثْقَـــالِ أَقْوَامٍ إذا فَدَحُوا ... حُلْوُ الـشَّمَـــائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نِعَمُ

---

(١) هو الفرزدق بن غالب بن صعصعة من بني مجاشع بن دارم من بطون تميم ، ولد في خلافة عمر بن الخطاب ﵁ عام ١٩ هـ في بادية البصرة ، عاش بين السيدان وكاظمة والبصرة منزل تميم وقيس ، اشتهر جده صعصعة بن ناجية بفدية الموءودة ، وفد على النبي ﷺ وأسلم وعلمه آيات من القرآن ، ولما سأله عن فديته الموءودة قال له : « هذا من البر له أجره إذا منَّ الله عليك بالإسلام » ووفد أبوه غالب بعد وقعة الجمل على الإمام علي كرم الله وجهه ومعه الفرزدق ، فقال له : « هذا يوشك أن يكون شاعرا مجيدا .. فأقرئه القرآن فهو خير له » ، فعمل بها في حياته ، وهو أحد ثلاثة اشتهروا في عصره : جرير والأخطل ، وطالت مناقضاتهم الشعرية ، وكان محبا لآل البيت ، ومدح خلفاء بني أمية ، وسمي الفرزدق لغلظه وقصره ، وكنيته « أبو فراس » ، قال عنه اللغويون : « لولا شعره لذهب ثلث لغة العرب .. ولولا شعره لـذهب نصف أخبار الناس » ، وتاب عن الهجاء القبيح ثم توفي بالبصرة قبل عام ١١٠ وقيل ١١٤هـ.

مَا قَالَ : لا قَطُّ إلا فـــي تَشَهُّدِه ... لولا التَّشَهُّدُ كــانَتْ لاؤُه نَعَمُ
لا يَخْلفُ الوَعْدَ مأمونٌ نَقيبَتُه ... رَحْبُ الفِنَاء أريبٌ حين يَعْتَزِمُ
عَمَّ البَرِيّة بالإحسان فانْقَشَعَتْ ... عَنْها الغَيَابَةُ والإمْلاقُ والعَدَمُ
يُنْمَى إلى ذروة الدين التي قَصُرتْ ... عنها الأكُفُّ وَعَنْ إدْراكِها القَدَمُ
منْ جَدِّه دَانَ فَضلُ الأنبياء لَهُ ... وفَضْلُ أُمَّته دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ
مُشْتَقَّةٌ منْ رَسُول الله نَبْعَتُهُ ... طَابَتْ مغارسُهُ والخِيمُ والشِّيَمُ
يَنْشقُّ ثَوْبُ الضُّحَى عَنْ نُور غُرَّتِه ... كالشمس تَنجابُ عَنْ إشْرَاقها الظُلَمُ
منْ مَعْشَرٍ حُبُّهم دينٌ وبُغْضُهُمُ ... كُفْرٌ وقُرْبُهُمُ مَنْجَىً ومُعْتَصَمُ
مُقَدَّمٌ بعد ذكر الله ذكْرُهُمُ ... في كُلِّ بَدْءٍ ومَخْتُومٌ به الكَلِمُ
إنْ عُدَّ أَهْلُ التُّقَى كانوا أئمتَهُمْ ... أو قيل مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأرض؟قيل : هُمُ
لا يستطيعُ جوادٌ بَعْدَ جُودهم ... ولاَ يُدَانيهم قَوْمٌ وإنْ كَرُمُوا
يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ والبَلْوَى بِحُبِّهِمُ ... ويُسْتَرَبُّ به الإحسانُ والنِّعَمُ
لا يُنْقِصُ العُسْرُ بَسْطاً منْ أكُفِّهِمُ ... سيَّان ذلك إنْ أثْرُوا وإنْ عَدِمُوا
يأبَى لهم أنْ يَحُلَّ الذمُّ ساحَتَهم ... خِيمٌ كريمٌ وأيْدٍ بالنَّدَى دِيَمُ(١)

زين العابدين علي بن الحسين بن علي ﷺ : بعد أن فتح الله عز وجل على المسلمين بلاد الفرس وقتل « يزدجرد » آخر الأكاسرة ، عرض علي بن أبي طالب على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أن يُقَوَّمْنَ من بنات يزدجرد

---

(١) البطحاء : مكان قريب من البيت الحرام والمراد الأرض . وطأته : مواقع مشيته . الحل والحرم : مشاعر الحج ، والمراد لا يجهله أحد . ابن خير عباد : ينتسب إلى جده محمد ﷺ فالبنوة تطلق على الأحفاد ، بدليل ما جاء في البيت الثالث : ابن فاطمة الزهراء ، وهي جدته ﷺ . بضائره : لا ينقص من قدره . أغضى بصره : كفه ، وصوته أخفضه . عبق : طيب الرائحة . العرنين : أعلى الأنف ، والمراد العزة . والشمم : ارتفاع قصبة الأنف ، والمراد الإباء والترفع عن الدنايا . الحطيم : جدار الكعبة المشرفة . أولية : أجداده . غياث : كثير العطاء . تستوكفان : يطلب الخير على يديه . يعروهما : يصيبهما عدم . بوادره : الحدة عند الغضب . فدحوا : أصيبوا . مأمون النقية : مشورته صائبة لا طائشة . أريب : حصيف . انقشعت : زالت . الإملاق : الحاجة والعدم . ذروة الدين : أعلاه . نبعته : أصله الكريم وكذلك مغارسه . الخيم : السجية وكذلك الشيم . يسترب النعم : أي تزداد . العسر : الشدة . والبسط : الكرم . والثراء : الغنى . العدم : الفقر . خيم كريم : خلق كريم . الندى : الكرم . ديم : السحابة الممطرة والمراد العطاء الكثير .
واختلف في نسبتها للفرزدق وأرجح الأقوال أنها للفرزدق .

الأسيـرات بأغلى الأثمـان ، ثم يتـرك لهن الحـرية في اختـيـار من يدفع الثـمن فـاختـارت واحدة عـبد الله بن عـمـر ، واختـارت الثـانية مـحمـداً بن أبـي بكر واختـارت الثـالثـة ـ وهي « شاه زنان » أي ملكة النسـاء ـ الحسين بن علي ﷺ وأعتـقها ، وأسلمت وغيرت اسمـها إلى « غزالـة » ، وأكرمهـا فولدت منه زين العابدين ، وأسـمته عليـا تيمنا باسم جده ؛ لكن القـدر لم يمهلها فمـاتت بحمى النفاس ، فـتربى في بيت النبوة على يد مـعلمه الأول والده الحسين وفي مدرسـته الثانية مسـجد الرسول ﷺ ، الذي كـان يعج بالصحابة العلماء وكـبار التابعين من الطبقة الأولى ، فاكـتمل شبابا وعلما وخلقا ودينا وبـرا ، حتى وصفوه بالزكي وبزين العابدين ، ولقد رآه طاووس بن كيسان يقف في ظلال البيت العتيق ويبكي بكاء السقـيم ويدعو دعاء المضطر ؛ فقـال : يا ابن رسـول ؛ رأيتك علـى حالتك ولك فضائـل ثلاث تؤمنك من الخوف ؛ فقال زين العـابدين : وما هن يا طاووس فقال : إحـداهن أنك ابن رسـول الله صلوات الله وسلامـه عليه ، والثانية : شـفاعة جدك لك ، والثـالثة : رحمة الله ؛ فقـال له : إن انتسابي إلى الرسول علـيه الصلاة والسلام لا يؤمنني بعـد أن سمعت قول الله عز وجل : ﴿ فـإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ﴾ ، وأما شفاعـة جدي لي فإن الله علت كلمته يقول : ﴿ ولا يشفـعون إلا لمن ارتضى ﴾ ، وأمـا رحمـة الله تعالى فهـو يقول : ﴿ إن رحـمة الله قريب من المحسـنين ﴾ ، وقد وسع الله عليه الرزق في تجـارة رابحة وزراعة نامـية ينهض بها غلـمانه الذي لا يسـتمر رق الواحد منهم أكـثر من سنة واحدة ، كـما كان يتـصدق بماله ، قال الزهري : مـا رأيت سيدا أفـضل من علي بن الحسين في التابعين ، وروي أن هشام بن عبد الملك ولي العهد أقبل يريد الطواف فرأى رجلا في كوكبة عليـه سكينة ووقار حتى استلم الحجر الأسود ؛ فـقال من هذا لا أعرفه فقال الفـرزدق : أنا أعرفه والدنيا كلها تعـرفه ، هذا علي بن الحسين ﷺ وعن أبيه وعن جده ، ثم أنشد :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفـه والحـل والحـرم

إلى آخر القصيدة [1] .

---

(١) انظر طبقات ابن سعـد ٢١١/ ٥ ، البداية والنهاية ١٠٣/٩ ، والنجوم الزاهرة ٢٢٩ ، تاريخ ابن عساكر ٥١٥/ ١٢ ، وفيات الأعـيان لابن خلكان ص ٢٦٦/ ٣ ، شواهد المغني للسيوطي ==

أصداء الخطاب في القصيدة عند المتلقي

أبعاد القيم الخلقية : حينما يسبر المتلقي أعماق الخطاب في هذه القصيدة ، ويتجاوب الناقد مع أصداء النص ، يقوم بتشريح مقطعاته الفكرية وفحص خلاياه الخلقية ، فسيتمتع ذوقه الأدبي بحشد كبير من القيم الخلقية السامية :

١ ـ المشاركة الوجدانية بتصوير الإنصاف لحفيد رسول الله ﷺ زين العابدين حين أنكر هشام بن عبد الملك منزلته العالية عند الناس حسداً أو غبطة ؛ فاستجاب الشاعر لعاطفته الصادقة ، وهو ينكر عليه هذا التجاهل والتغافل ، لأنَّ مشاعره لا تعرف النفاق أو الزيف ، فرد عليه بهذه التجربة الشعرية الصادقة والأمينة ، لتعبر عن إعطاء كل ذي حق حقه ، فمنزلة الممدوح كالشمس لا تنكرها العين ، ولا يجهل فضلها العقول ، نظهر ذلك في براعة الاستهلال وبلاغة الخطاب في المطلع للأبيات الخمسة الأولى إلى نهاية القصيدة ، ليصور التسامي بنسب زين العابدين والتعريض بتجاهل هشام بن عبد الملك وبنسبه ، وشتان بين بيت النبوة وبيت السياسة ، فقيم المدح فيها حقيقة واقعية لا مبالغة فيها كالمبالغة في مدح جرير للخليفة عبد الملك بن مروان في قوله وهو يخاطب زوجته (١) :

ثقي بالله ـ يا فداك أبي وأمي ـ … بسيب منك إنك ذو ارتياح
فإني قد رأيت علي حقا … زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رَدَدْتَ عليَّ ريشي … وأنْبَتَّ القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا … وأندى العالمين بطون راح
وقوم قد سموت لهم فدانوا … بِدُهْم في ململة رداح
أبحت حمى تهامة بعد نجد … وما شيء حميت بمستباح

== ٢٤٩ ، ومرآة الجنان لليافعي ص ٢٤٠ ، وحياة الحيوان للدميري ص ٩ جـ ١ ، وديوان الفرزدق .

(١) السيب : العطاء . ارتياح : اهتزاز للعطاء . قوادم الريش : كباره وأما صغاره فهي الخوافي . المطايا : المراكب من الحيوان . وراحة اليد : بطنها . سموت : انتصرت . دهم : خيل أسود . ==

٢ ـ الحل والحرم : أي المواطن داخل المشاعر المحرمة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وخارجها في العالم الإسلامي من العرب والعجم ؛ فلا هذا ولا ذاك يتنكر لحفيد النبوة ، ولا يجهل عبقا من عبير « الحقيقة المحمدية » .

٣ ـ هو من النسل الطاهر من بيت النبوة الشريفة ، فهو حفيد محمد ﷺ أفضل الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فمحبته من محبة الرسول المقدمة على النفس والمال والأهل والولد كما ورد في الأحاديث الشريفة .

٤ ـ أوصاف زين العابدين قيم مشهورة ؛ فهو التقي النقي الطاهر العلم فهو القدوة الحسنة في ذلك كله .

٥ ـ هو ابن سيدة العالمين فاطمة الزهراء وزوج الإمام علي فارس الغزوات الإسلامية وفدائي الرسول ﷺ .

٦ ـ إذا أردت أن تعرف أكرم الأكرمين وأجودهم تجدهم في البيت المحمدي وفي آل بيته الكريم ؛ فقد وجدوا أثناء تغسيله سواداً يعلو ظهره من كثرة ما حمل عليه من أكياس الدقيق ، تصل إلى المائة في كل ليلة ، يقوم بتوزيعها على الفقراء والمساكين في جوف الليل حتى لا يراه أحد ، فهل بعد هذا الكرم النبوي من كرم ؟! .

والكرم عندهم طبيعة وسجية ، وحقيقة واقعية ، وعند غيرهم من الخلفاء في عصره مجاملة ومبالغة ورغبة وإلحاحاً في العطاء ، لذلك كان مديح الفرزدق حقيقة لا مبالغة ، وخالصة لا رغبة في العطاء ، بينما يبالغ عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن عبد الملك في الكرم طمعا في العطاء ، وإن كانت بقية القيم الخلقية يتصف بها الوليد صاحب الفتوحات الإسلامية العظيمة ، وله دور عظيم في نشر الإسلام في بقاع العالم يسجله له التاريخ الإسلامي .

== ململة : كثيرة . رداح : كتيبة . أبحت : من الإباحة . الحمى : ما يحميه الإنسان .
والشاعر هو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي ، من بني يربوع التميمي ، عاش (٢٨ أو ٣٠ - ١١٠ أو ١١٤هـ) ، ومات باليمامة ، وكان من فحول شعراء الإسلام ، تقدم على الفرزدق لرقة شعره وعذوبته ، ويكنى بأبي حزرة ، وديوانه في جزأين ، وجمعت نقائضه مع الفرزدق في ثلاثة أجزاء .

يقول ابن الرقاع [1] يمدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلوات الطيبات له	والمؤمنون إذا جمعوا الجمعا
على الذي سبق الأقوام ضاحية	بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أمته	على يديه وكانوا قبله شيعا
عذنا بذي العرش أن نحيا ونفقده	وأن نكون لراع بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له	ملك عليه أعان الله فارتفعا
لا يمنع الناس ما أعطى الذين هم	له عباد ولا يعطون ما منعا

٧ ـ تفوح من جسده الطاهر الروائح الطيبة . فالله تعالى طيب ، لا يقبل إلا الطيب ، مما يدل على طيب معدنه ، وجمال خليقته في شمم الأنف ، وإباء العرنين ، لأن الله جميل يحب الجمال .

٨ ـ ألفته مناسك الحج ؛ فالحطيم تعرفه وتتسع لاستقباله ، والحجر الأسود يهش له حين يستلمه ويقبله لكثرة تردداه وزياراته .

٩ ـ منذ الأزل قضى الله عز وجل لزين العابدين في اللوح المحفوظ أنه من العظماء والسعداء ، وعنده سبحانه أم الكتاب .

١٠ ـ يرجع شرفه وفضله ، وينتمي نسبه إلى بيت النبوة ؛ فهو حفيد أول الخلق ، وخاتم الأنبياء ، ومتمم الشرائع والأخلاق .

١١ ـ اجتمع له الحسنيان جمال الخلق وحسن الخليقة ، مع سمو القيم والخلق الفاضل .

١٢ ـ يخفف عن الناس آلامهم ، ويفرج عنهم كروبهم ؛ فلا يرد يد السائل ، ولا يعرض عن المحتاج ؛ فلا تجري على لسانه كلمة « لا » إلا في العبادة إيمانا وإخلاصا ، حتى تضمن النفي معنى الإيجاب ، فهي عنده بمعنى نعم .

١٣ ـ يتصف بالقيم الخلقية السامية من الوفاء بالوعد وقوة العزيمة والأمانة

---

(١) عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع ، توفي عام (٩٥هـ / ٧١٤م) في خلافة سليمان بن عبد الملك ، له ديوان شعر جمعه ثعلب ، وله هذا البيت المشهور :

تزجى أغن كأن إبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها

والسداد في المشورة ، فهو حليم لا يغضب ، جواد في العسر واليسر ، وإمام وقدوة حسنة .

١٤ ـ زين العابدين من آل البيت الأطهار التي أتى ذكرهم بعد ذكر الله عز وجل وطاعة جده بعد طاعة الله عز وجل من أطاع الرسول فقد أطاع الله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم (٣١) قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ آل عمران : ٣١ - ٣٢ فحب آل البيت تشريع وعبادة .

١٥ ـ تحققت الوحدة الفكرية ، وترابطت القيم الخلقية في هذه القصيدة بلا مقدمات طللية ولا غزلية ، فقد بدأها الشاعر بالموضوع وظلت عناصره الفكرية تتابع وتتواصل ، وتترابط حوله حتى الوسط ثم الختام ، وهو ما يسمى بالوحدة الموضوعية ، فاستهلها بالغرض الأساس وهو المدح ببلاغة الخطاب وجمال الاستهلال في المطلع ، وظل كذلك حتى نهاية القصيدة ، وكان هذا يعد خروجا على نظام القصيدة في عصر بني أمية وتنكرا لقالبها الفني ؛ فكأنها تحمل بين طياتها التنكر لتجاهل هشام منزلة زين العابدين ، والتمرد لغبطته أو تغافله .

أبعاد القيم الفنية والجمالية : وفي القراءة النقدية لنص الفرزدق والتحليل الجمالي لمحتويات الخطاب في القصيدة في مدح زين العابدين ، تجد شاعرا فحلا من الفحول الثلاثة في العصر الأموي : الفرزدق وجرير والأخطل فقد كان بارعا في التصوير الأدبي تنوعت فيه روافد الصورة ، وتعددت عناصرها في بنائها الفني .

فأما روافد التصوير الأدبي : في القصيدة جاءت متنوعة ؛ فالصورة المستمدة من حقائق التصوير ، قد اتخذت أنماطا كثيرة وأشكالا ثرية ، فاختيار الشاعر لأسماء الإشارة وتكرارها تسع مرات ، يعطي في كل مرة صورة أدبية رائعة تدل في كل مرة على تعظيم معنى ، يختلف في تصويره عن الصور الأخرى في صور متراكبة من مصدر واحد وهو اسم الإشارة ، لكنها واضحة ثرية ، لم تحدث تعتيمًا ولا غموضا ؛ فالإشارة في البيت الأول تصور التعظيم الصادر من أعظم مكان على وجه الأرض ، وهي مكة المكرمة وبيت الله الحرام والحل والحرم والإشارتان الثانية والثالثة في البيت الثاني ، تصور الثانية أن التعظيم في هذه

الصـورة مصدره أن زين الـعابدين حـفيد لخـير عـباد الله كلهم ، والـثالثة تـصور التعظيم الصـادر من قيم أربع وهي : التقي النقي الطاهر العلم ، والإشـارة الرابعة في البيت الثالث تصور التعظيم الصادر من انتسـابه إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء ﷺ ، وتصـور الإشارة الخـامسة « مـن هذا بضائرة » نقض نفي التـعظيم الصادر من هشام بن عبد الملك ، لإثباته وتحـقيقه بعد أن جـاء فـي صورة الإنكار « من هذا ؟ » ؛ لذلك أقـام الشاعر ميـزان التعادلية بـين الإنكار فـي الشطر الأول (من الإنكارية لا الاستفـهامية) وبين الإثبات الذي يصـوره اسم الموصول « تعرف من أنكرت » في الشطـر الثاني ؛ فـهـمـا على وزن واحد في شـطرين متـقـابلين ومتـضادين في المعنى ، الأول نفي وإنـكار ، والثاني إثبات ومـعرفـة عامـة تشمل العرب والعجم ، وتصوير الإشارة السادسة « إلى مكارم هذا » للتعظيم الصادر من غـاية الكرم التي انتـهت إلى بيتـهم الكريم ، لا عند غـيـرهم ، وتصور الإشـارة السـابعة « لأوليـة هذا » التـعظيم الصادر من انتـسـابه لجده أول الخلـق وخـاتمهم وتصور الإشارة الثـامنة بغير هاء التنبيه « أولية ذا » صادر من تعظيم الحـفيد الذي تجاوز معـاصريه في التميز والفضل ، لكـنه دون جده الرسول ؛ لأن قلة المبني تدل على قلة المعنى ، وفي بلاغـة حذف هاء الـتنبيـه ما فـيه من جليل المعنى وشـرف الغاية ، وتصـور الإشارة التاسـعة في « فالدين من بيت هذا » التـعظيم الصادر من بيت النبوة ، لا كأي بيت آخـر ؛ فهو دونه بكثير مهـما كان صاحبه عظيـما كبيت هشام بن عبد الملك ولي العـهد ، وهذه كلها صور أدبية نابعة من الحقـيقة وأقوى من صور الخيـال ، وكذلك الصور الأدبية المسـتمدة من الحقيقة تجدها كـثيرة على النحو السـابق في أسماء الإشـارة والاستفـهام مثل : إفـادة العمـوم والتعظيم في الأسماء المعرفة كما في : « البطحاء ـ البيت ـ الحل والحرم ـ التقي النقي ـ الطاهر العلم ـ العرب ـ العجم ـ الكرم ـ الخلائق ـ الشمائل » وغيرها ، وكذلك ما يفيده التنكيـر وهو نقيض التـعريف ؛ فـإنه يشكل صـوراً أدبية تدل مـرة على التكثيـر والتعظيم كما في : « حـياء ـ عبق ـ شمم ـ غياث ـ معشـر » وغيرها ، ومرة تدل على التقليل والتحقير مثل : « عدم ـ قوم » وغيرها .

ومن الصـور الأدبية المسـتمدة من الحـقـيقة ، الصـور النابعـة من الأفعـال المضارعـة ، التي تمنح أفعـال زين العابدين وأعـماله وأخـلاقه وشـمائله الحـيوية

والحركة والاستمرار ، والتجديد والمداومة ، ولم يأت الفعل الماضي مع الممدوح إلا في تصوير الحقائق والمقدرات الأزلية الثابتة في علم الله القديم مثل : « الله شرفه وعظمه - جرى بذلك - ناله الأمم » وغيرها ، وأما الماضي في « من أنكرت » فليس لإثبات الحقيقة ، وإنما لإنكارها ، حيث وقعت في إطار التضاد مع الاستفهام الإنكاري في : « من هذا » ، وأما الماضي في قوله : « ما جاء يستلم » فقد دل على الاستمرار ، لوقوعه بين « يكاد ويمسك ويستلم » ، فأصبح مجيئه متعلقا باستمرار فعل المقاربة والتمسك والاستلام ، وكذلك صيغ المبالغة ؛ فهي روافد قوية من روافد الصورة الأدبية المستمدة من الحقيقة لروعة التصوير فيها للاستمرار والكثرة والتدافع والمشاركة كما في هذه الصيغ : « عبق - غياث - شيم - الحطيم - حمّال - نعم - نقيب - خيم - كلم - ديم » وغيرها .

وكذلك الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة في أساليب البناء للمجهول مثل صورة : « يغضى من مهابته » ، فهي تصور الكثرة الكاثرة ؛ فالذين يهابونه لا حصر لهم ، إلى حد الإبهام والغموض ، حتى أعداؤه فهم يهابونه ، وكذلك الأمر في : « يستدفع ويسترب » . ثم تلك الصور المستمدة من الحقيقة التي يشكلها الرمز والإيحاء في قوله : « ما قال : لا ، قط .. إلخ » ؛ فالمقصود بالنفي هنا أن زين العابدين ليس سلبيا في معاملة الناس ، وإنما المراد هنا لإثبات الجود والكرم حيث ورد النفي في صيغة التشهد للإثبات لا للنفي ، لأن نفي النفي إثبات ، وأن الجود عنده ليست عادة ، وإنما هو عبادة ، يتقرب بها إلى الله عز وجل كالشأن في التشهد .

ومن الصور المستمدة من الحقيقة أيضا الموسيقى الخارجية في الوزن والقافية الداخلية في المحسنات البديعية ، التي جاءت عفوا ؛ فأحدثت توازنا وتناسقا ، مما يثير الانتباه ، ثم الإيقاع الموسيقي والنغم المتوازن في تناسق التقسيم ، وانسجام التعادل في : « تعرف البطحاء وطأته ، ويعرفه الحل والحرم - التقي النقي ، الطاهر العلم - العرب تعرف من أنكرت والعجم - حبهم دين ، وبغضهم كفر ، وقربهم منجى ، ومعتصم - يستدفع الشر والبلوى ، ويسترب به الإحسان والنعم - إن أثروا ، وإن عدموا » وغيرها .

ثم الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة في تشكيل البعد المكاني مثل :

شهـرته طبقت الآفـاق ؛ فخرجت عن إطار البطحـاء إلى أنحاء العـالم الإسلامي الذي يشمل الحل والحـرم ، ولا يغيب عنهما مكان في الوجـود ، وكذلك الصورة الأدبية التي جسمت البعد المكاني في : « موطن العرب والعجم » ، فهو عام ، ولا يوجد غيرهما من الأجناس على وجه الأرض ، وكذلك الصورة الأدبية في تجسيم البعد التاريخي والزماني ، فالحفيـد زين العابدين موصول بسلالة الأنبياء ونسلهم موصول : « بجده الأنبياء قد ختموا ـ الله شرفه قدما ـ في لوحة القلم ـ لأولية هذا ـ أولية ذا » وغيرها .

ومن الصور الواقعية التي تشكلها مظاهر الطبيعة ، وآيات الكون ، كالنبات والأشجار والغيث مثل : « مشتقـة من رسول الله نبعته ـ وطابت مـغارسه ـ وثوب الضحى ونور غرته ـ وتنجاب الظلم عن إشراق الشمس » وغيرها من آيات الليل والنهار وتعاقبهـما ، وكذلك الخيزرانة ريحها عبق ، ومـا توحي به مظاهر الطبيعة في تضاد الـليل والنهار من تعـارض الاتجاهات السيـاسيـة ، والحزبيـة مع الحزب الحـاكم آنذاك وهو حزب بني أميـة ، بينمـا زين العابدين يمـثل حزب آل البـيت وشيـعتـه ، ولا يرضى أحدهمـا عن الآخر ، وهذا هو سـبب التجـاهل والتغـافل والإنكار ، الذي فجر ثورة الشاعر في تجربته الشعرية لهذه القصيدة الرائعة .

وأما الصــور الأدبية النـابعة من الخـيال : فهي كثيـرة أعظمـها التجسـيم والتشخيص ، فتجـد التشخيص في البيت الأول : « فالبطحـاء نعرفه ـ والبيت الحرام لا يجـهله ـ وكذلك الحل والحرم ـ والخيزران ريحـها عبق ـ ويكاد يمسكه ـ عرفان راحته ـ ركن الحطيم ـ كلتا يديه غياث ـ عم نـفعهما ـ تستوكفان ـ ولا يعروهما عدم ـ يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم ـ جمال أثقال أقوام ـ حلو الشمائل ـ تحلو النعم ـ فـانقشعت الغيابة والإملاق والعدم ـ ذروة الدين ـ مـشتقة من نبعـته ـ طابت مـغارسـه ـ ثوب الضحى ـ نور غـرته كالشمس ـ تـنجاب عن إشراقها الظلم ـ يستدفع الشر والبلوى ـ ويسترب الإحسان والنعم ـ ينقص العسر ـ بسطا مـن الفـهم ـ يأبى لـهم ـ يحل الذم ـ فـأيـد بالندى ديم » وغيـرها من المجازات والاستـعارات والكنايات التي جعلت المعـاني والمجردات والقيـم السـامية شخوصا تتحرك ، وأناسي تتعاطف معه ، في مشاركة وجدانية حميمة ، وفي ثورة شعورية تتحدى هي الأخرى التجاهل والإنكار ، لتقف مع الشاعر والأحباب صفا

واحدا في التحدي والانصاف ، وكما يقول أبو الطيب المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

وأما عناصر التصوير الأدبي : من الصوت الذي يرن في جوانب الصورة من مصادر متعددة ، فتسمع من الأقدام وطأنها ، ومن أوتار الصوت قول القائل وكلامه في قوله : « وطأته - قال قائلها - يغضى حياء - ويغضى من مهابته - يكلم » وغيرها ، وكذلك الحركة الصادرة من الأفعال المضارعة ، التي تدل على التجدد والاستمرار والتدافع والطلب ، وهي كثيرة في : « تأبى - ويستدفع - ويسترب - ينشق - وحمال - وعرفان - غياث - تستوكفان » وغيرها مما لا تخلو منها عبارة .

وأما الألوان الحسية : تتزين في : « البطحاء - البيت - النقي - العرب - العجم - الضحى - نور - غرته - الشمس - الإشراق - الظلم » وغيرها ، وكذلك الألوان المعنوية في : « التقى - الطاهر - العلم - المكارم - الكرم - الحياء - الابتسام - الخلق - الشيم - الدين » وغيرها من الألوان الصافية ، التي تدخل البهجة على النفس وتملؤها إعجابا ، وأما شكل الحل والحرم فيشمل اليابسة التي يعيش عليها الناس ، ولا تجد أسمى من حجم كرم آل البيت وأخلاقهم وشيمهم ، وأغلى قيمة وأثمن جوهرا من غيرهم ، وهكذا في بقية الأشكال والحجوم ، وأما الطعم والرائحة ؛ فالطعم التقي النقي والطاهر والشيم والخلق والعبق طيب وحلو ورائحتها فواحة عطرة ، تتضوع مسكا وعنبرا ، وصدق الرسول ﷺ حين أحسن وتذوق حلاوة التقوى والإيمان فقال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا في الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

هذه هي الصور الجزئية المستمدة من الحقيقة ، أو الخيال ، أو النابعة من الموسيقى ، أو الواقع في الطبيعة والحياة ، أو عن طريق الرمز أو الإيحاء أو من خلال التشكيل الزماني أو المكاني ، أو التاريخي أو السياسي والأزلي ، أو من خلال حيوية التجسيم والتشخيص ، تتعاون هذه المصادر كلها وهي تنبض

بالألوان والأصوات والحركات والطعوم والروائح والأشكال والأحكام في بناء الصورة الكلية ، التي تجسمت فيها « الحقيقة المحمدية » وتشخصت فيها القيم الإسلامية السامية في شخصية حفيد المصطفى ﷺ ، وعترته الطاهرة النقية التقية ﷺ جميعا ، قال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ الأحزاب : ٣٣ .

المعجم الشعري في القصيدة : اشتهر الفرزدق بأنه شاعر الغريب والكلمة الضخمة واللفظ الفخم والحوشي ، حتى قال اللغويون : لولا شعره لضاع ثلث اللغة ؛ لكن طبيعة الموضوع أذابت صخور اللغة عنده ؛ فحولها الإسلام إلى مياه عذبة رقراقة وأنهار صافية سلسة مع الاحتفاظ بجزالتها وفخامتها حتى الغريب منها وقع في تركيب ، جعلت العلاقات بين أجزائه عن معناها الواضح ، فكف المتلقي عن البحث في معاجم اللغة .

كان هذا الاتجاه عند الفرزدق يشكل لديه معجما إسلاميا في أدبه يختلف عن معجمه في النقائض الشعرية والنعرات العصبية ، وهذا المعجم يستمد روافده من مصادر الأدب الإسلامي في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأدب الصحابة مثل : « البطحاء - البيت الحرام - الحل والحرم - خير عباد الله - التقي النقي الطاهر العلم - ابن فاطمة - بجده أنبياء قد ختموا - العرب والعجم - مكارم والكرم والجود - الحياء في الإسلام - ريحها عبق - يكلم ويبتسم - ركن الحطيم - يستلم الحجر - الله شرفه - لوحه القلم - أولية هذا - من يشكر - فالدين - بيت النبوة - سهل الخليقة - حسن الخلق والشيم - حلو الشمائل - تشهده - لا يخلف الوعد - مأمون النقيبة - يعتزم - عم البرية بالإحسان - الإملاق والعدم - ذروة الدين - فضل الأنبياء - فضل أمته - النعم - العسر بسطا » وغيرها من المصطلحات والكلمات والصيغ والأساليب ، وما تنبض من إشارات وإيحاءات تثير في الوجدانات والخواطر كثيرا من الآيات والأحاديث الشريفة والوصايا والخطب للصحابة والقصص القرآني والنبوي ، والسيرة النبوية العطرة والتاريخ الإسلامي الشامخ ، وقد أشرت إلى ذلك في بعض المواقف التي تثير في المتلقي منهجا يستخدمه في البحث عن هذه الروافد في مصادر الأدب الإسلامي الثلاثة .

بين المدح والشعر السياسي :

قصيدة الفرزدق تقوم على غرض المدح من المطلع حتى الخاتمة ، وهو غرض قديم ، لكنه في العصر الأموي لبس ثوبا جديدا فأصبح من الأغراض المتجددة حتى أطلق عليه النقاد في كثير من صوره الشعر السياسي ، كما أوحت إلى ذلك قصيدة الشاعر في مدح زين العابدين وإن كانت الغاية الأسمى هي المدح لذات المدح لا طمعا في منصب أو عطايا ، وإنما كانت خالصة للمدح ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، وإن كانت لا تخلو من إيحاءات السياسة والتشيع بين حين وآخر ، وأما معظم قصائد المدح في هذا العصر فقد سارت في ركاب الشعر السياسي فالكميت شاعر سياسي في مدحه لأنه يدافع عن حزب التشيع لآل البيت ، وعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر سياسي يدافع عن حزب الزبيريين متحديا حزب بني أمية والطرماح بن حكيم وقطري بن الفجاءة وأبو حمزة الشاري يدافعون عن حزب الخوارج ، وكثير من شعراء العصر الأموي في شعر المدح عندهم يكون شعرا سياسيا يدافعون به عن الحزب الحاكم من بني أمية وهكذا فقد لبس المدح في هذا العصر ثوبا سياسيا ، فأصبح لونا من ألوان الشعر السياسي ، فقد ذكرت جزءا من قصيدة جرير في مدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقصيدة عدي بن الرقاع في مدح الوليد بن عبد الملك ، وهما من الشعر السياسي ، يقول شاعر الخوارج عمران بن حطان (١) :

لقد زاد الحياة إلي بغضا ... وحبا للخروج أبو بلال

أحاذر أن أموت على فراشي ... وأرجو الموت تحت ذرا العوالي

فمن يك همه الدنيا فإني ... لها والله رب البيت قالي

ويقول شاعر بني هاشم الذي يدافع عنهم وعن شيعتهم الكميت في قصيدته المشهورة (٢) :

---

(١) عمران بن حطان بن ظبيان السدوسي الشيباني أبو سماك ، رأس القعدة من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ، اقتصر دوره على الدعوة ، وأدرك الصحابة وروى عنهم الأحاديث الشريفة وطال عمره حتى توفي عام ٨٤هـ وله شعر كثير .

(٢) هو الكميت بن زيد الأسدي ، ولد وعاش بالكوفة ما بين (٦٠ - ١٢٦هـ) ، وكان ==

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ... ولا لعبا مني وذو الشيب يلعبُ
ولم تلهني دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربني بنان مُخَضَّبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بني حواء والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلاء ... مِجَنّاً على أني أذم وأُقصب
وأرمي وأرمى بالعداوة وأهلها ... وإني لأوذي فيهم وأُؤَنَّب
فما ساءني قول امرئ ذي عداوة ... بعوراء فيهم يجتديني فأجذب
بأي كتاب أم بأي سنة ... ترى حبهم عاراً علي وتحسب
وقالوا ترابي هواه ورأيه ... بذلك أُدْعى فيهم وأَلَقَّب
لنا قائد منهم عنيف وسائق ... يقحمنا تلك الجرائيم متعب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم حقا على الناس واجبا ... سفاها ، وحق الهاشميين أوجب

أما شاعر الزبيريين في أول حياته فهو عبيد الله بن قيس الرقيات يقول (١):

== خطيبا شاعرا لآل البيت يناصرهم على بني أمية ويتعصب للهاشميين ، وكان عالما بالعربية وأنساب العرب وأيامها وأخبارها ، وتفوق على حماد الراوية في مناظراته ، لكنه بعد ذلك مدح الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ورجالات دولته ونال جوائزهم ، وله الهاشمات والبائية المطولة وشعر آخر كثير ، قال عنه الفرزدق : هو أشعر من مضى ومن بقي ، وقال الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان . انظر : شاعر العصر المرواني : الصعيدي ، وهاشميات الكميت ، القاهرة ١٣٣٠هـ .

(١) تقفى : تذهب . الرعاةُ : المسئولون . العلات : الضرائر . اللواء : السيادة . الملاء : الثوب الناعم . لخم وجذام وحمير وصداء وعك : أسماء لقبائل وأحياء . السمك : السماء والسقف . استقل : ارتفع . الشهاب : الكوكب . تجلت : انكشفت . شعواء : منتشرة . تذهل : تنسى . براها : الخلخال . العقيلة : المصونة . العذراء : البكر . مزور : بعيد . والرقيات شاعر قرشي ولد بمكة ، ثم عاش في المدينة والعراق ، ناصر الزبيريين وقاتل معهم ، ولما قتل مصعب عفا عنه عبد الملك بن مروان ومدح خلفاء بني أمية ، ثم مدح عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وظل بها في منزلة كبيرة عنده ، توفي عام ٧٥هـ ، ومدح الخليفة عبد الملك بن مروان في المرحلة الثانية من حياته ، منها قوله : ==

أيهـا المشتـهي فنـاءَ قـريش | بيـد الله عـمـرهـا والفنـاء
إن تودَّع مـن البـلاد قـريشٌ | لا يكـن بعـدهم لحـيٍّ بقـاء
لـو تُقفى وتُترك الـناس كـانـوا | غنم الـذئب غـاب عنهـا الرعـاء
هل ترى من مُخلد غـير أن اللـ | ـه يبـقى وتـذهب الأشـيـاء
يأمل النـاس في غـدٍ رَغبَ الـدَّهْـ | ـرِ، ألا في غـدٍ يكون الـقضـاء
مـعشـرٌ حَفُّهم سيـوفُ بني العلاَ | تِ يَخْشَوْنَ أن يـضـيع اللـواء
مـثل وقع القـدوم حل بنـا فـالنـ | ـاس مما أصـابنـا أخـلاء
ليـس لله حـرمـة مـثل بيت | نحـن حُجَّابُه عليـه المـلاء
خَصَّهُ الله بـالكـرامـة فـالبـاَ | دُونَ والعـاكـفـون فـيـه سـواء
حـرّقـتـه رجـالُ لَخْمٍ وعُكٌ | وجُذامٍ وحِمْيـر وصُدَاء
فَبَنَيْنَاهُ بعـدمـا حَرَّقُوه | فـاستـوى السمك واستـقل البناء
إنما مصعبٌ شـهـابٌ من اللـ | ـه تجلت عـن وجْهـه الظَّلْمـاء
مُلكهُ مُلك قـوةٍ ليْسَ فـيـه | جَبَروتٌ وَلا بـه كـبْرياء
يتَّقـي اللهَ في الأمـور وقـد فـ | ـلح من كـان همـه الاتقـاء
كَيْفَ نَوْمي عـلى الـفراش ولَمَّا | تَشْمـل الـشَّام غـارةٌ شَعْواء
تذهـل الشـيخ عن بنيـه وتُبْدي | عن بُراهـا العـقـيلةُ العَذْراء
أنـا عنكم بـني أمـيـة مُزْوَ | رّ وأنْتُمُ فـي نَفْسِيَ الأعـداء

* * *

== وأنهم معدن الملوك فلا | تصلح إلا عليهم العرب
يأتلق التاج فوق مفرقه | على جبين كأنه الذهب

انظر : الشعر والشعراء ، الخزانة ، طبقات ابن سلام ، الأغاني للأصفهاني .

الرثــــاء

تقول ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحُمَيِّر (١) :

بَعيـدُ الثَّرى لا يبلغُ القـومُ قَعْرَهُ أَلَدٌّ مُلدٌّ يَغلبُ الحـــقَّ باطلُهْ
إذَا حَلَّ رَكْبٌ فـي ذُراه وظـلِّه لَيَمْنَعَهـم ممَّا تُخـافُ نوارِلُهْ
حماهم بِنَصْلِ السَّيْفِ مِنْ كل فادح يَخَافُونه حـتى تموت خـصائلُهْ
مَعاذَ إلـهي كـان والله سَيِّداً جَوَاداً عـلى العلاّت جَمّاً نَوافلُهْ
أَغَرَّ خـفاجياً يَرَى البُخْلَ سُبَّةً تَحلَّبُ كَفَّاه الـنَّدَى وأنامِلُهْ
عَفيـفاً بعيـدَ الهمِّ صُلْباً قَنَاتُه جَميـلاً مُحيَّاهُ قَليلٌ غوائلُهْ
وكـان إذا ما الضَّيْفُ أَرْغَى بَعيرَه لَدَيْه أتاهُ نَيْلُهُ وفَواضلُهْ
وَقَدْ عَلم الجُوعُ الـذي باتَ سَارِياً عَلَى الضَّيْف والجيـرانِ أنَّكَ قَاتلُهْ
وأنَّكَ رَحْبُ البـاعِ ياتَوْبُ بالقِرَى إذا مَا لَئِيمُ الـقَوْمِ ضَاقَتْ مَنَازِلُهْ

---

(١) هي ليلى بنت عبد الله بن معاذ بن شداد بن كعب الملقب بالأخيل العامرية من قيس عيلان ، كان يعيش في نجد ، قالت تفتخر بقومها :

نحن الأخايل لا يزال غلامنا حتى يدب على العصا مشهورا

ولم يعرف تاريخ مولدها على وجه التحديد ، ويكاد يكون ما بين (٢٠ ، ٢٥هـ) ، فقد خاطبت الخليفة معاوية بشعر لها يدل على نضج شاعريتها (٤١ : ٦١هـ) ، ولم يتحدد تاريخ وفاتها فتأرجح ما بين (٨٥ ، ٩٠هـ) ، وقد وقعت في حب توبة من بني خفاجة ، واشتهر حبها العذري في شعره ، فطلبها من أبيها فأبى أن يزوجها له ، وزوجها لرجل من بني الأذلع ، لكنه ظل ينشد حبها حتى قتل وماتت بعده بسنوات بعد أن قالت فيه رثاء يعد معظم شعرها ، ومنه هذه القصيدة ، وقد تزوجت للمرة الثانية من سوار بني أوفى القشيري ، ويعد الحب العذري بين شاعرين كما وقع بين ليلى وتوبة أمر نادر في الشعر العربي ، وهو توبة بن الحُمَيِّر بن ربيعة بن كعب بن خفاجة ، فهو عامري من قيس عيلان ، قال فيها :

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا
عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسري إلى خيالها

فقالت ليلى :

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

انظر : جمهرة أنساب العرب ، والأغاني ، وفوات الوفيات ، ومروج الذهب ، وديوان ليلى ، وغيرها .

يَبِيتُ قَرِيرَ العَيْنِ مَا بَاتَ جَارُهُ ... ويُضْحي بخَيْرٍ ضَيْفُهُ ومُنَازِلُهْ
أَتَتْهُ المَنَايَا حِينَ تَمَّ تَمَامُهُ ... وأقْصَرَ عَنْهُ كُلُّ قِرْنٍ يُطَاوِلُهْ
وكَانَ كَلَيْثِ الغَابِ يَحْمِي عَرِينَهُ ... وتَرْضَى به أشْبَالُهُ وحَلاَئِلُهْ
غَضُوبٌ حَلِيمٌ حِينَ يُطْلَبُ حِلْمُهُ ... وسُمٌّ زُعَافٌ لا تُصَابُ مَقَاتِلُهْ (١)

مناسبة القصيدة : سأل الخليفة معاوية بن أبي سفيان ليلى الأخيلية قائلا : ويحك يا ليلى ! أكما يقول الناس كان توبة ؟ ؛ فقالت : يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقوله الناس حقا ، والناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانوا ، وعلى من كانت ، ولقد كان يا أمير المؤمنين سبطا لينا ، حديد اللسان شجا للأقران كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وهو يا أمير المؤمنين كما قلت له قال : وما قلت له ، قالت : قلت ولم أتعد الحق وعلمي به :

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره ... ألدّ مُلِدّ يغلب الحق باطله .. إلخ

فقال لها معاوية : ويحك ! أيزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا ؟ ، فقالت من ساعتها :

معاذ إلهي كان والله سيدا ... جوادا على العلات جما نوافله

---

(١) بعيد الثرى : كثير الخير ، والمراد عمّ خيره . قعره : أصله ، فهو عميق لا يدرك القوم ما عنده . ألد : شديد الخصومة . ملد : ليّن ناعم في خصومته وجدله ، والمعنى : فهو مع شدة خصومته ناعم الملمس لين الأريكة . يغلب الحق باطله : المراد أن توبة لحسن سياسته في الخصومة يظن أن الباطل يزهو على الحق ، وليس الأمر كذلك مما يدل على حنكته وحسن سياسته . ذراه وظله : أي في ظلاله ورعايته . نوازله : شدائد الدهر . فادح : خطب . خصائله : اللحم المجدول بالعصب ، والعبارة كناية عن ذهاب الخطب وانفراج الشدائد . على العلات : على كل حال من العسر واليسر . جم النوافل : كثير العطايا . خفاجيا : نسبة إلى جده خفاجة بن عمرو . السبة : العار . بعيدا لهم : عالي الهمة . قناته : رمحه . المحيا : الوجه . غوائله : الدواهي . رغاء البعير : صوته . نيله وفواضله : العطايا . سرى : سار ليلا . رحب الباع : واسع الصدر . القرى : طعام الضيف . اللئيم : البخيل ، والشطر كناية عن البخل . قرير العين : آمنا هانئا . منازله : ضيفه . تم تمامه : حان أجله . قرن يطاوله : كفء يغالبه شجاعة . عرين : بيت الأسد . والشبل : ولد الأسد . وحليلاته : زوجاته . انظر : ديوان ليلى الأخيلية ، جمع وتحقيق خليل العطية وجليل العطية ، بغداد عام ١٩٦٧م ، وأشعار النساء للمرزباني ، وشاعرات العرب ، جمع وتحقيق عبد البديع صقر ، والشاعرة العاشقة ليلى الأخيلية : إبراهيم مسلم ، وغيرها .

إلى آخر القصيدة .

فقال لها معاوية : لقد جزت بـ « توبة » قدره ، فقالت : والله يا أمير المؤمنين لو رأيته وخبرته لعلمت أني مقصرة في نعته ، وأني لا أبلغ كنه ما هو أهل له [١] ، وردت على الحكم بن مروان حين وجه إليها اتهام معاوية فقالت : والله ما كان خاربا ، ولا للموت هائبا ، ولكنه كان فتى له جاهلية ، ولو طال عمره وأنسأه الموت لا رعوى قلبه ، ولقضى في حب الله نحبه ، وأقصر عن لهوه ، وهو كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد [٢] :

فلله قوم غادروا ابن حُمَيِّر قتيلا صريعا للسيوف البواتر
لقد غادروا حزما وعزما ونائلاً وصبراً على اليوم العبوس القماطر
إذا هاب ورد الموت كل غضنفر عظيم الحوايا ليه غير حاضر
مضى قدماً حتى تلاقى بورده وجاد بسيب في السنين القواشر

أصداء الخطاب عند المتلقي

القيم الخلقية : هذه تجربة شعورية أحسّت بها « ليلى » نحو « توبة » التي أحبته حبا عذريا خالصا ، فقد تبادل معها هو كذلك حبا طاهرا ؛ مجرداً عن المتعة الجسدية ، ومنزها عن اللذة الحسية ، وإنما كان هذا الحب الطاهر والتعاطف السامي كما يقول توبة :

عفا الله عنها هل أبيتن ليلة من الدهر لا يسري إلي خيالها

فترد عليه ليلة قائلة :

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه عزيز علينا حاجة لا ينالها

لذلك أحبته وأحبها في الله ، ولما قضي نحبه ردت اتهامات توجهت إليها وإليه وفاء بهذا الحب الطاهر العفيف وعرفانا للجميل ؛ فذكرت قيمه الخلقية التي كان يتصف بها ؛ فقد كانت أيضا أكثر وفاء له بعد موته ، يحفظ العهد بينهما ، وتحفظه بعد رحيله كما كانت تحفظه في حياته ، فوصفته بقيم كثيرة ،

---

(١) الأغاني : الأصفهاني ٢٣٧/ ١١ .

(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور : زينب العاملي ص ٤٧٥ .

كان يتصف بها لترد هذه الاتهامات التي توجهت من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ﷺ ، ومن والي المدينة المنورة الحكم بن مروان ، فكان ردها كما ذكرناه في مناسبة القصيدة .

وتلك هي المشاعر الصادقة ، والعواطف الإسلامية النبيلة التي يعبر عنها المسلم نحو أخيه المسلم ؛ فإذا لقي ربه ، لا بد أن يذكر حسناته ، وقيمه الإسلامية السامية ، التي يتمتع بها بين الناس ، وهو ما ينبغي أن يتصف به المسلم نحو أخيه الذي قضى نحبه : « فاذكروا محاسن موتاكم » ، وهذا هو التعاطف والتراحم في قوله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتعاونهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، لذلك ذكرت لهما محاسنه ، بل أكدت أنه لو طال عمره لاستجاب لتعاليم الإسلام أكثر وأكثر فيترك الإغارة والغزو بغير حق ، فقالت : « ولقد كان فتى له جاهلية ، ولو طال عمره وأنسأه الموت ، لا رعوى قلبه ولقضى في حب الله نحبه » ، فهي دائما تردد مناقبه وفضائله في رثائها له ، وهو يمثل معظم شعرها ، فتقول في تكرار إلى نهاية القصيدة كالشأن في تعديد النساء :

ونعم الفتى يا توب كنت إذا التقت	صدور العوالي واستشال الأسافل
ونعم الفتى يا توب كنت ولم تكن	لَتُسْبَق يوما كنت فيه تحاول
ونعم الفتى يا توب كنت لخائف	أتاك لكي يحمي ونعم المجامل
ونعم الفتى يا توب جارا وصاحبا	ونعم الفتى يا توب حين تفاضل

إلى آخر القصيدة (١) .

أما بقية القيم الخلقية الأخرى التي اتصف بها المرثي « توبة » ، وينبغي أن يتأسى بها من بعده ؛ ليكون مثلا يحتذى فيها ؛ فقد اتصف بالفروسية والشجاعة والسيادة والحكمة ، والحزم والعزم ، والعفة والأمانة ، والوفاء والصدق ، والكرم والسخاء ، والنجدة وإغاثة الملهوف ، والسماحة والحنكة السياسية ، وسعة الصدر ورحابة الأفق ، وتكريم العاني وقرى النزيل ، والإيمان بالحتم وحلول الأجل وغير ذلك من القيم الإسلامية والإنسانية السامية ، التي يجب أن يحتذيها المسلم

---

(١) حماسة البحتري : ص ٢٧٠ - ٢٧١ ، وفي أمالي المرتضى : ص ١٢٤ - ١٢٥ .

ويتأسى بها من بعد موته ، فهي الذكرى الحسنة له ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

وإذا كانت ليلى الأخيلية ترثي « توبة » في حبها الطاهر العفيف ، وتصور عواطفها العذرية السامية ، فهذا جرير بن عطية الخطفي يرثي زوجته وقرينة حياته فلا ينسى الفضل الذي كان بينهما : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ البقرة : ٢٣٧ ، الذي يتزايد بالحياة الزوجية ، وليس من باب العرفان بالجميل فحسب ، ولكن لما قامت عليها الأسرة الإسلامية من الميثاق الغليظ ، ولما أفضى كل منهما للآخر من الحب في الله تعالى والإخلاص لله سبحانه كما قال عز وجل : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾ النساء : ٢١ .

يقول جرير في رثاء زوجته :

لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار
نعم القرين وكنت علق مضنة ... وثَرَى بنَعْف بليّة الأحجار
عَمَرَتْ مكرَّمة المساك وفارقتْ ... ما مسَّها صَلَفٌ ولا إقْتَارُ
كانت مُكَرَّمة العَشير ولم يكنْ ... يخشَى غوائلَ أُمِّ حَزْرَةَ جَار
ولقد أراك كُسيتَ أجْمل منظر ... ومعَ الجمال سَكينةٌ وَوَقار
والريحُ طَيِّبَةٌ إذا استقبلْتها ... والعِرضُ لا دَنَسٌ ولا خَوَّار
وإذا سَرَيْتُ رأيتُ نارَك نَوَّرتْ ... وجْهاً أغرَّ ، يزينه الإسفار
صلى الملائكة الذين تُخيِّروا ... والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما ... نَصَبَ الحجيج مُلَبِّدين ، وغاروا (١)

إلى آخر القصيدة التي تصور القيم الأخلاقية التي حث عليها الإسلام لبناء الأسرة المسلمة في صور أدبية رائعة تعبر عن الإيمان الصادق والإخلاص في الحب والتضحية والإيثار ، والعواطف القوية الودودة ، والعرفان بالجميل ، وإسناد الفضل لأهله ، والاعتزاز بهم : « فخيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

وحينما يشعر المؤمن بأن ساعة الرحيل قد أزفت ، وحلّ لقاء الله عز وجل

---

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه .

فيقف واعظا لنفسه ، وزاجرا لشيطانه ، وتائبا لربه ، ومستغفرا لذنبه ، ومقبلا على الدار الآخرة ، ومدبرا عن متاع الحياة الدنيا ، يصغر في عينيه كل كبير ، وتتلاشى فيها المتعة واللذة ، فمهما غرت وعزت فهي مريرة فانية ، وللآخرة خير لك من الأولى ، هكذا ختم مالك بن الريب حياته بما يرضي الله عز وجل فأسعد نفسه فكف عن قطع الطريق ، وأقبل على نصيحة سعيد بن عثمان والي خراسان وانضم إلى جيشه ، وجاهد معه في سبيل الله ، ولما انتهت المعركة ، وعاد وقد أبلى فيها بلاء حسنا أحس بدبيب الموت في جسده يدفعه إلى أجله ؛ فأخذ يتذكر الأيام الخوالي في وطنه وادي الغضا ومراتع لهوه ؛ ليتسلى عنه بالهدى بعد الضلال ويتعزى عنه بالجهاد في سبيل الله ، وقد تاب توبة نصوحا ؛ فليس بعد أجر للجاهد من أجر عظيم ، وهو أكبر عزاء له عن وطنه وما يحوي من ملاء وآمال وأهل وأحباب .

ثم يترفق بإخوانه من حوله بأن يوسدوه التراب في هذا الفضاء الواسع خيرا وعوضا عن وطنه الضيق ، فلا يحسد عليه ، ولا على كفنه الذي جاهد به ليكون شاهدا عليه ، وآية مميزة للشهداء كما أمر الرسول ﷺ ، وليحفروا قبره بسيفه ورمحه ، الذي جاهد بهما ، لا بأيديهما كالشأن في دفن الفارس الشجاع وإن أهله وعشيرته ليفتدوه عند الطبيب بالآباء والأمهات ، وحينئذ لا ينفع الطبيب ولا يجزي الفداء ، فقد حم القضاء ، وحان الأجل « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، هكذا يرثي الشاعر المجاهد المسلم مالك بن الريب نفسه ، ويتأسى عن فقد الأحبة والأهل والوطن بجهاده ، ويتسلى بما عوضه الله خيرا بالهداية والطاعة عن الضلال وقطع الطريق ، ليكون مثلا يحتذى لمن بعده في التوبة والهدى والجهاد ، فيهتدي ويجاهد في سبيل الله كما اهتدى وجاهد في سبيله ، ويلقى ربه راضيا عن نفسه فيرضى الله عنه ، يقول مالك بن الريب يرثي نفسه ويستعد للقاء ربه (١) :

أَلاَ لَيْتَ شِعْري هَلْ أبيتنَّ ليلةً ... بجنب الغَضَا أُزجي القِلاصَ النَّواجيا

---

(١) خزانة الأدب : البغدادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩م .

فليْت الغضا لم يقطع الركبُ عرضَهُ | وليت الغضا ماشي الركابِ لَيَاليا
ألم تَرَني بعتُ الضلالة بالهدى | وأصبحتُ في جيشِ ابن عفان غازيا
وأصبحتُ في أرض الأعادي بُعَيْدَمَا | أراني عَنْ أرضِ الأعاديّ قاصيا
تذكرتُ مَنْ يبكي عليّ فلم أجدْ | سوى السيف والرمح الرُّدَيْنيّ باكيا
صريع على أيدي الرجال بقفرة | يُسَوُّون لحْديَ حيث حُمَّ قضائيا
ولما تراءتْ عند مَرْوٍ منيَّتي | وخَلَّ بها جسمي وحانتْ وفاتيا
أقول لأصحابي ارفعوني فإنه | يقرُّ بعيني أنْ سهيلَ بَدَا ليا
فيا صاحبَيَ رَحْلِي دنا الموت فانزلا | برابية إني مقيمٌ لَيَاليا
وقوما إذا ما استهل روحي فهيئا | لي السِّدْرَ والأكفان عند فنائيا
وخُطَّا بأطراف الأسنة مضجعي | وردَّا على عَيْنيَّ فضل ردائيا
ولا تَحْسُدَاني بارك الله فيكما | من الأرض ذات العرض أن تُوسِعَا ليا
خذاني فجراني بِبُرْدي إليكُما | فقد كان قبل اليوم صعباً قِياديا
وقد كنت عطافاً إذا الخيل أدْبرتْ | سريعا إلى الهيجا إلى من دعائيا
وقد كنت صبّاراً على القرن في الوغى | وعن شتمي ابن العم والجارَ وانيَا
يقولون لا تبعد وهم يدفنونني | وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يا لهف نفسي على غد | إذا أدلجوا عني وأصبحت ثاويا
وأصبح مالي من طريف وتالدٍ | لغيري وكان المال بالأمس ماليا
اقلب طرفي فوق رحلي فلا أرى | به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل منا نسوة لو شهدنني | بكين وفدين الطبيب المداويا
فمنهن أمي وابنتاها وخالتي | وباكيه أخرى تهيج البواكيا

القيم الفنية : تعبر كل مرثية من المرثيات الثلاث عن تجربة شعرية تختلف عن الأخرى من حيث البناء الفني والتصوير الأدبي لاختلاف الشاعر وطبيعة المرثي ؛ فهي مختلفة في جوانب فنية ، كما هي متفقة في جوانب أخرى .

أما المظاهر الفنية التي اتفقت فيها فهي كثيرة ؛ منها :

١ ـ أنها تجربة ذاتية تعبر عن تجربة شعرية حزينة ، تصور تباريح الآلام وأوجاع الأحزان ؛ لفقد المرثي ورحيله عن الدنيا ؛ لكن العزاء فيه أنه كان مثلا يحتذى في قيمه ومناقبه وفضائله .

٢ ـ أن التجربة الشعرية في الثلاثة تلاءمت فيها المعاني والعاطفة والمشاعر والخواطر مع الألفاظ والأساليب ، والصور المستمدة من الحقيقة والخيال والموسيقى ، وعناصر التصوير وروافده المتنوعة ، تحمل بين طياتها ظلال الحزن وقتام الفراق والبعد ، وضباب الألم والأسى .

٣ ـ اتفقت القصائد الثلاث في اعتمادها على الوحدة الموضوعية ؛ بلا مقدمات طللية ولا غزلية ، ولا عرض لوصف الرحلة والراحلة ، لكن الشاعر هنا هجم على الرثاء من أول بيت في المطلع حتى نهاية القصيدة ، وكان هذا اتجاها أدبيا مبكرا في تحقيق الوحدة الموضوعية في الشعر الإسلامي .

٤ ـ هذه التجارب الشعرية الثلاث من أصدق التجارب في رثاء العصر الأموي لم يصدر عن شاعر يطمع في منصب أو عطاء ، ولم يبغ جاها أو يرغب في مجاملة ؛ ليرثي خليفة أو أميراً أو حاكما أو قائدا أو واليا ، وإنما المرثي هنا حبيبا عند ليلى ، أو زوجة حبيبة لجرير ، أو أن المرثي هو الشاعر نفسه وذاته ، لا أحداً سواه ؛ فالأخيلية جندت معظم شعرها في رثاء حبيبها توبة بعد مماته وقد زالت الشبهات وذهبت الفتنة ، ولم يبق إلا الحب الخالص والوفاء الطاهر ، بل كانت تدفع كل اتهام يوجه إليه ، ممن كانوا يغبطونها على رثائها له ، أما جرير فقد رثى زوجته أم أولاده ، وقرينة حياته ؛ فكانت روافد الصورة وعناصرها تقطر ألماً ، وتتنزى دموعاً ودماً ، وأما مالك بن الريب فقد كان يرثي نفسه ، وليس هناك أعز عليه من نفسه .

٥ ـ التزمت القصائد الثلاث بعمود الشعر العربي المعروف لدى النقاد في خصائص المعاني والألفاظ والأساليب والخيال والموسيقى والقافية .

٦ ـ تأثرت القصائد الثلاث بالقيم الخلقية والفنية التي عززتها الشريعة الإسلامية بمصادرها المتنوعة من القرآن الكريم والسنة الشريفة وأدب الصحابة ﷺ وغيرها من مظاهر الاتفاق .

وأما جوانب الاختلاف في التصوير الأدبي فكثيرة ؛ من أهمها :

تجد التجربة الشعرية عند ليلى نابعة من البيئة التي كانت تعيشها الشاعرة والمرثي معا ، وهي البيئة الصحراوية والبدوية ، لا الحواضر والقرى ؛ فقد نحتت

ألفاظها من صخور البادية ، وأسلوبها من البنية الأعرابية في الصحراء الجافة الشاقة ، تشعر بذلك في الألفاظ والأساليب : « بعيد الثرى - قعره - ألد ملد - حل ركب في ذراه - نصل السيف - فادح - خصائله - على العلات - خفاجيا - سبه - صلبا - قناته - غوائله - أرغى بعيره - ساريا - رحب الباع - القرى - قرن يطاوله - ليث الغاب - عرينه - أشباله - حلائله » وغيرها من البنية الأعرابية البدوية التي استجابت شاعريتها لرقة الرثاء وسلاسته .

وتجد أيضا ملامح البادية وجفوة الصحراء في الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة والخيال مثل الكناية عن الحنكة والحصافة في البيت الأول : « بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره .. إلخ » ، والصورة المستمدة من الحقيقة في قولها : « ألد ملد » فهي صورة تجمع بين النقيضين في كلمتين متقابلتين ؛ فالأولى تعبر عن اللدد في الخصومة والعناد في التحدي ، والثانية تعبر عن لينه ومرونته في الجدل ومراوغته في الخصومة ؛ فهو ليس عنيفا وصلبا ؛ فيكسر ويهزم ، ولا لينا سهلا فيعصر ، بل إنه سياسي بارع ، و« دبلوماسي » ماهر ، وكذلك الأمر في الاستعارة المكنية في قولها : « يغلب الحق باطله » ؛ فهي بنية أعرابية ، لو وقعت وحدها مفصولة عما قبلها لأعطت نقيض المراد عند الشاعرة ، في صورة بدوية بديعة : وهي أن توبة لحسن سياسته يظن خصمه أن الباطل في الحوار والجدل يغلب الحق بينما الأمر على النقيض من ذلك ؛ فهو حاذق ماهر ، ينصب شباكه ليقع خصمه فريسة مهزوما أمام حنكته وسياسته ومرونته ؛ فينتصر عليه ليزهق الحق الباطل وكذلك في صورة الكناية في قولها : « حل ركب في ذراه وظله » بمعنى يعيشون في حفظه ورعايته ، والكناية عن العز والمنعة في قولها : « حماهم بنصل السيف من كل فادح » ، والبداوة في الاستعارة في قولها : « تخاف نوازله » ، وكذلك الاستعارة المكنية البديعة في قولها : « تموت خصائله » تصوران أن عنفه في القتال وكثرة الضرب لا تؤدي إلى ضعفه ، بل تكون دافعا قويا ورياضة بدنية لتقوي خصائل عضده وتجدل عصب لحمه وعضلات جسده ، وصورة الكناية البدوية عن تعاقب اليسر والعسر في قولها : « جواد على العلات » ، وشتان بين هذا التصوير البدوي وتصوير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فإن بعد العسر يسرا (٥) إن بعد العسر يسرا ﴾ .

وكذلك البنية الأعرابية في قولها : « جما نوافله » بمعنى كثير العطايا والهبات ، والبنية الأعرابية في الكناية عن حتمية الأجل وقضاء الموت في قولها : « تم تمامه » ، وكذلك في كل الصور الأدبية الرائعة المستمدة من البادية والبيئة الصحراوية ، التي كانت تعيش ليلى تجربتها الشعرية مع توبة في قولها : « أغر خفاجيا - يرى البخل سبة - تحلب كفاه الندى وأنامله - بعيد الهم - صلبا قناته - جميلا محياه - قليلا غوائله - ارغى بعيره - أتاه نيله - علم الجوع - بات ساريا - رحب الباع بالقرى - ضاقت منازله - يبيت قرير العين - أتته المنايا - كليث الغاب - يحمي عرينه - وترضى أشباله وحلائله - غضوب حليم - سم زعاف - لا تصاب مقاتله » وغيرها من الصور التي تعبر عن طبيعة المرأة ، التي تنبني على تكرار الكلمات ومعاودة الألفاظ ، وخاصة في تصوير الحزن والألم عند طروق الحوادث ، وحلول النكبات ، ونازلة الموت بما يسمى بـ « التعديد » كما في الأبيات السابقة التي انتهت بقولها :

ونعم الفتى يا توب جارا وصاحبا ... ونعم الفتى يا توب حين تفاضل
لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ... ويكثر تسهيدي له لا أوائل
لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ... ولَوْ لاَمَ فيه ناقص الرأي جاهل
لعمري لأنت المرء أبكي فقده ... إن كثرت بالملحمين التلاتل
فلا يبعدنك الله يا توب إنما ... لقيت حمام الموت والموت عاجل

فلا يبعدنك الله ... فلا يبعدنك ... وهكذا إلى نهاية القصيدة (١) .

وغيرها من ألوان التصوير الأدبي للقيم الإسلامية في الرثاء عند المرثي وإن كانت قد استمدت موادها الفنية من البيئة البدوية التي عاشتها الشاعرة والمرثي ؛ وهي أيضا بيئة إسلامية في العصر الأموي ، كما تلمح من حين لآخر صورا تنبض بالتصوير الأدبي ؛ المستمد من القرآن الكريم والسنة الشريفة كالصورة الكلية في الشطرين من البيت الأول من القصيدة : « بعيد الثرى .. » ، فقد استمدت روافدها وقيمها من قوله تعالى (٢) : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة

---

(١) ديوان ليلى الأخيلية : التحقيق السابق .

(٢) سورة النحل : ١٢٥ - ١٢٨ .

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ الإسراء : ٨١ ، وكذلك صورة « معاذ إلهي كان والله سيدا » وصورة « جوادا على العلات » من قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا ۝ إن مع العسر يسرا ﴾ ، وصورة « جما نوافله » وهي نوافل السنن المحمدية من البذل والعطاء وغيرها من الصور الأدبية المستمدة من المصدرين الكبيرين .

وكذلك الصور الأدبية المستمدة من الموسيقى الخارجية من كثرة التفاعيل في البحر الطويل ، ومن الموسيقى الداخلية والخفية من كثرة المدات وحروف اللين والشدات ، مما يعطي للإيقاع طولا وامتداداً يتناسب مع النبرة الحزينة للراثي النابعة من فتور جسده ، وتتابع أنفاسه ، وتواصل أوتاره اليائسة ، ومن كثرة المحسنات البديعية العفوية ، التي تصور إيقاعات الحزين في نبرات صوته ، وتوقيعات حزنه من صور الجناس والطباق والمقابلة والمزاوجة والتقسيم والمشاكلة والتورية واللف والنشر والجمع والتفريق وغيرها في قولها : « ألد ملد ـ الحق والباطل ـ ذراه وظله ـ نيله وفواضله » ، وما أصدق توقيعات التقسيم للدلالة على الأسى والألم والحسرة والندم في قولها :

عفيفا ـ بعيد الهم ـ صلبا قناته ـ جميلا محياه ـ قليلا غوائله

والمقابلة في قولها :

وأنك رحب الباع يا توب بالقرى إذا ما لئيم القوم ضاقت منازله

ثم الجمع والتفريق والقلب في البيت الأخير من القصيدة ، وغيرها من المحسنات البديعية والتوقيعات الموسيقية التي جاءت عفو الخاطر .

وتلاءمت أيضا مع روافد الصورة الأدبية عناصر التصوير من الحركة والألوان والأصوات والطعوم والروائح والأشكال والأحجام ؛ فتجد الحركة الوئيدة البطيئة تتناسب مع الحزن ؛ فليس المرثي ثائرا في خصومته ، والاعتماد على الاسمية والفعل الماضي للدلالة على الثبات والملازمة مع قلة الفعل المضارع الذي يدل على الحركة والتجدد ، وكذلك فالألوان هنا قاتمة حزينة في قوله : « بعيد

الثرى - قعره - الباطل - ظله - تـخاف نوازله - فادح - الخوف - الموت - العلات » وهكذا إلى نهـاية القـصـيدة ، وكـذلك حين تشم رائحـة الحـزن والأسى والبكاء وطعمه العلقم ، وتجـد الأشكال والحجوم في تلاحم الصور الجزئيـة في بنية نمطية تحدد أبعاد الأسى والحزن وشكل رثاء توبة المرير ، ولوحتـه القاتمة التي تثير كوامن الألم في أعمـاق النفس ، كما تجسم حـجم الكارثة الثقيل والعنيف عند الشـاعرة حتى اضطرت عفوا إلى ترديد الأقـوال ، وتكرار الصّيغ وتعديد القوالب الأسلوبية والمناقب من هول الفـاجعـة الأليـمة ، وثقلهـا العنيف ، الذي يقطع نيـاط القلوب ويمزق الأكـباد ، وتـذهب بالعقل فـي حيـرة ووله كل مـذهـب ؛ فتـتـدفق الأنماط المتكررة على اللسان بلا قيود ولا انضباط .

لقد شكلت روافد الصورة وعنـاصرها الفنية من القصيدة بنية مـستوية قاتمة ونمطا حزينا داكنا ، وصورة مـتلاحمة الصور والأركان ؛ لتشـخيص حجم الكارثة وإطارها الشكلي الـشاحب ، فـتنبض عـاطفـة الحـزن والأسى عند الشـاعـرة في تشخيص القيم السامية للمرثي ؛ لتـكون هذه الصورة الكلية مثلا يحتذى ، يتأسى به الشـادون في عزائهم ، ويضـرب على أوتاره السائرون في مـواكب الحيـاة حتى النهاية المحتومة في مرثية ليلى الأخيلية .

لكن الصورة الكلية في قصيدة جريـر كانت أكثر تأثرا بالإسلام من غيرها في قيمها الخـلقية والفنية ، فلا تخلو من ذلك في كل ألفاظها وأسالـيبها وصورها المستمدة من الحقيقة والخيال وموسـيقاها ووحي إيقاعاتها كما في قوله : « الحياء - عبرة الموت وعظته - زيارة قبر الحبيب - نعم القرين - علق مضنة - مكرمة المساك - عدم الصلف والاقتار - مكرمـة العشير - لم يخش الجار غوائلهـا - كسيت أجمل منظر - ومع الجـمال سكينة ووقار - والريح طيـبـة - واستـقـبلتهـا - لا دنس في العـرض ، ولا تدنيس - من الجبن - نورت وجـهـا أغـر - يزينه الإسـفـار - صلى الملائكة - والصـالحـون - والأبرار - وعليك صلوات من ربك - نصب الحـجـيج - ملبدين » وغيرها من الصور الأدبية الجزئية التي استمدها من القرآن الكريم والسنة الشـريفة وأدب الصـحـابة ﷺ ، وأثر ذلك في رقـة شعـره وعذوبتـه وسـلاستـه ووضوحه ، مما يعبـر عن ذوقه الإسلامي المتحضر ، الذي تهـذب بحضارة الإسلام في العصر الأموي ، حتى سيطرت روحها وروافدها على القصيدة ، وهي تختلف

عن قصيدة ليلى في ذوقها البدوي وعدم استجابتها السريعة لحضارة الإسلام وتعاليمه في مرثية توبة الذي كان هو كذلك ، فقد كانت فيه جاهلية كما وصفته عند الحكم بن مروان بهذه الجفوة ، لكن تجربة جرير وزوجته صدرت عن الحاضرة الإسلامية الراقية المهذبة ، وثمارها العذبة الحلوة الممتعة ، لا الصلبة المتمردة الجافة يقول جرير :

صلى الملائكة الذين تخيروا والصالحون عليك والأبرار
وعليك من صلوات ربك كلما نصب الحجيج ملبدين وغاروا

وأما مرثية مالك بن الريب [١] فقد كانت وسطا بين المرثيتين ؛ فلا هي بدوية جافة ، ولا بنية أعرابية صحراوية صلبة ، كمرثية ليلى الأخيلية ، ولا هي صورة أدبية راقية مهذبة ، اجتمعت لها سمات الحضارة الإسلامية في العصر الأموي مثل مرثية جرير ، وإنما كانت مرثية ابن الريب صورة أدبية شكلت نمطا إنسانيا جمع بين الحالين في مرحلة التغيير ، وكونت نموذجا بشريا في مراحل الانتقال تلاقت فيه جفوة البادية مع رقة الحاضرة الإسلامية ، فقد استجاب مالك بن الريب لدعوة سعيد بن عثمان الإصلاحية ؛ ليستله من عصابة قطاع الطريق في الصحراء ، وينتزعه من صعلكة الغزو ، واعتداء الصعاليك لترويع الآمنين في البوادي فاستجاب لحضارة الإسلام ، وانخرط معه في صفوف المجاهدين ، وأجرى عليه عطية ومكافأة دورية ، ومنحه تهذيبية تقوّم سلوكه العنيف ، وتهذب عدوانه مع الصعاليك ، فتحول في تأن يرتوي من سماحة الإسلام وتعاليمه المهذبة .

---

(١) هو مالك بن الريب بن حوط المازني التميمي ، من الظرفاء الصعاليك في العصر الأموي توفي عام (٦٠هـ) ، رآه سعيد بن عثمان بن عفان بالبادية في طريقه بين المدينة والبصرة وهو ذاهب إلى خراسان حين ولاه معاوية عليها سنة (٥٦هـ) ، وكان مالك من أجمل العرب جمالا وأبينهم بيانا ، فلما رآه سعيد أعجبه .. فقال له ويحك يا مالك ؟ ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟ ، قال : أصلح الله الأمير العجز عن مكافأة الإخوان ، قال : فإن أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعني ؟ ، قال : نعم ؛ أصلح الله الأمير أكف كفا ما كف أحد أحسن منه . فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار في كل شهر ، وكان معه حتى قتل بخراسان .. ومكث مالك بخراسان فمات هناك ، فقال يذكر مرضه وغربته ، وقال بعضهم بل مات في غزوة سعيد ، طعن فسقط وهو بآخر رمق ، وقيل غير ذلك . الأعلام للزركلي ٥/٢٦١ وذيل الأمالي لأبي علي القالي ، ديوان مالك بن الريب حياته وشعره للدكتور حمود القيس وغيرها .

يظهر ذلك في صوره الأدبية الكثيرة من حين لآخر بينما تقل الصور البدوية الجافة هي الأخرى لتذكره بعدوانه القريب ، منها هذه الصور : « ألا ليت شعري - أبيتن ليلة بجنب الغضا - أزجي القلاص النواجيا - فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه - وليت الغضا ماشي الركاب لياليا » ، فلا زال مع ذكرياته العدوانية ، يعاود ذكريات قطع الطريق في الغضا مع عصابته من الركبان وكذلك الصور التي تعبر عن عادات الجاهلية في قوله : « عيون المؤنسات - نسوة الرمل يبكينه - والبواكي اللاتي يعددن مآثره فيهجن دموع الأخريات » وغيرها من دعوى الجاهلية كما في البيت الأخير .

وأما الصور الأدبية الراقية التي هذبها الإسلام ؛ فجاءت عذبة رقيقة راقية متحضرة ، متأثرة بالقرآن الكريم والسنة الشريفة منها : « بعت الضلالة بالهدى - في جيش ابن عفان غازيا - حم قضائيا - يسوون لحدي - تراءت منيتي - أقول لأصحابي ارفعوني - استل روحي - فهيئوا السدر والأكفان - وخطا بأطراف الأسنة مضجعي - وردا على عيني فضل ردائيا - فجراني ببردي وكما ورد في الأثركفن الشهيد ثوبه ورداؤه الذي جاهد فيه وتلطخ بدم الشهادة - لا تحسداني بارك الله فيكما - صبارا على القرن - وعن شتمي ابن العم والجار » وغيرها من الصور الأدبية التي تأثر فيها بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، فكل صورة مما سبق إما متأثرة بآية كريمة أو بحديث شريف ، لا تخفى على القارئ الكريم مما نكتفي فيه هنا بالإشارة لا بالذكر والتصريح .

ويتضح من هذه الموازنة بين المرثيات الإسلامية السابقة إضافة إلى ما ذكرناه أن مرثية جرير كانت أكثر الثلاثة تأثرا بحضارة الإسلام وتعاليمه وقيمه الخلقية والفنية ، لأن جريراً كان على صلة أكثر من غيره بالخلفاء والأمراء والولاة والقادة والعلماء والصحابة والتابعين ، وبالحواضر الإسلامية التي تعج بالعلوم الإسلامية ومصادرها التشريعية والثقافية والفكرية ؛ فكانت مرثيته صورة مهذبة للحضارة الإسلامية في العصر الأموي ، وكانت أكثر تأثرا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة وأدب الصحابة ، بل كانت هذه السمات تظهر في فنون شعره وأغراضه الأدبية أكثر من قرنه الفرزدق ، ولذلك قال النقاد عنهما : « كان جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر » .

وأما مرثية ليلى الأخيلية فإن تأثرت بالإسلام في قيمها الخلقية والفنية ، إلا أنها كانت أبعد من غيرها تأثرا ؛ فقد غلبت عليها السمات البدوية ، وجفوة الصحراء ، لا رقة الحواضر ، ولا سمات التهذيب الحضاري ، فلا زالت ليلى تعيش في أعماق البادية ، بل مات حبيبها توبة وهو في عدوانه متصعلكا ، وخر صريعا في إحدى غزواته وهو ينزو معتديا على جيرانه ، فهو وإن كان مسلما إلا أنه لا زالت فيه جاهلية ؛ لذلك غلبت البداوة والجهامة والصلابة على ألفاظها وأساليبها وصورها وأخيلتها ونعيها لتوبة وتأبينها له ، وقد وضحنا ذلك بالتفصيل .

وأما مرثية مالك بن الريب فقد كانت وسطا بين المرثيتين ، جمعت بين جفوة البادية وعادات البدو ، التي زالت شاخصة أمام عينيه فلم يقلع عنها في بعض الجوانب الخلقية والفنية ، ظلت تظهر من حين لآخر بين السمات الخلقية والفنية المستمدة من حضارة الإسلام وتعاليمه المهذبة ، وأسلوبه العذب الراقي وصوره الأدبية المقتبسة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، كما وضحنا ذلك بالتفصيل .

ومع ذلك فالمرثيات الثلاث مهما تفاوتت في السمات والملامح ، إلا أن كل واحدة منها تحتل منزلة من الأدب الإسلامي في العصر الأموي على قدر ما اجتمعت فيها من خصائص الفن الإسلامي وسمات فن الرثاء المتميز عن نظيره في الأدب الجاهلي ، ونظائره من غير الأدب الإسلامي في العصور المتلاحقة .

المعجم الشعرى في قصائد الرثاء : لو وقفت عند الألفاظ والأساليب والصور وبنية القصيدة لوجدتها تشكل معجما شعريا عند الشعراء الثلاثة كل حسب تأثره بالإسلام أو غلبة البادية عليه ؛ فتأمل التحليل الفني والنقدي السابق ، وعاود النظرة إليه والقراءة ، تستطيع أن تستخرج هذا المعجم الشعري في رثاء العصر الأموي ، الذي يختلف كثيرا عن الرثاء في العصرين السابقين ، وخاصة الرثاء في العصر الجاهلي ، تجده قد شكل مصطلحا آخر في الألفاظ ، والأساليب ، والصور ، ومنهج القصيدة ؛ فأعطى لها من المعاني والمضمون والقيم الخلقية والفنية ما لم يكن موجودا في نظائرها من قصائد الرثاء في العصور السابقة .

الزهد

الزهد من الأغراض الأدبية في العصر الأموي اشتهر به الشعراء الزهاد وهم كثيرون، منهم: السماك، وابن حكيم، ومساور الوراق، والكميت وعروة بن أذينة، ومسعر بن كدام، والطرماح بن حكيم، وقطري بن الفجاءة وعمران بن حطان، وآدم بن عبد العزيز، ومحمود الوراق، وسابق البربري وعبد الله بن المبارك الذي يقول [1]:

والآدمي بهذا الكسب مرتهن ... له رقيب على الأسرار يطلع
حتى يوافيه يوم الجمع منفرداً ... وخصمه الجلد والأبصار والسمع
إذا النبيون والأشهاد قائمة ... والإنس والجن والأملاك قد خشعوا
وطارت الصحف في الأيدي منشرة ... فيها السراير والأخبار تطلع
يود قوم ذو عز لو أنهم ... هم الخنازير كي ينجو أو الضبع
فكيف تشهد والأنباء واقعة ... عما قليل، ولا تدري بما يقع
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له ... أم الجحيم فما تبقى ولا تدع
تهوى بهلكاتها طوراً وترفعهم ... إذا رجا مخرجا من غمها وقعوا
طال البكاء فما يجدي تضرعهم ... هيهات لا رقة تغني ولا جزع
هل ينفع العلم قبل الموت عالمه ... قد سأل قوم بها الرجعى فما رجعوا
وكيف قرت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذ الموت أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً وعلانية ... لو كان للقوم أسماع لقد سمعوا
والنار ضاحية لا بد موردهم ... وليس يدرون من ينجو ومن يقع [2]

---

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك، مولي بني حنظلة، ولد في مرو الروز في (١١٨هـ) قال السمعاني في الأنساب: كانت فيه خصال لم تجتمع في أحد من أهل العلم في زمانه في الدنيا كلها، كان فقيها ورعا عالما حافظا يعرف السنن .. يقول الشعر فيجيد، له مؤلفات في الفقه والتاريخ والتفسير، وله ديوان شعر في مائة ورقة، وكان مرابطا في جهاده على ثغور الروم، ينفق تجارته في الجهاد في سبيل الله، قال عنه ابن مهدي: «الأئمة أربعة: مالك، والثوري، وحماد بن زيد، وعبد الله بن المبارك»، وقد توفي في الثالث عشر من رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة في بلدة بهيت على الفرات ودفن بها. انظر تاريخ بغداد للبغدادي، والأنساب للسمعاني، وتهذيب التهذيب للعسقلاني، وغيرها.

(٢) تاريخ مدنية دمشق: لابن عساكر، الجزء السادس، مخطوط.

ويقول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنِّيني تطلُّبه ... ولو قعدت أتاني لا يُعَنِّيني
كم قد أفدت وكم أتلفت من نشب ... ومن معاريض رزق غير ممنون
فما أُشِرْتُ على يسرٍ وما ضَرَعَتْ ... نفسي لخَلَّة عرجاء يلوني

ويقول الطرماح بن حكيم :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالكلا أرقوا
يرجعون الحنين آونة ... وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفا تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنفلق
كيف أرجى الحياة بعدهم ... وقد قضوا مؤنسوها فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما تخاف قد وثقوا

ويقول عمران بن حطان :

وليس لعيشنا هذا مهاة ... وليست دارنا هاتا بدار
جماد لا يراد الرسل منها ... ولم يجعل لها درج الظئار
وإن قلنا لعل بها قراراً ... فما فيها لحى من قرار
لنا إلا ليالي هينات ... وبلغتنا بأيام قصار
ولا تبقى ولا نبقى عليها ... ولا في الأمر نؤخذ بالخيار
وما أموالنا إلا عوار ... سيأخذها المعير من المعار

ويقول قطري بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تُراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعى
فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داع [1]

(١) ديوان شعر الخوارج ، تحقيق : د. إحسان عباس .

وقد تناولت هذا الغرض بالتحليل والتفصيل مع كثير من شعراء الزهد في العصـر الأموي في كـتابي : « الأدب الإسـلامي الصوفي حـتى نهاية القـرن الرابع الهجري » (١) .

* * *

(١) من ص ١٦٥ - ٢٠٠ للمؤلف : الطبعة الثانية ـ المكتبة الأزهرية للتراث ـ القاهرة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .

الوصف

تنوع الوصف في العصر الأموي ، لينقل لنا من البيئة صورة حية وصادقة للصحراء والبوادي والحواضر في دمشق والشام ، وحول الرافدين في العراق والبصرة ؛ فقد اتجه بعض الشعراء إلى الصحراء فوصف مظاهرها المتنوعة من كثبان ورمال ، وجبال وسهول وغدران ، وسيول وأمطار ورياح ، وجدب وخصب ونبات وأشجار ، وحيوان وطير وزواحف ، وأطلال ومنازل وعرصات ، ويعد ذو الرمة رائد شعراء بني أمية في ذلك حتى أطلق عليه النقاد قديما وحديثا شاعر الصحراء ، ومنه قوله (١) :

أمنزلتي مَيّ سلام عليكما ... هل الأزمن اللائي مضين رواجع
وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ... ثلاث الأثافي والرسوم البلاقع
توهمتها يوما فقلت لصاحبي ... وليس بها إلا الظبا الخواضع
موشية سحم الصياحي كأنها ... مجللة حوّ عليها البراقع
حرونية الأنساب أو أعوجية ... عليها من القهر الملاء النواصع
أمستوجب أجر الصبور فكاظم ... على الوجد أم مبدي الضمير فجازع
وأهجركم هجر البغيض وحبكم ... على كبدي منه شئون صوادع
وأعمد للأرض التي لا تردها ... لترجعني يوما إليك الرواجع
فلما عرفنا آية البين بغتة ... وهدّ النوى بين الخليطين قاطع

واتجه بعض الشعراء إلى وصف البيئات الجديدة والحواضر الغنية بمظاهر الطبيعة الكثيرة في بلاد العراق والشام وبساتينها وحدائقها ومزارعها وما فيها من أنهار وزروع وثمار وأشجار وأزهار وأعناب وزيتون ونخيل وريحان ، قال جرير يصف هذه البيئات الجديدة (٢) :

---

(١) هو أبو الحارث غيلان بن عقبة المضري التميمي ، يلقب بذي الرمة ، عاش ما بين خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ) وخلافة هشام بن عبد الملك وكانت وفاته عام (١١٧هـ) اشتهر بغزله العذري في شعره ، لكن مية تزوجت بغيره وتزوج هو بغيرها ، وأنجب أولادا وظل مخلصا لحبها الطاهر وللصحراء التي عشقها ، ومهما رحل عنها عاد إليها ، وكان يخشع في صلاته فقال : إن العبد إذا قام بين يدي الله لحقيق أن يخشع . ولم يعمر طويلا .

(٢) ديوان جرير السابق .

شقـقت من الفرات مباركات ... جواري قد بلغنا كما تريد
وسخرت الجبال وكن خرسا ... يقطع في مناكبها الحديد
بها الزيتون في غال ومالت ... عناقيد الكروم فهن سود
فتمت في الهنيء جنان دنيا ... فقال الحاسدون هي الخلود
يعضون الأنامل أن رأوها ... بساتينا يؤازرها الحصيد
ومن أزواج فاكهة ونخل ... يكون لحمله طلع نضيد

واتجه بعضهم لوصف المعارك الحربية ، التي كانت تدور بين الأحزاب المختلفة ؛ والصراعات السياسية حول الحكم والخلافة ، أو بين جيش المسلمين في الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا وشمالا ، مثل وصف عدي بن الرقاع حين يمدح انتصارات الجيش الإسلامي بقيادة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، يقول في قصيدة منها (١) :

تأتيه أسلاب الأعزة عنوة ... قسراً ويجمع للحروب عتادها
وإذا رأى نار العدو تضرمت ... سامي جماعة أهلها فاقتادها
بعرمرمٍ تبدو الروابي ذي وغي ... كالحرة احتمل الضحى أطوادها
أطفأت ناراً للحروب وأوقدَتْ ... نارٌ قدحت براحتيك زنادها
وإذا عدت خيل تبادر غاية ... فالسابق الجالي يقد جيادها

ويسبر بعضهم أعماق الطبيعة ليصور أسرارها العجيبة ، وإبداعات الله في مخلوقاته سواء في باطن الأرض وما حوت من أسرار وعجائب أو في ظاهرها وما اشتملت عليه من ابداعات الخالق في خلقه ، سخرها لعباده ، يتقلبون بين نعمها ظاهرة وباطنة : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ، يقول صفوان

---

(١) هو أبو داود عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي نسبة إلى أحد أجداده عاملة بن عدي ، ولد في دمشق بالشام في ولاية معاوية ﷺ ، وكان شاعر بني أمية ينافس جريراً وغيره على القرب منهم ، وحظى بمنزلة عالية عندهم ، فمدح عبد الملك بن مروان وابنه الوليد الخليفة الذي عاش في كنفه والذي قال فيه :

صلى الذي الصلوات الطيبات له ... والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
هو الذي جمع الرحمن أمته ... على يديه وكانوا قبله شيعا

وتوفي عام (٩٦هـ / ٧١٤م) وقيل (٩٥هـ) ، وتناول أغراض الشعر المختلفة . انظر : الأغاني وطبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء ، والأعلام ، وغيرها .

الأنصاري يصف طبيعة الأرض وما في باطنها من أسرار بديعة تدل على قدرة الخالق وحده ، منها :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا ... وفي الأرض تحيا بالحجارة والزند
ويخلق في أرحامها وأرومها ... أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفي القعر من لج البحار منافع ... من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوردي
كذلك سر الأرض في البحر كله ... وفي الغيضة الغنا وفي الحجر الصلد

وهكذا إلى نهاية القصيدة في الجزء الأول من البيان والتبيين للجاحظ ، ولقد برع عدي بن الرقاع في وصف الطبيعة الصامتة ، مثل قوله في وصف الآبار منها ووصفه لماء يسمى « خالة » :

حتى وردنا القنينات صاحبة ... في ساعة من نهار الصيف تأتهب
فجاد بالبارد العذب الزلال لنا ... ما دام يمسك عودي دلونا الكرب
من ماء « خالة » جياش بجمته ... مما توارثه الأوحاد والعتب (١)

وكان أكثر إبداعا في وصف الطبيعة الحية ، فقد وصف الظبية وابنها وصفا بارعا وهي ترعى العشب بين الزهور المختلفة الألوان التي خضبت وجهها بالأحمر والأخضر والأزرق والأسود فصارت كالعروس ، تسوق شادنها أمامها بقرنها المدبب الأخضر المخضب بالسواد كأنه قلم أصاب مداده الأسود من الدواة ، لتخط أروع أيات الجمال والإبداع في الطبيعة الحية وفتنه أسرارها العجيبة ، إن هذه الصورة البديعة لم تقع لغير ابن الرقاع ؛ فأصبح يعرف بها ، وبصمة من بصماته التي تميزه عن غيرها في جميع العصور الأدبية ، يقول عدي (٢) :

كالظبية البكر الفريدة ترتمي ... من أرضها قفراتها وعهادها
خضبت لها عقد البراق جبينها ... من عركها علجانها وعرادها
كالزين في وجه العروس تبدلت ... بعد الحياء فلاعبت أرآدها
تزجى أغن كأن إبرة روقه ... قلم أصاب من الدواة مدادها
ركبت به من عالج متحيزا ... قفرا تربت وحشة أولادها (٣)

---

(١) مجلة المجمع اللغوي : شعر عدي بن الرقاع : جمعة خليل مردم ، مجلد ١٥ ص ٤٥٤ .
(٢) المرجع السابق ، والشعر والشعراء : ابن قتيبة ٦١٨/ ٢ .
(٣) تقفرات : شجيرات صغيرة . والعهاد : مطر بعد مطر . والعقد : أصول الشجر . البراق : ==

قال جرير : « سمعت عدي بن الرقاع ينشد : تزجى أغن كأن إبرة روقه فرحمته من هذا التشبيه ، فقلت : بأي شيء يشبهه ترى ؟ فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها ، رحمت نفسي منه » [١] .

ويقول أبو هلال العسكري أن صفة قرن الظبي ليس له شبه ، وهو المشهور لابن الرقاع [٢] .

* * *

== الأرض الغليظة . عركه : دلكه . العلجان : شجر لا ورق له . العراد : حشيش . أرآدها : أترابها . تزجى : تسوق . الأغن : الشادن في صوته غنة . الروق : القرن . عالج : موضع . متحيز : منعزل . تربت : تعهّد .

(١) الأغاني ٣١٣/٣/٩ .

(٢) ديوان المعاني ص ١٣٢ / ٢ ، وكذلك الآمدي والفرزدق وغيرهم .

الغزل العذري

يقول جميل بثينة [1] :

أَلاَ لَيْتَ أَيَّام الصَّفَاء جَديد ودهراً تَولَّى يا بُثَيْنُ يعودُ
فَنَغنَى كَما كُنَّا نكُونُ وأَنْتُم صديقٌ وَإذْ ما تبذُلينَ زَهيدُ
وَمَا أنسَى مِ الأَشياء لا أَنسَى قَولَها وقدْ قربَتْ نضوى أمصْر تُريد ؟
ولا قَولَها : لولا العُيُون التي تَرى أتيتُك فاعذرني فَدَتْكَ جُدودُ
خَليليَّ ما أُخفي منَ الوَجْد ظاهرٌ وَدَمْعي بما أُخْفي الغَدَاةَ شَهيد
ألا قد أرَى والله أنَّ رُبَّ عَبْرَةٍ إذَا الدَّارُ شَطَّتْ بَيْنَنَا سَتَزيدُ
إذا قُلْتُ : مَا بي يَا بُثَينَة قَاتلي منَ الحُبِّ ، قالتْ : ثابتٌ ويَزيدُ
وإنْ قُلْتُ : رُدِّي بَعْضَ عَقْلي أعش به مع الناسِ ، قالت : ذاكَ منْكَ بعيد
فَلاَ أنا مَرْدُودٌ بمَا جِئْتُ طالباً ولا حبها فيما يَبيدُ يُبيدُ
جزتْك الجوَازي يا بُثَين مَلاَمَةً إذا ما خَليلٌ بَانَ وهو حَميدُ
وَقُلْتُ لها : بيْني وبَيْنَك فاعْلمي منَ الله ميثاقٌ لهُ وعُهُود
وقدْ كانَ حُبِّيكُمْ طَريفاً وتَالداً وَمَا الحب إلاَّ طارفٌ وتَليد
وإنَّ عُرُوضَ الوَصْلَ بيْني وبيْنَها وإنْ سَهَّلَتْه بالمنَى لصعود
فأفْنَيْتُ عَيْشي بانْتظاري نوالُها وأبْلَيْتُ ذاك الدَّهْر وَهو جَديدُ
ألاَ لَيْتَ شعْري هل أبيتنَّ ليلةً ؟ بوَادي القُرى إنّي إذَنْ لَسَعيدُ
وَهَلْ أهْبطنَّ أرْضاً تظلُّ رياحُها ؟ لها بالثَّنَايا القاويات وئيد
وهلْ ألقيْنَّ سُعْدَى منَ الدهر مرَّةً ؟ وَمَا رَثَّ منْ حَبْل الصفاء جديد
وَهَلْ تَلْتقي الأهْواءُ مِنْ بَعْدِ يأسَةٍ ؟ وقدْ تُطلَبُ الحاجات وهي بعيد

---

(١) هو أبو عمرو جميل بن عبد الله بن معمر العذري القضاعي ، اقترن اسمه بصاحبته بثينة وهو من عشاق العرب ، افتتن بحبها ، وهام على وجهه ، حتى استقر في مصر ، تاركا بني عذرة في وادي القرى ، وقرب المدينة المنورة ، وظل مقيما في رحاب عبد العزيز بن مروان واليها فأكرمه وظل يمدحه حتى توفي عنده عام (٨٢هـ / ٧٠١م) ، وتناقل الناس أخباره وأشعاره العذرية الرقيقة في الشعر العذري الذي ابتكره مع شعراء اشتهروا بذلك في العصر الأموي ، منهم : قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وكثير عزة ، وتوبة الخفاجي . انظر : ابن خلكان ، والأغاني والشعر والشعراء ، وخزانة البغدادي .

سبَتْني بِعَيْني جُؤْذَرٍ وَسْطَ رَبْربِ ... وصَدْرٍ كفَاثُورِ اللُّجين وجيد
فَمَنْ يُعْطَ في الدنيا قَريناً كمِثْلِها ... فَذَلِكَ في عَيْشِ الحَياةِ رشيد
يموتُ الهوى منِّي إذا لَقِيتُها ... ويَحْيَا إذا ما فارقْتُها فيعود
يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوة ... وأيْ جهادٍ غَيْرهنَّ أُريد
لكلِّ حَديثٍ بينَهنَّ بَشَاشةٌ ... وكل قتيلٍ بينهنَّ شَهيدُ (١)

وحدة الموضوع في القصيدة : تلاءمت المشاعر والعواطف والخواطر مع موضوع واحد وهو الحب العذري في تجربة القصيدة الشعرية ؛ فقد تراسلت معانيه وتتابعت أفكاره من أول بيت إلى آخر القصيدة لتتلاقى في مجرى واحد ، يصب في موضوع واحد وهو حبه الطاهر لبثينة ، ليشكل غرضا واحداً في الحب العذري ، لا عدة موضوعات ، ولا مجموعة أغراض ، كالشأن في نظام القصيدة في هذا العصر أو ما قبله ، وتلك هي سمة من سمات العصر الأموي في بعض أغراضه الأدبية .

تجد ذلك حين يتغنى الشاعر جميل بحب بثينة فيشيد بالماضي العظيم وذكرياته الحلوة ، فليت أيام الصفاء ترجع كما كانت ؛ لترفرف عليهما السعادة وتهدأ النفس وتقر العين ؛ فإن نسى كل شيء فلن ينس ساعة الوداع الحلوة إلى مصر ، وهي تقترب من ناقته ، تودعه بحرارة وشوق في صوت هامس : أتنصرف

---

(١) جديد : تجدد الماضي . نغنى : نسعد بالإقامة . بثين : بثينة . تبذل : تقبل الوداد . زهيد : قليل . م الأشياء : من الأشياء . النضو : الضعيف . الجدود : الأجداد . الوجد : الحب . شهيد : ظاهر . العبرة : الدمعة . شطت : ابتعدت . ردى بعض عقلي : صوابي ، والمراد الوصال . يبيد : يفني . جزتك الجوازي : عاقبتك المنصفات ، فهو يلومها . الطارف : الجديد ، وضده التليد . العروض : الطريق حذاء الجبل . والصعود : الطريق الشاق . نوالها : قربها . أبليت الدهر : ذهاب العمر بغير وصل . ليت شعري : ليتني أعلم أو أشعر . وادي القرى : بلادهما شمال المدينة بالحجاز . الثنايا : طرق ملتوية في الجبل ، والمراد الجبل . القاويات : جمع قاوية خالية . وئيد : عاصف . سعدى : يكنى بها عن بثينة . رث : بلى وتقطع . سبتني : سحرتني . جؤذر : ولد البقرة الصحراوية . الربرب : القطيع من البقر . الفاثور : الجفنة ، وهي الإناء الواسع . اللجين : الفضة . الجيد : الرقبة . القرين : الرفيق والصاحب والزوج . الرشيد : المصلح . يموت الهوى : يضعف الحب . ويشيد : يقوى . جاهد بغزوة : ينسى حبه بالجهاد في سبيل الله . بشاشة : بهجة . شهيد : الميت لغاية نبيلة كالمجاهد في سبيل الله تعالى . انظر : الأغاني ، الشعر والشعراء ، وطبقات فحول الشعراء ، وغيرها .

عني لتبتغي مصر ؟ تقولها وهي تخشى التلاقي ، ويصدها عنه عيون الحساد ونظرات العذال عند ذلك ، يكتفي بالتسليم عليها ، والدعاء لها ؛ فهو يفتديها بنفسه وأهله ، ويمضي على شوق جارف ، يعصف بقلبه ، وحب عنيف ، يمزق أحشائه ، يتلظى بلوعة الفراق ، ويذوب من كثرة البكاء لأن الحب قتله ، وهي كذلك سيزداد عندها ويشتد ، مع أنها تتأبى عليه ، وتخيب آماله ، فلا هي تمكنه من الوصال ، ولا هو ينساها فيستريح ، ومن كان هذا حاله يستحق الثناء والتقدير لا الهجر منها ولا العتاب لها ، وكيف لا ؟ وقد أخذا موثقا معا على دوام الحب وتعاهدا على مجافاة الهجر ، مهما عز الوصل ، وحالت دونه العقبات .

إنه يحلم ـ وهو في مصر ـ بليلة واحدة من ليالي الوصل بالمدينة ، ويتمنى المبيت بوادي القرى ، العامر بحبهما ، لتعزف الرياح فيهما أعذب ألحان الحب العذري ، في تلك الأرض الخالية إلا منهما ، فيتم الوصل ويتجدد الحب ، فقد سحرته بجمالها ، وأخذته بعيونها الجذابة ، ومن كان على مثالها في الجمال ينعم صاحبها بحياة عامرة بالرفاهية والسعادة ، فتطفئ حرارة شوقه ، وتشفيه من شقوة الحب ، وتريحه من عذاب وجده ، وتبدد تباريح الجوى .

لقد نصحه إخوانه رحمة به وشفقة عليه ؛ لينسى عذاب الفراق ولوعة الحب ، أن يجاهد في سبيل الله ، فينصرف عنها إما بالشهادة ، أو بالفوز والنصر على الأعداء ، فيصرخ قائلا : إنه كذلك ؛ لكنه يجاهد في حبها حتى يتحقق الوصل ، أو يموت شهيدا في سبيل الحب الطاهر العفيف .

الحب العذري : حب طاهر عفيف ، يصدر عن مشاعر راقية متدفقة وعاطفة نبيلة صادقة ، وصبابة عنيفة مبرحة ، ويقوم على الإخلاص الشديد ويميل إلى المبالغة غير المقبولة في التفاني والضراعة ، ليعبر عن فطرة صافية ونزعة إنسانية مهذبة ، وخلق إسلامي سام ؛ فهذا الغرض الأدبي وإن كان جديداً في الحياة العربية الإسلامية للعصر الأموي ، إلا أنه لا يتعارض مع إرهاصات سبقت في العصر الجاهلي مثل غزل زهير بن أبي سلمى وعنترة والمرقشين وغيرهم ، أو في صدر الإسلام مثل مقدمة قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول ﷺ ، فإنها لا تعد غزلا حسيا ، ولا متهتكا فاضحا ، ولا قبيحا مكشوفا ، ولا عاريا مفضوحا ، على نحو الغزل الماجن عند امرئ القيس والأعشى

في الجاهلية الأولى ، أو الغزل وأدب الجنس الذي سار على نهجه بعد ذلك في الجاهلية الحديثة السافرة الزائفة والجنسية الشاذة المدمرة .

لكن الغزل الطاهر والحب العذري لم تتحدد معالمه ، ولم تكتمل عناصره الفنية والخلقية ، فظهر في قصائد مستقلة تحققت فيها الوحدة الموضوعية ؛ ليكون أول غرض أدبي في الأدب العربي ، تتحقق فيه تلك المعالم الفنية والخلقية فأصبح فنا مبتكرا ، وغرضا جديدا في تجربة شعرية تعد أقوى التجارب الأدبية وأكملها شاعرية وصدقا فنيا ، وأعظمها تأثيرا وتصويرا ، لأنها مجردة عن المؤثرات النفعية والمقاصد غير الذاتية ، لم يتضح ذلك كله إلا في العصر الأموي .

نشأ الفن السامي كالشأن في الفنون الراقية مدعوما بالجوانب الروحية لا المادية ، والأخلاق الإسلامية نتيجة لعوامل كثيرة إسلامية وفطرية واجتماعية وسياسية واقتصادية في العصر الأموي ؛ انطلق من وادي القرى شمال المدينة في بيئة بدوية فطرية صافية يسكنها بنو عذرة من قضاعة كانت أسرع المواطن استجابة له ، وأكثرها طواعية لاستكمال الأسباب ونضج العوامل السابقة ، ثم انتشرت في ربوع الأمة شرقا وغربا كالشأن في نشأة الفنون حين تنشأ على يد أفراد في موطن معين ، لا على يد جماعات ولا في بيئات متعددة ؛ فاشتهر شباب بني عذرة في البداية بهذا الفن ، حتى سؤل واحد منهم : ما بال العشق يقتلكم يا بني عذرة ؟ قال : لأن فينا جمالا وعفة ، ومن أشهر شعرائه : جميل بثينة ، وكثير عزة وقيس لبنى : « قيس بن ذريح » ، وقيس ليلى العامرية « قيس بن الملوح » وتوبة ليلى الأخيلية « توبة الخفاجي » ، والزاهد العابد عروة بن أذينة [(١)] الذي اشتهر بشعره العذري ، فقد قالت له السيدة سكينة ﷺ : أنت القائل [(٢)] :

---

(١) هو أبو عامر ، كان من شعراء المدينة وكبار الصالحين وأعيان العلماء والمحدثين ، روى عنه الإمام مالك وغيره ﷺ ، توفي عام (١٣٠هـ) .

(٢) هي بنت الحسين بن علي ﷺ ، وسكينة لقبها ، واسمها آمنة ، وقيل أميمة ، وقيل أنها ولدت في (٤٧هـ) في المدينة المنورة ، وكانت جميلة متعبدة تعقد المجالس الأدبية وتخاطب الحاضرين عن طريق جواريها أو من وراء ستار وتفاضل بين الشعراء في عصرها كما حدث في مجلس الفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب ، وتزوجت عبد الله بن الحسن بن علي ، فلما استشهد تزوجت بمصعب بن الزبير ثم عبد الله بن عثمان ثم زيد بن عمرو ثم إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ ، ثم توفيت في (١١٧هـ) ودفنت بالمدينة المنورة ، وقيل بمكة المكرمة ، ==

إذا وجدت أوامر الحب في كبدي ذهبت نحو سقاء الماء أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهرة فمن لنار على الأحشاء تتقد ؟

فقال لها نعم ؛ فقالت له : وأنت القائل :

قالت وابثثها حبي وبحت به قد كنت عندي تحب الستر فاستتري
ألست تبصر من حولي ؟ فقلت لها غطي هواك وما ألقي على بصري

قال نعم ؛ فالتفتت إلى جوارٍ كن حولها ، وقالت هن حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم .

وعندما سمع ابن السائب عروة ينشد لنفسه (١) :

إن التي زعمت فؤادك ملهما خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فيك التي زعمت بها ، وكلاكما أبدى لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها يوما وقد ضحيت إذن لأظلها
فلما عرضت سلما لي حاجة أخشى صعوبتها وأرجو ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا وقال : لعلها معذورة في بعض رقبتها فقلت : لعلها

فطرب لذلك طربا شديدا ، وقال هذا ـ والله ـ الدائم الصبابة الصادق العهد .

لقد شاع الغزل العذري حتى صار سائغا مقبولا حتى عند العلماء والفقهاء والمحدثين والعباد والزهاد ؛ فهذا عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء مكة المكرمة ، أحب سلامة وأحبته فاشتهرت بلقبه « سلامة القس » لعبادته وزهده فاشتهرت بلقبه (٢) ، وكان يشبه في عبادته بعطاء بن رياح ، لذلك قال عبيد الله ابن قيس الرقيات :

لقد فتنت ريّاً ، وسلامة القُسَّا فلم تتركا للقِسِّ عقلاً ولا نَفْسَا (٣)

== انظر وفيات الأعيان ، والأعلام ، وسمط اللآلئ ، وغيرها .

(١) زهر الآداب : للحصري ٢٠٧/١ . (٢) الأغاني : ٣٠٨٠/٨ الإبياري .

(٣) الديوان : تحقيق د. محمد يوسف نجم ٣٣ .

وجاء في الأغاني أنها قالت له يوما : أنا والله أحبك ، قال : وأنا والله أحبك ، قالت : وأحب أن أضع فمي على فمك ، قال : وأنا والله أحب ذلك قالت : فما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال ، قال : إن سمعت قول الله عز وجل : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ ، وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة ، ثم قام وانصرف ، وعاد إلى ما كان عليه من النسك وقال من فوره فيها (١) :

إن التي طرقتك بين ركائب ... تمشي بمزهرها وأنت حرام
لتصيد قلبك أو جزاء مودة ... إن الرفيق له عليك ذمام
باتت تعللنا وتحسب أننا ... في ذاك أيقاظ ونحن نيام
حتى إذا سطع الضياء لناظر ... فإذا وذلك بيننا أحلام
قد كنت أعذل في السفاهة أهلها ... فاعجب لما تأتي به الأيام
فاليوم أعذرهم وأعلم أنما ... سبل الضلالة والهدى أقسام

وازدهار الغزل العذري والحب العفيف في العصر الأموي كان نتيجة طبعية لعوامل كثيرة ، واستجابة فعلية لتناقضات مذهبية ، وتعبيرا صادقا للفطرة الإنسانية الصافية ، وتوازنا روحيا وإسلاميا وخلقيا بين الصراعات السياسية والمبالغة في الإسراف المادي والترفيهي واللاهي العابث ؛ فكان الحب العفيف الوجه الآخر للصراع السياسي الدائر بين شعراء الأحزاب السياسية من شيعة وخوارج وزبيريين والحزب الأموي الحاكم ؛ فترفع بعض الشعراء عن الخوض في هذه التيارات السياسية ؛ ليتغنوا بالحب الطّاهر العفيف ، مجرداً عن الأهواء والشهوات والملذات والإسراف المادي ؛ للتعبير عن الخلق السامي ، والروحية الصافية المهذبة .

وكذلك شيوع الغناء في العصر الأموي نتيجة للثراء الكبير ، والمال الوفير والفراغ الضافي ، والرفاهية والترف ، الذي تتسع له مجالس الأدب والنقد والغناء وأعذب هذه المجالس ، وأخفها على النفس ، يقدم الغزل والنسيب على غيره من الأغراض الأدبية كالمدح أو الوصف أو الرثاء وغيرها .

---

(١) الأغاني : تحقيق إبراهيم الأبياري ٨/٣٠٨٢ .

وأعظم هذه الأسباب في نشأة الحب العفيف ، هو تأصيل التعاليم الإسلامية السمحة في النفس ، وترسيخ قيمه السامية ، والتحلي بخلقه الفاضل ، في ظل العقيدة الإسلامية الصادقة ، وخاصة بعد استقرار الإسلام وانتشاره شرقا وغربا ، فكل ما اشتمل عليه القرآن الكريم من تعاليم ومبادئ وتشريعات إنما شرعت ليتحلى الأناسي بالأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ ولقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وغير ذلك مما سنتناوله في معالم النقد للأدب الإسلامي في الجزء الثالث ، يقول قيس بن ذريح مجنون ليلي (١) :

أراني إذا صليت يممت نحوها ... بوجهي وإن كان المصلي ورائيا
تمر الليالي والشهور وتنقضي ... وحبك ما يزداد إلا تماديا
خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
أمضروبة ليلى عليّ أن أزورها ... ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا ؟
وأني لأخشى أن أموت فجاءة ... وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني ليثنيني لقاؤك كلما ... لقيتك يوما أن أبثك ما بيا
وقالوا به داء عياء أصابه ... وقد علمت نفسي مكان دوائيا

أصداء الخطاب عند المتلقي

القيم الخلقية في القصيدة : اشتملت قصيدة جميل على قيم خلقية في الحب العفيف تسمو بهذا الفن الأدبي ، حتى أصبح هذا غرضا أدبيا من أغراض الأدب الإسلامي ، ومنهجا في النسيب والغزل سار عليه شعراء الحب والنسيب في الشعر العربي الإسلامي في كل العصور الأدبية ، بعد ذلك انطلق من هذا الفن الحب الإلهي في الأدب الصوفي ، وأصبحت صوره وأعلامه ومعالمه رموزا ومصطلحات وصورا في الأدب الصوفي بعد ذلك عند سلطان العاشقين ابن الفارض وغيره .

---

(١) خزانة الأدب للبغدادي ، والشعر والشعراء لابن قتيبة .

وهذه القيم الخلقية يكاد يلتقي فيها بالزيادة أو النقصان جميع الشعراء في الحب العفيف مثل كثير عزة ، وقيس بن ذريح ، والمجنون ، وعروة بن أذينة وغيرهم ، ومن هذه القيم :

١ ـ الصفاء الروحي المجرد من الشهوات والملذات ، لأنه حب عفيف مجرد عن المتعة الحسية ، والشهوة الجنسية ، فهو يمتع النفس ويهذب الروح ، ولا يستجيب لنزوة الشهوة أو للمتعة الجسدية : ألا ليت أيام الصفاء جديد .

٢ ـ استعادة الذكريات الطيبة وأحاديث النجوى الطاهرة هي خلق إسلامي من باب الوفاء ، وإحياء التراث الأصيل ، والعرفان بالجميل ، يقول جميل : « ودهر تولى يا بثين يعود » ، ويتذكر ذلك في حنين وشوق مجنون ليلى : قيس بن الملوح (١) فيقول (٢) :

تذكرت ليلى والسّنين الخواليا ... وأيامَ لا نخشى على اللهوْ نَاهيَا
ويوم كظل الرمح قَصَّرْتُ ظلَّه ... بليْلى فلهاني وما كنتُ لاهيا
بثمدينَ لاحَتْ نارُ ليلى وصُحْبتي ... بذات الغَضَا تُزْجى المطيَّ النواجيا
فقال بصيرُ القوم ألمحْتُ كوكبا ... بَدَا في سواد الليل فرداً يمانيا
فقلت له : بل نار ليلى توقدت ... بعلياءَ تسامى ضوؤها فبَدَا ليَا
فليْتَ ركابَ القوم لم تقطع الغضا ... وليت الغضا ماشَى الركابَ لياليا
فيا ليلُ كمْ من حاجة لي مُهِمَّةٍ ... إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
خليليّ إن لا تبكياني التمسْ ... خليلا إذا أنْزَفْتُ دمعي بكى ليا
فما أُشْرِفُ الأيفاعَ إلاّ صبابةً ... ولا أُنْشدُ الأشعار إلاّ تداوِيا
قد يجمعُ الله الشتيتين بَعْدَمَا ... يظنان كلَّ الظن ألاَّ تلاقيا

---

(١) هو قيس بن الملوح بن مزاحم العامري ، عرف بمجنون ليلى التي هام بها في شعره ، واختلف النقاد في ذلك هل هو حقيقة أو خرافة وأسطورة ، وتنقل بين الشام والحجاز ونجد ، جمع شعره وطبع ، وصنف ابن طولون كتابا في أخباره سماه « بسط سامع المسامر في أخبار مجنون بني عامر » (سنة ٩٥٣هـ) ، كما نظم شوقي مسرحية عنه سماها : « مجنون ليلى » ، وظل هائما في حبها على وجهه حتى توفي في عام (٦٨هـ / ٦٨٨م) . الأعلام للزركلي ٢٠٨/ ٥ .

(٢) ديوان مجنون ليلى ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ١١٣ . ثمدين والغضا : موضعان . تزجي : تسوق . النواجي : النوق السريعة . ألمحت : أبصرت . يمانيا : جهة اليمين . عليا : مكان . تسامى : تطاول . ركاب القوم : مطاياهم .

٣ ـ الصداقة والأخوة والحب الخالص لله ، لا من أجل عرض الحياة الدنيا الذاهب ، فستنقطع الرغائب وتبقى المحبة والصداقة ، « وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » ، « ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه » ، قال جميل :

فنغني كما كنا نكون وأنتم　　صديق وإذ ما تبذلين زهيد

ويقول مجنون ليلى :

لحَى اللهُ أقواماً يقولون إننا　　وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدي بليلى وهي ذاتُ موصَّد　　تردُّ علينا بالعَشيِّ المواشيا
فَشَبَّ ليلى وشَبَّ بنوابُنها　　وأعلاقُ ليلى في فؤادي كما هيا

٤ ـ الاعتزاز بالوطن والحنين إليه ، فحب الوطن دين وأخلاق ، فقد قال النبي ﷺ يوم ترك مكة مهاجراً إلى المدينة : « والله إنك لأحب أرض الله إلي وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » ، قال جميل :

وما أنسى م الأشياء لا أنسى قولها　　وقد قربت نضوى أمصر تريد

ويقول كثير عزة (١) :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا　　قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا　　ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت جهدا بما نحرت له　　قريش غداة المأزمين وصلّت
أناديك ما حج حجيج وكبرت　　بضيفا غزال رفقة وأهلت

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي ، ويكنى أبو صخر من شعراء المدينة اقام مصر شطراً كبيراً من حياته ، وكان مفرط القصر ذميما ، رده عبد الملك بن مروان عن مجلسه وكان شاعر أهل الحجاز في الإسلام لا يقدمون عليه أحداً ، وكان عفيفا في حبه لعزة بنت جميل الضمرية ، ولما قيل له هل نلت من عزة شيئا طول حياتك ، فقال : لا والله ، إنما كنت إذا اشتد بي الأمر أخذت يدها ووضعتها على جبيني وجدت لذلك راحة ، توفي بالمدينة في (١٠٥هـ / ٧٢٣م) ، وله ديوان شعر ، وأخبار كثيرة . انظر : ابن خلكان ، والزركلي في الأعلام وغيرهما . الربع : الدار . القلوص : الناقة القوية . اعقلا : قيدا . الجهد : الطاقة . النحر : الذبح . المازمان : مضيقان . أناديك : أجالسك . الحبل : الوصل . النذر : ما يلتزم به المرء . حلت : تحللت من النذر وخرجت منه .

٥ ـ الحياء خلق كريم يسمو به الإنسان ، يمنعها أن تأتيه ، ومن لم يستح من الناس لا يستحي من الله عز وجل ، ولا إيمان لمن لا حياء له ، والحياء والإيمان مقترنان إذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر ، يقول جميل :

ولا قولها : لولا العيون التي ترى … أتيتك فاعذرني فدتك جدود

ويقول قيس بن الملوح مجنون ليلى في الحياء أيضا :

إذا ما جلسنا مجلساً نَستَلِذُّهُ … تَواشَوْا بنا حتى أملَّ مكانيا
فلو أن واش باليمامة داره … وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وماذا لهم ـ لا أحسن الله حالهم ـ … من الحظ في تصريم ليلى حباليا
ألا أيها الواش بليلى ألا ترى … إلى من تشيها أو بمن جئت واشيا
لئن ظعن الأحباب يا أم مالك … فما ظعن الحبّ الذي في فؤاديا

٦ ـ الدموع والعبرات رحمة للإنسان ، ودليل على رقة القلب ، تفيض من خشية الله والخوف ، وما أقسى جمود العين وأشده على النفس ، وحين تعجب عبد الرحمن بن عوف من بكاء النبي ﷺ بعد موت ابنه إبراهيم ، رد عليه قائلا : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون وإنها رحمة ولا نقول إلا ما يرضي ربنا » ، لذلك يربط العبرات بتعظيم الله تعالى والقسم بذاته العلية ، يقول :

خليلي ما أخفى من الوجد ظاهر … ودمعي بما أخفى الغداة شهيد
ألا قد أرى والله أن رب عبرة … إذا الدار شطت بيننا ستزيد

ويقول مجنون ليلى في ذلك :

لَعَمْرِي لقد أبكَيْتني يا حمامة العقيـ … ـق وأبكَيْت العيونَ البواكيا
خليلي ما أرجو من العيش بعد ما … أرى حاجتي تُشْرَى ولا تُشْتَرى ليا
ألا يا حَمَامَيْ بطن نعمان هجتُما … عليَّ الهوى لَمَّا تَغَنَّيْتُما ليا
وأبكيتماني وسْطَ صحبي ولَم أكُنْ … أبالي دموع العين لو كنت خاليا
ويا أيها القمْريَّتان تجاوَبَا … بلَحْنَيْكما ثم اسْجَعا عَلّانيا
فإنْ أنتما اسْتَطربْتُما أو أردْتُما … لحَاقا بأطلال الغضا فاتْبعَانيا
ألا ليت شعري ما لِلَيْلى وما لِيا … وما للصِّبا من بعد شَيْب علانيَا

٧ - المشاركة الوجدانية في المشاعر الإنسانية ، « فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، فهي تنم عن الحب الخالص ، المبرأ من الغرض الزائل ، والمجرد عن الشهوة الفانية ، وكما في الحديث الشريف : « وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » و« ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه » ، وتبادل المشاعر الوجدانية من القيم الخلقية التي حث عليها الإسلام ورغب فيها ، ونفر من الحاقد والحسود والبغيض والسلبي ، يقول جميل :

إذا قلت : ما بي يا بثينة قاتلي من الحب قالت : ثابت ويزيد
وإن قلت : ردي بعض عقلي أعش به مع الناس ، قالت : ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد

وأما مجنون ليلى فيشهد الله على إخلاصه في حبه لليلى ، ويرجو أن تبادله حبا بهذا الحب ، ويمتلأ قلبها كما فاض عن قلبه ، ثم يؤمن بقضاء وقدره في حبهما الثابت ، فقد أصبحت هي لغيره ولا يبقى بينهما إلا الشوق والحب ، وهذا أمر لا حيلة للمرء فيه « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، وعلى المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره وأن يصبر على بليته ، ﴿ وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ ، وإنه حينما يتجه إلى الصلاة يستقبل ليلى لا عن قصد وإلا كان مشركا ، ولكنه تعبير عن قداسة حبه لها مما يجعل ذلك يقع منه عفواً وبلا قصد ، يقول مجنون ليلى في ذلك :

فأَشْهَدُ عند الله أَنِّي أُحِبُّها فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى اللهُ بالمعروف منها لغيرنا وبالشوق مني والغرام قضَى ليا
وإنَّ الذي أمَّلتُ يا أمَّ مالك أشَاب قُوَيْدِي واستهام فؤاديا
أعد الليالي ليلة بعد ليلةً وقد عشتُ دهراً لا أعد اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلني أُحدِّث عنك النفسَ بالليل خاليا
أراني إذا صليت يَمَّمْتُ نحوها بوجْهي وإنْ كان المُصَلَّى ورائيا
ومَا بِي إشراك ولكنَّ حُبَّها وَعُظْمَ الجوى أعيا الطبيبَ المداويا
أُحبُّ من الأسماء ما أوافق اسْمَها أو أشْبهه أو كان منه مدانيا
خليليَّ أكبَرُ الحاج والمنَى فَمنْ لي بليلى أو فمن ذا لها بيا
ذكتْ نارَ شَوْقي في فؤادي فأصبحتْ لها وَهَجٌ مُسْتضْرَمٌ في فؤاديا

٨ ـ الإحساس بالذنب ، والاعتراف بالخطيئة ، والشعور بالتقصير قيمة خلقية ترد النفس إلى فطرتها المستقيمة ، وتطهر القلب من الرذيلة ، وتجدد الوصل بعد القطيعة ، فيعود الإنسان إلى رشده ، ويثوب إلى عقله ، ولا يغضب غيره ليرضي ربه والناس من حوله ؛ فيدفع عن النفس اللوم والعتاب ، ويطهرها من الذنب والعقاب : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ الزمر : ٥٣ ، ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ الفرقان : ٧٠ ، يقول جميل :

جزتك الجوازي يا بثين ملامة ... إذا ما خليل بان وهو حميد

ويقول مجنون ليلى :

وتجرم ليلى ، ثم تزعم أنني ... سلوت ، ولا يخفى على الناس ما بيا

ويقل كثير عزة يحثها بالعتاب على العودة وتواصل الحب :

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كناذرة نذراً فأوفتْ وحلّت
فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبا ... وحقّت لها العتبى لدينا وقلّت
فإن تكن الأخرى فإن وراءنا ... منادح لو سارت بها العيس كلت

٩ ـ الوفاء بالعهد ، ورعاية المواثيق خلق إسلامي فاضل ، حثت عليه الشريعة السمحة ، لأنها تعطي للإنسان قدره ، وتحفظ له كرامته وإنسانيته ، ولا تهدر الجهد والزمن بغير حق ، وتعين على مسيرة الحياة على الوجه الذي يرضى عنه الجميع /ويرضي الله عز وجل : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ ، ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ ، ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون (٩١) ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ النحل : ٩١ ، ٩٢ ، ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾

الرعد : ٢٠ ، ٢١ ، وفي الحديث الشريف : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » وغيرها ، يقول جميل بثينة :

وقلت لها : بيني وبينك فاعلمي — من الله ميثاق له وعهود
وقد كان حبيكم طريفا وتالدا — وما الحب إلا طارف وتليد

ويقول كثير عزة في الوفاء والوصل :

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها — كناذرة نذراً فَأَوْفَتْ وحلّت

١٠ - الإخلاص في الحب خلق سام يجعله موصولا ؛ فلا ينقطع ، أو يضعف لعوارض الحياة ، ومتاع الدنيا الذاهب ، يطبع صاحبه على الأمانة ، وينفره من الخيانة ، ويقنع بقضاء الله وقدره إيمانا به وتصديقا بحكمه ، ونزولا على إرادة ربه ، فلا راد لقضائه : « فمن لم يرض بقضائي فليخرج من تحت سمائي وليتخذ ربا سواي » ، يقول جميل بثينة :

وإن عروض الوصل بيني وبينها — وإن سهلته بالمنى لصعود
فأفنيت عيشي بانتظاري نوالها — وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

ويقول مجنون ليلى :

خليلي لا والله لا أملك الذي — قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها بغيري وابتلاني بحبها — فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
خليلي ما أرجو من العيش بعدما — أرى حاجتي تشرى ولا تشترى ليا

١١ - صلة الرحم ، ومودة الأهل ، والتضامن بينهم ، وتأليف قلوبهم والتعاطف معهم من القيم الإسلامية التي تبني مجتمعا قويا وراقيا ، ويسمو به إلى مواطن المجد والعزة ويقضي على الكره والبغض ، ويحض على البر والتعاون ، وفي الحديث : « قال الله عز وجل : أنا الله وأنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته » ، قال تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴿٢٢﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ محمد : ٢٢ - ٢٣ ، يقول جميل بثينة :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل أهبطن أرضا تظل رياحها   لها بالثنايا القاويات وئيد
وهل ألقين سعدي من الدهر مرة   وما رث من حبل الصفاء جديد
وقد تلتقي الأهواء بعد يأسة   وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

١٢ ـ القرين الصالح هو خير ما يرزق به الإنسان في حياته ، سواء كان رجلا لرجل : « مثل الجليس الصالح كبائع المسك .. » ، وكذلك امرأة تجلس مع امرأة وتصحبها ، أو كان القرين رجلا لامرأة كما في الحديث : « خير ما يرزق الرجل في حياته امرأة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته في ماله وعرضه .. » ، أو هما معا كما في الحديث الشريف : « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، قال جميل بثينة :

فمن يعطي في الدنيا قرينا كمثلها   فذلك في عيش الحياة رشيد

١٣ ـ لقاء الأحبة يحقق الأمن والسكن ، والطمأنينة والسعادة والرفاهية والحياة الهنية : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ الروم : ٢١ ، يقول جميل :

يموت الهوى مني إذا لقيتها   ويحيا إذا فارقتها فيعود

١٤ ـ الحث على الجهاد في سبيل الله من أشرف الغايات ، وأسمى الأهداف ، ينقذ الإنسان من متاع الحياة الذاهب : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ لينعم بالشهادة ، ويفوز بالسعادة الأبدية ورضى الله عز وجل في الدار الآخرة ، ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾ ﴿ وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ يقول جميل : « يقولون : جاهد يا جميل بغزوة » .

١٥ ـ الجهاد في سبيل الحب الطاهر ، خالصا لوجه الله الكريم كالجهاد في سبيل الله ؛ فمن صدق في حبه وأخلص فيه عفيفا طاهرا كان أجره مثل أجر الشهيد إذا مات ؛ أو تحققت له غنيمة البشاشة والوصل والزواج ، دخلت جارية سكينة بنت الحسين بن علي ﷺ على مولاتها ، ثم خرجت إلى جميل تقول له : « تقرئك

مولاتي السلام ، وتقول لك : والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادي القرى إني إذاً لسعيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة ... وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد
وأفضل أيامي وأفضل مشهدي ... إذ هيج بي يوماً وهن قعود

جعلت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، وفي رواية جعلت قتيلنا شهيدا ، وحديثنا بشاشة ، وأفضل أيامك يوم تنوب فيه عنا ، وتدافع عنا ، ولم تتعد ذلك إلى قبيح .. ثم قالت له : أنت أشعرهم » ، وتقصد من كانوا معه في مجلسها وهم الفرزدق وجرير وكثير ونصيب (١) .

قال ابن رشيق : « هذه الأبيات من أنسب الأبيات عند العرب »(٢) ، وقال الدكتور محمد غنيمي هلال : « إن كان المحب عفيفا غير لاه ، طاهر الحب غير عابث ، يعاني من آلام حبه في سبيل غاية شريفة ، فهو مأجور يرتقي إلى مرتبة الشهداء ، وقد روي عن الرسول ﷺ : من عشق فكتم وعف فمات فهو شهيد » (٣) .

ويقول قيس بن الملوح مجنون ليلى :

فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي ... وأنت التي إن شئت أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عِداً ... يرى نضو ما أبقيت إلا رثى ليا
أمضروبة ليلى على أن أزورها ... ومتخذ ذنبا لها أن ترانيا
إذا سرت في الأرض الفضاء رأيتني ... أصانع رحلي أن يميل حياليا
يمينا إذا كانت يمينا وإن تكن ... شمالا ينازعني الهوى عن شِماليا
وإني لأستغشي وما بي نعمة ... لعَل خيالا منك تلقَى خياليا
هي السحر إلا أن للسحر رقية ... وإني لا ألقى لها الدهر راقيا

---

(١) الأغاني : ١٦/١٦٢ ، ومصارع العشاق : لأبي محمد السراج ٢/٧٩ .
(٢) العمدة : ٢/٩٧ .
(٣) النقد الأدبي الحديث ص ١٨٩ ، وإن كان الحديث ضعيفا إلا أنه يعطي دلالة معينة لا تبغّض من الحب الطاهر .

فيا رب إذا صيرت ليلى هي المنى ... فزيّني بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضاً إلي وأهلها ... فإني بليلى قد لقيت الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه ... وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا
خليلي إن ضنوا بليلى فقرّبا ... لي النعش والأكفان واستغفرا ليا

القيم الفنية في القصيدة : التجربة الشعورية للحب العفيف من أقوى التجارب الأدبية ، بلغت الغاية في الصدق الفني ، الذي يقوم على التلاؤم بين المعاناة في مشاعر الحب الهادر ، ووجدانه القوي ، وبين عناصرها من العاطفة والمشاعر الروحية ، والخواطر ، وأدواتها في التصوير من الألفاظ والأساليب والصور المستمدة من الحقيقة والخيال ، وروافد الموسيقى المختلفة ، ولا أدل على بلوغ الغاية في الصدق الفني من أن الشاعر تخطى تنوع الأغراض في المقدمات فلم يلق لها بالا ؛ لينطلق إلى الحب العفيف مباشرة وصراحة منذ البداية ، لأنه لا يرى في الوجود غير حبه والإخلاص فيه إلى حد الفناء ، أو التفاني غير عابئ بالجسد ، ليبقى الجانب الروحي والمثالي مقدسا ، يتغنى به المخلصون في حبهم أو في عملهم ؛ لذا يرى الشاعر أن من يضحي في سبيل الحب العفيف بالجسد فيموت شهيدا مأجورا يكون مخلصا في حبه ؛ فالشهادة هي الجزاء الأوفى لتجربته الشعورية الصادقة في الحب العفيف .

هذه المثالية في التجربة تظهر ملامحها في البناء الفني ومنابعه ، والتصوير الأدبي وعناصره ، من خلال الحروف والألفاظ والصور الجزئية والكلية والموسيقى الشعرية والإيحاء والرمز ، وغيرها من ألوان التصوير وأشكاله الفنية .

يبدأ الشاعر قصيدته بموضوعه مباشرة ، بلا مقدمة طللية أو بكاء على الدمن والمنازل الخالية ، بل يتجه صراحة إلى ذكرياته في أيام الحب الصافية تلاشت فيه أبعاد الزمن بمقاييسه المعروفة بالأيام والشهور والسنين ؛ ليصير بعداً واحدا ، يتمثل في العمر ، الذي يجمع أيام الصفاء ، وهي قصيرة ، وأيام الفراق ولوعة الحرمان ، وهي طويلة قاسية ، حتى أصبحت دهراً كاملا يعدل العمر كله .

والألفاظ والعبارات والصور تعبر عن صعوبة العودة وتعذر الوصل ، تجد ذلك في حرف « ألا » قبل دخول الهمزة تدل على نفي التلاقي ، ودخول الهمزة

عليه ، لم تغير معناه إلى الإثبات ، وإنما كانت سببا في زيادة معنى النفي وتأكيده بل تحول النفي بالهمزة إلى « الحث والتحضيض » على وقوع النفي لا الإثبات ليؤكد النفي ، لا ليثبت نقيضه ، فكأن الشاعر يستنجد ويستغيث ، لأن من معاني « ألا » مع النفي : الاستغاثة والتحضيض والحث والعرض والتمني ، وأكدَ معنى النفي السابق حين عبر بلفظ « ليت » للتمني ، فهو يفيد عدم الوقوع ، وهو نفي أيضا ، ليؤكد النفي السابق ، وتسليط النفي المزدوج على الأيام مباشرة لتجديدها ، تؤكد عدم عودتها ونفي تجديدها أيضا ، ولم يسلط النفي على الصفاء مباشرة لأن الحب ما زال باقيا في النفس بينما الأيام السالفة لن تعود ، وكذلك لم يقُل « أيام الصفاء الجديدة » لتكون الجديدة نعتا للأيام لا للصفاء ، حتى يصير النفي مسلطا على العودة للأيام الماضية لا لنفي الصفاء ، لذلك تتلاءم هذه الصورة مع التجربة التي يعانيها وهي أن صفاء الماضي لن يعود بينما الحب لا زال في القلب عنيفا ومتأججا إلى درجة الاستشهاد من أجله كما سيأتي بعد ذلك .

ثم انظر إلى الصورة الأدبية النابعة من التنكير في « دهراً » ؛ فإنها تدل على تناهي طوله ، وإطباقه على عمره كله ، وهي صورة مستمدة من الحقيقة تؤازرها صورة أخرى مستمدة من الخيال وهي : أن الدهر تولى وأحدث فراقا وأصبح هذا البعد حتما وقضاء وقدراً ، لا مفر منه ، ولن تعود الأيام السالفة كما كانت ، فالصورة الخيالية هنا تشخيص لفعل القضاء والقدر ، وهو أمر نافذ لا محالة ، لأن أحداث الدهر من فعل الله وإرادته ، وهما نافذان لا محالة ، وهو أشد إيمانا بقضاء الله وقدره ؛ لذلك سلط النفي والتمني على روافد الصورة الأدبية في البيت منذ البداية ، وأكد هذا النفي أيضا بحذف الحرف الأخير من « بثينة » وهو عدم وحذف ؛ ليتسق مع النفي وهو عدم أيضا ، فيوحي الترخيم فيها بالنفي واليأس وعدم التلاقي ، وكذلك الأمر في قوله : « وما أنس م الأشياء » حين حذف النون في « من الأشياء » بينما أثبت التاء في « بثينة » في البيت السابع « ما بي يا بثينة قاتلي » ، فالموقف مختلف ؛ لأن الشاعر هنا يعاني من ألم الحب وثقله وعنفه حتى يخر قتيلا ، فالثقل والعنف يقتضي عدم حذف التاء حتى لا يخف إيقاعه ومعناه فيتناقض مع الموقف الثقيل الذي يحتاج إلى الذكر لا الحذف .

أما روافد الموسيقى الخارجية والداخلية والخفية في هذا البيت ؛ فهي تصور

أيضا تعذر الوصل واللقاء عن طريق تعاقب الأوزان الكثيرة في الشيطرين ، وبطء الإيقاعات المتابعة وثقلها النابع من كثرة حروف اللين والشدّات والتنوين مما يوحي باليأس من التواصل والقنوط من العودة .

وكذلك الصورة الأدبية في البيت الثاني ؛ فالتشبيه أيضا يؤكد عدم العودة وصعوبة التلاقي بسبب تقديم « المشبه به » مع أداة التشبيه « كما كنا » وهو المراد تحقيقه ، وليس هو الواقع أو المحقق ، وأخّر « المشبه » في قوله : « تكون » لليأس وهو ما يريده من التلاقي ، وتقدير التشبيه على النحو التالي : « فنغني بكينونة الحال والمستقبل مثل كينونة الماضي في السعادة والصفاء » ، ولتأكيد عدم الوقوع أتى « بما » المصدرية للإيحاء بالنفي ، لأن « ما » تستعمل أحيانا للنفي ؛ فكأنها توهم الجمع بين المصدرية والنفي معاً على الأقل ، وكذلك صورة « وأنتم صديق » تعبر عن حقيقة الحب العفيف ؛ فهو قائم على العفة والطهر والصداقة والصدق والإخلاص ، لا المتعة الجسدية ولا الشبق الجنسي ، ثم تؤكده أيضا صورة « ما تبذلين زهيد » ، فالزهد عدم ونفي ، وهي تدل على العفة والطهر في الغزل العذري ؛ لإثبات أن العلاقة بينها روحية كالزهد ، لا جسدية ، ولا مادية ، ولا جنسية ؛ فكل ذلك منفي بمضمون معنى الزهد الوضعي ؛ لأنه بمعنى الحرمان والقلة والعدم ، وتغذي هذه الصورة رافد آخر وهو الموسيقى الخارجية والداخلية الوئيدة البطيئة الثقيلة على النحو السابق ، وهكذا في كل القصيدة حتى نهايتها .

وكذلك التصوير في البيت الثالث ؛ فهو يوحي بأن بثينة أخذت منه كل مأخذ ؛ فقد أنسته كل الأشياء وما حوله إلا شيئا واحدا لم ينسه ، وهو قولها : « أمصر تريد » ؛ فهي لا تنفي استمرار الحب ، وإنما تستنكر الاغتراب إلى مصر بل الاغتراب يؤجج الحب ويزيده حرارة وشوقا ، ثم صورة : « قربت نضوى » التي تصور « الحياء » وهو من سمات الحب العذري ؛ فهي لا تصرخ بالقول السابق ، أو تستغيث بالناس من ألم الفراق ولوعة السفر ، وإنما قربت من البعير ، لكي تهمس في أذنه بذلك ، والصورتان نابعتان من الحقيقة ؛ فهي لا تسأل بالاستفهام عن سفره إلى مصر ؛ فهو أمر مقرر ، وإنما تصور لوعة الفراق وآلام الغربة ومرارة الابتعاد .

والصورة الأدبية في البيت الرابع تصور الحياء أيضا ؛ لأن عيون الوشاة

والحساد من حولها تمنعها من مواصلة التوديع ، حتى لا تقع في التقصير ، أو تتهم بالجفاء ، ثم تؤكد هذا الحب بالقسم حين أقسمت بأنها تفديه بنفسها وروحها بل بآبائها وأجدادها ، وفي صورة البيت الخامس يستغيث بصاحبيه مما يعانيه من قسوة الوجد ، فيجيبهما رداً على إنكارهما قائلا : إن علامات الوجد واضحة ومظاهره لا تخفى على أحد ، لأنها تبدو في وجوه عديدة ، تظهر في شعري وحركاتي ، وعلى قسمات وجهي ، وهزال جسدي ، وغزارة دموعي ، التي تنزف من وجداني وقلبي ، كما ينزف الدم من الشهيد ، فإذا كانت الدماء هي آيات الشهيد ، فإن الدموع هي علامات الوجد والحب العفيف ، بل يقسم لصاحبيه في البيت السادس ؛ بأن الدموع التي تدفقت في الغداة ستزداد بعد الرحيل ، مما جعله يستغيث بالله ، ويستنجد بربه لكي يعينه على ما سيقاسيه في الغربة من غزارة الدموع وعذابها ، فلن تقتصر على عبرة الغداة أو الرواح ، وإنما هي دموع لا تنقطع ، تتلاحق مع أبعاد الزمن كله ، إنه يستحق الرحمة من الله عز وجل يطلب منه الرحمة ، وإن كان من الصعب توقف الدموع ؛ لتفانيه في حبها ، وهو ما توحي به صورة التعبير بالنفي وأداة الحث والتحضيض « ألا » ، فهي تؤكد زيادة الدموع ، وطغيان الحزن ، لا التخلص منهما ، إنها صورة دقيقة وأمينة ، تنقل واقع الحب العفيف ؛ فهو دائم ومستمر ، لأنه يعتمد على الجانب الروحي ؛ فلا ينقطع لتجرده من الرغبات الجسدية ، واللذات المادية ؛ لذلك تأتي الصورة في البيت السابع بعدها تؤكد القيم الروحية السابقة تعبر عن حبهما العفيف بأنه قاتل لهما معا ؛ فيخاطبها في صراحة ووضوح بأن الحب سيقتله ، ويزهق روحه ، وينزعها من جسده ، لأنه ليس حبا ماديا ، يزول بزوال أسبابه ، بينما سيظل الجانب الروحي باقيا ، فتجيبه هي كذلك بالموافقة ، والمشاركة الإيجابية ، لأنها تعاني هي الأخرى مما يعانيه ، بل أكثر ، فهي أيضا قتيل الحب العفيف الطاهر ، وهذه الصورة على سبيل التحقيق لا الخيال ، والحقيقة واليقين لا الشك ، نابعة من لفظ واحد وهو « إذا » التي تدل على أبعادها الزمنية والمكانية .

وتأتي الصورة الأدبية في البيت الثامن ؛ لتدل على هذه المعالم وأكثر منها حين تنفي التخفيف من عنفوان الحب ؛ فهو كل لا يتجزأ ، لأنه لا يقبل التجزئة فإما حب وفناء فيه ، وإما لا حب ؛ بل جسد ومتعة تأتي وتذهب ؛ لكن هذه

الصورة تولد صورة أخرى لتعبر عن سمة أخرى من سمات الحب العذري ، وهي الخضوع للحبيب ، والضراعة له ، فلا يزال يلح عليها أن تخفف من حدته ، وتحد من طغيانه وعنفوانه باتخاذ الوسائل والأسباب ، لكنه يزداد عنفا عندهما وضراوة في جميع الأحوال ، وهو ما توحي به هذه الصورة : « ذاك منك بعيد » ؛ لذلك لا تستجيب لطلبه من التخفيف في البيت الثامن ؛ فيضطر أن يستسلم لهذه الضراوة في صورة البيت التاسع ، التي تعبر عن الإبادة والفناء إلى حد القتل والشهادة :

فلا أنا مردود بما جئت طالبا ولا حبها فيما يبيد يبيد

ثم ذلك الرافد القوي في البناء الفني لهذه الصورة وهو الإيقاع الموسيقي المتناظر والمتشابه بين الطرفين ، بين المحب والمحبوب ؛ فكلاهما مقتول بسلاح واحد ، وهو سلاح الحب ، وإن اختلفا الطرفان ، وأداة القتل واحدة وهو الحب الطاهر العفيف وإن تباين المقتول ، فالجملتان متجانستان في التكرار والمعاودة والنسق الموسيقي في « يبيد يبيد » ؛ فالإيقاع الموسيقي يدل على أن المؤثر واحد ومتجانس ، لكنهما في نسق متقابل من حيث مواقع التأثير؛ فالجملة الأولى « يَبِيدُ » تدل على حدث الإبادة ، والجملة الثانية « يُبِيدُ » تقابلها في نسق إيقاعي لأنها تدل على معنى آخر ، وهو المبيد ـ لا الحدث ـ الذي تحدث منه الإبادة ، أي ما يقع عليه الإبادة ؛ فهو من « أباد يُبِيدُ » فزيادة الهمزة منحت الفعل معنى آخر يختلف عن معنى الفعل السابق ، مع أنهما لا يختلفان في الشكل العام والظاهر في الحروف والحركات مما يعطي تآلفا وتجانسا في الإيقاع من حيث اللفظ، وتناسقا في التقابل بين المعنيين وهو إيقاع موسيقي أيضا ، إنها موهبة الشاعر في التصوير الأدبي في الصور الجزئية السابقة التي أبرزت معالم الغزل العذري وسمات الحب العفيف وهي الفراعة في الحب ، والقداسة في العفة ، والمبالغة في الجانب الروحي والزهد في المتع الحسية ، واليأس من الوصل ، وإطباق الحزن العميق والشهامة والمروءة .

ثم تأمل براعة التصوير الأدبي في البيت العاشر « جزتك الجوازي .. » في التعبير عن الشهامة والمروءة والضراعة في حب بثينة ؛ فهو لا يدعو عليها بالقتل بل اكتفى باللوم فقط لا منه بل من غيره من الجوازي ، مع أنها لم تنف القتل عنه أو تدفعه حين أجابت عن قتله : « ثابت ويزيد » ، وكذلك أصرت على ذهاب

عقله كله حين طلب بعضه « ذاك منك بعيد » ، كل ذلك يدل على ضراعته في الحب وشهامته ومروءته ، ثم تتلاحق الصور في ذلك خلال البيتين الحادي عشر والثاني عشر ، فلا يدعو عليها ، ولا ينتقم منها ، بل تدفعه الشهامة والمروءة أن يذكرها بالعهود والمواثيق ، التي انعقدت بينهما ؛ لتظل وفية له كوفائه لها ، يصور ذلك الحب الثائر في لين وضراعة لكي يستمر ، ولا ينقطع لأي طارئ ، ولو كان سفرا أو عزالاً أو وشاة ، فمن الوفاء أن يطوي الحب أبعاد الزمان والمكان قديما وحديثا ، ليزداد طرافة وحداثة وتجديداً وحيوية ، وأعان على ذلك الإبداع في التصوير الأدبي أسلوب القصر بالنفي والاستثناء حين قصر الطارف على الحب فوقع بعد « إلا » مباشرة مقدما على التليد الذي وقع تابعا للأصل المقدم اهتماماً به لأنه ينبغي أن يتجدد ويزداد ، لا أن يزول أو يظل على حاله القديم : « وما الحب إلا طارف وتليد » .

وتأمل أيضا التصوير الأدبي في البيتين الثالث عشر والرابع عشر ، من خلال الحروف والكلمات والإيقاع والصور الجزئية ؛ فهي جميعا تشكل لوحة فنية رائعة ، تبعث الحيوية والقوة في سمات الحب العفيف ، من المثالية في الروحية والعفة ، والضراعة في الحب ، والزهد في المتعة الحسية ، وجهاد النفس ، والعاطفة القوية ودوام الحب وغيرها ؛ فالتكرار في حرف « إن » يؤكد الشك في الوصل والتلاقي للمتعة المادية ، وما توحي به كلمة « عروض » من دلالات تصور بحروفها ومعناها الوضعي حركة الصراع العنيف بين الوصل والمنع في معنيين متقابلين ، وهما : العروض بمعنى الإعراض والمنع ، ثم العروض بمعنى تقديم الشيء وعرضه وما يتضمن من صراع بين العارض والمعروض له ؛ لذلك جاءت هذه المعاني بصورة خيالية في تشخيص حي قوي للإعراض بالتسهيل والسهول (وهي الأرض المنبسطة) ، و« الصعود » إلى أعلى بمشقة وهي « الجبال » ، وهي صيغة مبالغة ، والتقابل في الصراع بين السهول والجبال واضح في دلالته على المنع والإعراض ، ثم تجسيم المنع والإعراض في فناء العيش والحياة ، وفناء العمر والشباب « فأفنيت عيشي » و« وأبليت ذاك الدهر وهو جديد » ؛ لتوحي بسمة أخرى وهي الفناء في الحب والموت في سبيل العفة والشهادة من أجله .

ثم تلك الروافد الأخرى للصورة من الموسيقى والإيقاع القائم على

التجانس بين الوصل والمنع ، والإعراض والقبول ، ودلالته على دوام الحب والإخلاص فيه ، من خلال التقابل والتجانس والتضاد بين التوقيعات الموسيقية في « العروض والوصل - بيني وبينها - إن وأن - سهلته وصعود - أفنيت عيش - بانتظاري نوالها - أبليت وجديد - ذاك وهو » وغيرها ، إنها لوحات فنية حية تنقل سمات الحب العفيف ، في تصوير قوي مؤثر لا تنهض به ريشة الفنان وألوانه المختلفة في إبداعه ، مهما أوتي من عبقرية في الرسم والتصوير .

وفي الأبيات من الخامس عشر إلى الثامن عشر صور أدبية متراكبة ومتنوعة الروافد والمصادر من الحقيقة والخيال ، فالصور المستمدة من الحقيقة من « علم المعاني » كثيرة ومتنوعة بين الإنشاء والخبر ، مما يدل على الصراع النفسي العنيف والعاطفة المتوقدة ، والمشاعر القوية المتقابلة بين اليأس والرجاء والدعاء ، وذلك يختلف حسب موقع « الاستفهام » وارتباطه بما بعده ، فالاستفهام في « ألا ليت شعري » يعطي صورا متلاحقة ، مثل صور العرض ، والحث ، والتحضيض والتمني - والدعاء في شعري - ، ثم التقابل بين هذه الدلالات للأسلوب الإنشائي وبين دلالات الأسلوب الخبري « إني إذن لسعيد » الذي يدل على الصراع والتناقض بين الوصل والمنع إلى حد « التعذر » أو اليأس القاتل .

وكذلك الاستفهام في قوله : « وهل أهبطن أرضا » يصور الرجاء والتحسر والدعاء والصراع العنيف ، والخوف من عوائق الطبيعة كالسهول والوديان والوهاد والجبال ، والعواصف والرياح ، والأنواء والأمطار ، فمظاهر الطبيعة تشاركه الثورة والصراع والعنف ، وهي من سمات المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين الطبيعة ومظاهر الحياة والكون .

وصور الاستفهام الثالث : « وهل ألقين سعدي .. » تصور النفي والإنكار والخوف من الوشاة ، ثم الرمز بـ « سعدي » عن بثينة حفاظاً عليها أو حماية لها من أهلها ، أو مراعاة للتقاليد والعادات عند العرب ، أو سيرا على نهج الشعراء في التكنية عن اسم محبوبتهم الحقيقي بسعدي أو بليلى وغيرها من الصور التي تتزاحم حول هذا الرمز الغزلي والفني ، ثم صورة منع الوصل والتلاقي بتسليط النفي على قطع الحبل مباشرة ليأتي الصفاء متأخرا بعده ؛ ليوحي ببقاء صفاء الحب وإن رث حبل الوصل واللقاء ثم أكد على تعذرهما واستمرار صفاء الحب في

التصوير الأدبي بعد ذلك في التعبير عن تواصل الأهواء والصفاء والحب بعد اليأس من اللقاء والوصل ؛ لأن تحقيق هذه الرغبة بعيد كل البعد ، ثم يؤكد هذا البعد بأسلوب القصر في قوله : « وهي بعيد » عن طريق الاسمية .

أما صور الخيال فكثيرة هي الأخرى ، فتأمل المجاز والاستعارة والكناية وغيرها في : « في أبيتن ليلة - بوادي القرى - تظل رياحها - لها وئيد - رث من حبل - حبل الصفاء جديد - تلتقي الأهواء - تطلب الحاجات » وغيرها من الصور التي توحي بسمات الحب العفيف من الفناء والتضحية والضراعة ، والتعاطف مع الطبيعة ، واليأس والرجاء ، وسلطان العاطفة القوي ، والزهد في المتعة الحسية وقداسة الحب وعفته ، الذي لا يتنافى مع هذه الصورة الخيالية الحسية في قوله : « سبتني بعيني جؤذر .. » ؛ لأنه لم يعبر عن جمالها بلفظ مكشوف أو متهتك يخدش عرض بثينة ، وينتهك حرمتها ، وإنما كنى عن جمالها بأدوات التواصل ومراصد الحب القلبي ، ومرآة العاطفة الصادقة ، ومقياس الوجدان الإنساني السامي فلم يصور هذا تصويرا مباشرا صريحا ، وإنما كنى عنه بتصوير عيني ولد البقرة الوحشية ، وهو آمن وسط قطيع من البقر ، لأنه رمز الجمال في العينين ، وعدسة القلب والحب عند العرب ، كما كني عن صفاء الحب في قلبها وصدرها ، بما يحمله فوقه من « جيد » فانطبع على سطح الصدر ما فاض عنه من إضاءة ونور كالفضة ، وعلى جيدها تلك الحركة الرشيقة الفاتنة ، ليعبر عن نبضات الحب في قلبها سرعة ورقة ورشاقة وشفافية ، لما وقر عند العرب من رشاقة التلفت في جيد الجؤذر وكثرة تلفته ، تجد في هذه الكنايات ستورا رقيقة ، تحتجب خلفها سحر بثينة وجمال صدرها ، ويتبرقع الجمال الحسي حياء وخجلا وخفية وخفرا .

ويظهر أثر الإسلام في تصوير البيت العشرين ، وتأثره بالقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ النور : ٢٦ ، وفي الحديث الشريف : « خير ما يرزق الرجل في حياته زوجة صالحة إذا نظر إليها سرته .. » فأفضل الأسر وخيرها جميعا ، هي الأسرة التي على مثال بثينة : الشاعر وحبيبته ، إذا انتهى حبهما العفيف إلى الحياة الزوجية في أسرة إسلامية ، فهذا تشبيه تمثيلي بديع ، ثم ذلك التوازن والتماثل بين الشرط والجزاء

وفي التوافق الموسيقي بينهما ، ثم ذلك التوازن والتقسيم والتقابل والتضاد والمطابقة والذاتية « الأنانية » في تكرار التعبير عن الذات بالضمير « نا » ، « أنت » وما يتابلها من « التاء » الضمير المتصل ، كل ذلك على سبيل التحقيق ، لا الظن ، ولا الشك ، في لفظ « إذا » الذي تكرر ، وغيرها من روافد الصورة المستمدة من حقائق « علم المعاني » ، وروافد الإيقاع الموسيقي ، يتخللها صور خيالية متداخلة بينها ، وهي : « يموت الهوى ـ ويحيا ـ ويعود » في قوله :

يموت الهوى مني إذا لقيتها ... ويحيا إذا فارقتها فيعود

ثم تنتهي القصيدة إلى قمة التصوير الأدبي للمبالغة في قمة الحب العفيف لتكون كالحكم القضائي والنتيجة الحتمية لهذه التجربة الشعورية في الحب الطاهر الصادق ؛ فيكون القرار النهائي هو الحكم الفصل ، وليس بعده حكم آخر ، وذلك في تصوير مكابدة الحب ، والمعاناة فيه ، والجهاد في الحفاظ عليه ، وتقويته ومقاومة الصراعات والتيارات من حوله ، والانتصار على شياطين الإنس والجن ورد كيد الشامتين والحاقدين والعذال والوشاة ، حتى يتحقق إحدى الحسنيين ؛ إما الزواج والتمتع بالحديث العذب وبشاشة القول ، وإما أن يستشهد في سبيل الحب العفيف ، فالجهاد في ميدان الحب الطاهر العفيف لا يقل شأنا عن الجهاد في سبيل الله عز وجل ؛ فإذا كان الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى وانتصار العقيدة الإسلامية ، فإنّ الجهاد الآخر هو الاستخلاف في الأرض وأمانته وتعميرها بالبشرية ، التي تبني الحياة جهاداً في سبيل الله تعالى لرفع كلمة الإسلام وتثبيت العقيدة ؛ فهما معا لغاية نبيلة وسامية ، يجب حمل الأمانة فيهما على أكمل وجه ، لأن الصبر والاحتساب ومقاومة الشدائد فيهما واحد وجزاؤهما واحد ، قال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ يقول جميل بثينة :

يقولون : جاهد يا جميل بغزوة ... وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل بينهن شهيد

أما عناصر التصوير الأدبي وهي : الحركة والصوت والألوان والطعم والرائحة والشكل والحجم ؛ فلا يكاد تخلو منها كلمة أو تعبير أو صورة أو بيت في مآزرة مع الروافد ومنابع التصوير لبناء اللوحات الفنية وتحديد أبعادها

وأنماطها وأطرها المتميزة .

وأما شكل الغزل فهو عفيف طاهر ، ونظيف سام ، لم تلوثه القبائح والخبيث من القول ؛ فينأى عن التصوير الأدبي المستهجن والمكشوف ، ويبتعد عن العاري الفاضح من الصور ، وغيره مما لا يتفق مع الفطرة المستقيمة ، وتنفر منه الأذواق السليمة وتشمئز منه ، وإنما تختال هذه كلها في شكل طاهر نقي عفيف وإطار إنساني سام مهذب رقيق ، وكلمات وصور طيبة تنأى عن كل خبيث وكريه .

وأما الحجم في الغزل العذري ، لا يتحمله إلا المخلصون الصابرون ، ولا ينوء به إلا المحتسبون المجاهدون ، لأن العوائق جمة ، والعواصف شديدة ، والوشاة كثيرون ، والحاقدون أكثر ، والطريق شاق ووعر ، وفي تواصل الحب ومعاناته مشقة عنيفة ، وجهاد مرير ، يصل إلى حد الشهادة والاستشهاد في سبيله ، وكم خر منهم شهداء في ساحة الحب العفيف ، لأن هذا العبء الثقيل لا ينهض به إلا المجاهدون الشجعان .

وأما الحركات التي تصور الصراع العنيف في الحب المشتعل أواره مع المحبوب ، ومع الوشاة والحاقدون ، ومع عادات المجتمع وقيمه وغيرها ، فتجد الحركة في أيام الصفاء يتجدد ، والدهر يتولى ويعود ، والديار يتجدد الحب فيها ويتعاقب وجوده مرة بعد الأخرى ، وكذلك البذل يتكرر ويتعاقب ، كما توحي المبالغة بالصراعات العنيفة ، ويوحي بالحركة في القتال والمقاومة وغيرها .

وأما الألوان فزاهية معجبة ، وأصباغ الغزل العذري بيضاء صافية على الرغم من قسوة البعد ، وعنف الفراق ، وعذاب التمنع ، ومرارة الحرمان ، إلا أن الحبيبين يجدان في ذلك الراحة والسعادة ، والرضا والقناعة ، بل الجهاد في سبيله لا يقل شأنا عن الجهاد في سبيل الله عز وجل ، لتحقيق الأجر العظيم والثواب الجزيل ، فهذه الألوان الطّاهرة العفيفة الزاهية ، تجدها في كل صورة وبيت ؛ فنجد في الأبيات الأولى : « الصفاء ـ جديد ـ بثينة ـ يعود ـ صديق ـ زهيد ـ العيون ـ نضوى ـ جدود ـ الوجد ـ الفداء ـ شهيد » ، وهكذا إلى اخر القصيدة .

وأما الأصوات التي تنبع من أحداث الوصل والفراق والوشاة والحاقدين

والأقـوال والأحاديث وهمـسات الـنجوى وهكذا على هذا النـحو في القـصيـدة وكـذلك طعم الحب العـفيـف حلـو على الرغم من مـعانـاة العذاب فـي سـبـيله ورائحته طيـبة زكية فواحـة ، يستريح لها القلب ، وتسـعد به النفس ، وهكذا في كل كلمة وفي كل صورة .

ومن خلال هذه الدراسة الفنية وتحديد سمـات التصوير الأدبي في القصيدة نجد التعبـيرات والصور الأدبية ، قد حددت أبعاد الغزل العـذري الفنية ، وسمات الحب العفيف الطاهر ، وأهم هذه السمات :

١ - يقوم الحب فيـه على العفة والترفع ، ويتصف بالطهـر والقداسة ؛ لأنه حب عفيف طاهر كالعـبادة ، غير ملوث بالشهوات الحسـية ، ولا النزوات الجنسية ولا المتعة الموقوتة .

٢ - يتسم الغزل العذري بالمثالية التي تتناقض مع وسطية الإسلام وواقعيته والفلسفـة الجمالية ، التـي ترتبط بتهذيب النفس ، وتصـفية الروح ، حتى تتـحقق السعـادة الحقة والرضى المقنع ، فـلا يكون استجـابة لميل ، أو هـوى ، أو طيش أو نزوة .

٣ - يتـسـم بالخضوع والضـراعة ، والاسـتبسـال في سـبيل الحب العـفيف والإلحاح عـلى المحبـوب ، واتخاذ كل الأسـباب والأحـاييل في تحقـيق الوصل أو الاستـشهاد في سبيله ، حتى تتم له السعـادة والقناعة والرضى أو إحداها ، محـبا مختارا ، لا مكرها مقودا .

٤ - المزاوجـة بين اليـأس والرجاء ، والصـد والإقـبـال ، والسرور والحـزن والحـرمـان والوصل ، والبكاء والدمـوع ، والشكوى والاسـتغـاثة بغـيـره ، والألم والأنين ، وحديث النجوى والعلن وغيرها .

٥ - تعاطف الطبيعة ومظاهر الحياة والبيئـة مع الحبيبين في مشاركة وجدانية تصل بينهما ، أو تخفف عنف الصراع عندهما ، أو تنـعكس على صفحتها صور أحدهمـا للآخر ليجد في ذلك السـلوى والعزاء ، والأنس والاقـتراب ؛ لتـبعث فيهما الحيوية والتجديد .

٦ - يتسم الحب العـفيف بالصراحة والوضـوح ، والجرأة والمكاشفة ، كـما

يتسم بالشهامة والمروءة ، وروح التضحية والإيثار ، وبذل النفس والروح افتداء ، والمقاومة المستمرة حتى يتحقق الزواج ، أو الشهادة ، أو القناعة بقضاء الله وقدره .

٧ - طغيان العاطفة القوية في مبالغة غير مقبولة ، وتدفق المشاعر الحارة ، والصدق فيهما للتعبير عن الوجدان الإنساني العامر بالإيمان ، والإخلاص والصدق والوفاء .

٨ - الزهد في اللذة المادية الموقوتة ، والترفع عن المتعة الجسدية ، والشمم عن القبيح ، والإباء عن الرذيلة ، والسقيطة والخبيث وما أشبه ذلك .

المعجم الشعري في الغزل العذري في القصيدة : لا تخلو عبارة ، ولا بيت ، ولا صورة ، ولا اقتباس أو تضمين من معان ومصطلحات وصور وألفاظ تشكل معجما شعريا في هذا الفن العذري العفيف الطاهر ؛ فلو تأملنا البيت الأول لوجدنا أنه يمثل معجما شعريا ، فمثلا « ألا ليت » اتخذت فيه مصطلحا في الغزل العذري وهو تعذر الوصل واللقاء مع أنها في غير البيت تدل على معنى وضعي آخر في اللغة وضحناه فيما سبق ، وأيام الصفاء جديد تدل على عدم عودتها ، ودهرا تولى كذلك « يا بثين » قد دلت بالترخيم والحذف على العدم ونفي الوصل ، وكلمة يعود أخذت غير معناها الوضعي في معاجم اللغة فصارت في البيت على النقيض ، وهو أن أيام الصفاء لن تعود ، وهكذا في كل القصيدة تشكل بألفاظها معجما شعريا في الحب العذري والغزل العفيف ، كما وجدنا ذلك في البيت الأول ، وكذلك في العبارة والجملة كما في « فنغني كما كنا نكون » ، « ما تبذلين زهيد » ، « لا أنس قولها » ، « أمصر تريد » ، « قربت نضوى » ، « لولا العيون أتيتك » ، « فاعذرني » من العذرى ، « فدتك جدود » « خليلي ما أخفى من الوجد » ، « دمعي شهيد على ما أخفى » ، « عبرة ... ستزيد » ، « يا بثينة قاتلي من الحب » ، « ثابت ويزيد » ، « ردي بعض عقلي » « ذاك منك بعيد » ، « ولا حبها .. يبيد يبيد » ، « جزتك الجوازي » ، « يا بثين ملامة » ، « خليل بان وهو حميد » ، « من الله .. وعهود » ، « حبيكم طريفا وتالدا » ، « عروض الوصل ... لصعود » ، « فأفنيت عيشي » ، « وأبليت الدهر وهو جديد » ، وهكذا إلى آخر القصيدة .

وكذلك لو تأملت العبارات والجمل السالفة تجدها أيضا لا تخلو من معجم

شعري في الصور الأدبية ؛ منها : « دمعي شـهيد » ، « عبرة ستزيد » ، « قاتلي من الحب » ، « فأفنيت عيشي » وهكذا إلى نهاية القصيدة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : « أبليت الدهر » ، « رياحها .. وئيد » ، « ومارث .. جـديد » ، « تلتقي الأهـواء بعد يأسه » ، سبتني بعيني جـوذر » ، « وصدر كفا ثـور اللجين وجيد » « قرينا كمثلها » ، « يموت الهـوى » ، والبيت الأخير وهكذا مما تركناه على النحو المذكور .

ومن المعجم الذي اقـتبسـه الشـاعر من القرآن الكريم والسنة الشريـفة صور كثيرة واقتباسات متنوعة ، منها على سبيل المثال لا الحصر أيضا : « وأنتم صديق » فمـعناها من آيات القرآن الكريم والسنة الشـريفة ، وسبق ذكـرها ، وما يدل على الحيـاء وهو مقتـبس أيضا قـوله : « لولا العين التي ترى أتيتك » ، وكـذلك البيت الخامس كله والعاشـر كله ، وما يدل على الوفاء بالعهود والمواثيق كـما في البيت الحادي عشر ، ومـا يدل على الترفع والعفة ، لأن بثينة ليـست زوجته وإنما هي في عصمة زوج آخر كما في البيت الثـالث عشر ، ومما يدل على تخير القرين الصالح كما وضحته سابقا من القرآن الكريم والسنة الشريفة كما في البيت العشرين ، وما يدل على الجهاد والغـزو في سبيل الله كما سـبق أن وضحته كمـا في البيت الثاني والعشـرين ، وما يدل على الشهـادة ، وما يفوز به الشـهيد من مـرضاة ربه والمنزلة العالية عنده جزاء لإيثاره وتضحيته بروحه ، وهي أعز ما يملك ، وقد وضحته قبل ذلك دفعا للتكرار كمـا في البيت الأخير ، وهكذا في كل القصيـدة تجد التضمين أيضا مـثل الرمز للحب بسـعدي في قـوله : « هل ألقين سعـدي من الدهر مرة » وغيرها من صوره ، حتى الوزن والقافيـة والإيقاع صاغه الشاعر على نسق إيقاعي حزين تنقطع معه الأنفاس وتكل قوى الجسم وتضعفه إلى حد الاستشهاد في سبيل الحب العـفيف ، والأمـثلة واضحـة سبق ذكـرها في البناء الفني والتصـوير الأدبي للقصيدة .

* * *

الفخـــر

وشعر الفخر في العصر الأموي تعددت موضوعاته وصوره ، فكان يأتي مع أغراض أخرى في القصيدة أحيانا ، ويأتي مستقلا في قصيدة أحيانا أخرى ، وقد يكون الفخر بالعصبية القبلية وبأمجاد القبيلة في الماضي ، وقد يكون الفخر بحزب من الأحزاب السياسية في العصر الأموي ، وقد يفخر الشاعر بنفسه .

ومن الشعراء الذين يفتخرون بآل البيت في شعر شاعر آل البيت الكميت الأسدي الذي قال فيه أبو عبيدة : « لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم : حببهم إلى الناس ، وأبقى لهم ذكرا » ، يقول في إحدى هاشمياته :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلام
طارقات ولا ادكار غوان ... واضحات الخدود كالآرام
بل هواي الذي أجن وأبدى ... لبني هاشم فروع الأنام
للقريبين من ندى والبعيديـ ... ـن من الجود في عرى الأحكام
والمصيبين باب ما أخطأ النـ ... ـاس ومرسى قواعد الإسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن ... لف ضرام وقوده بضرام
والغيوث الذين إن محل النـ ... ـاس فمأوى حواضن الأيتام
والولاة الكفاة للأمر إن طرّ ... ق يتنا (١) بمجهض أو تمام
أسرة الصادق الحديث أبي القا ... سم فرع القدامس القدام
خير حي وميت من بني آ ... دم طرّاً مأمومهم والإمام

ويفتخر الأحوص بنفسه وبخاله حنظلة بن أبي عامر شهيد « أحد » الذي غسلته الملائكة ، فقد قال رسول الله ﷺ : « إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر في صحاف الفضة ؛ فاسألوا أهله ما شأنه ، فسئلت صاحبته عنه فقالت : كان معي على ما يكون الرجل مع زوجته ، فخرج وهو جنب حين سمع الهاتفة ؛ فقال رسول الله ﷺ : لذلك غسلته الملائكة ، قال أسيد الساعدي : فذهبنا إليه فإذا رأسه تقطر ماء » ، يقول الأحوص مفتخرا بذلك (٢) :

---

(١) الجنين الذي خرجت رجلاه قبل رأسه أثناء الوضع .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٧٥ . هو الأحوص بن محمد ، ولد بقباء حوالي سنة ٤٠ هـ ، وتوفي =

فخرت وانتمَتْ فقلت : ذريني ليس جهلٌ أتيته ببديع
فأنا ابن الذي حمت لَحْمَه الدَّبْـ ـر قتيل اللحيان يوم الرجيع
غسَّلت خاليَ الملائكة الأبـ رارُ ميْتاً طوبي له من صريع (١)

وقال الأحوص يفتخر بشعره أمام عمر بن العزيز والي المدينة قصيدة منها (٢) :

وما الشعر إلا خطبة من مؤلف بمنطق حق أو بمنطق باطل
رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة ولا يسرة فعْلَ الظَّلوم المجادل
ولكنك أخذت القصد جهدك كله وتقفو مثال الصالحين الأوائل
فإن لم يكن للشعر عندك موضع وإن كان مثل الدر من قول قائل
وكان مصيبا صادقا لا يعيبه سوى أنه يُبْنى بناءَ المنازل
فإن لنا قربى ومحض مودة وميراث آباء مشوا بالمناصل
فذادوا عدو السلم عن عقر دارهم وأرسوْا عمود الدين بعد تمايل
فقلبك ما أعطى الهنيدة جلَّةً على الشعر كعباً من سديس وبازل
رسول الإله المصطفى بنبوَّةٍ عليه سلام بالضحى والأصائل
فكل الذي عدَّدْتُ يكفيك بعضهُ ونيلك خير من بحور السوائل (٣)

ويفتخر عيسى بن فاتك من شعراء الخوارج قائلا :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا فخروا ببكر أو تميم
كلا الحيين ينصر مدعيه ليلحقه بذي الحسب الصميم
وما حسب ولو كرمت عروق ولكن التقى هو الكريم

ويقول أبو بلال مرداس بن أدية يفتخر بعقيدته :

ما إن نبالي إذا أرواحنا خرجت ماذا فعلتم بأجساد وأوصال

== في خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥هـ) بدمشق ، وقيل بالبصرة ، وهو القائل للبيت المشهور :

سلام الله يا مصر عليها وليس عليك يا مطر السلام

(١) شعر الأحوص الأنصاري ، جمع وتحقيق : عادل سليمان جمال ، وقدم له : د. شوقي ضيف ص ١٥٧ .

(٢) الأغاني : ٢٥٦ - ٩/٢٦٠ . (٣) شعر الأحوص الأنصاري : ١٨٢ ، ١٨٣ .

نرجو الجنان إذا صارت جماجمنا ... تحت العجاج كمثل الحنظل البالي
إني امرؤ باعني ربي لموعده ... إذا القلوب هوت من خوف أهوالي
من كان من أهل هذا الدين كان له ... ودي وشاركته في تالد المال
الله يعلم أني لا أحبهم ... إلا لوجهك دون العم والخال

* * *

الهجـاء

اشتهر الفـرزدق بالهجـاء السافـر في النقـائض الشعـرية ، التي دارت بين فحول العصر الأموي ، حتى أصبح هذا الفن ينسب إليهم ، لكن الفرزدق في آخر حياته رجع عنه ، بعد قصة رواها المؤرخـون : حين ساوم الفرزدق رجـلا يسمى « حـمام » في السـوق على نحى من سمن ؛ فـقال له الرجـل : أدفعـه إليك بلا عـوض نقدي واشـتري به منك أعـراض قومـي ، فقـبل منه الفـرزدق ، ثم تاب وانصرف بعـدها عن الهجاء الذي كـان يتعرض فيـه للسباب والقـبح ، وكشف العورات ، وتاب عنه إلى الهجاء الذي يذم فيه القبائح ، وينفر منها ، ويحث على نقيضها من القيم السامية ، والأخلاق الإسلامية ، ومن هذا الشعر بعد توبته قصيدة له « يهجو فيها إبليسا » يقول فيها [1] :

إِذَا شئْتُ هـاجَتْني ديَارٌ مَحـيـلَـةٌ ... ومـربـطُ أفـلاءَ أَمَامَ خيـامِ
بحَيْثُ تلاقَى الدَّو والحَمْض هـاجتَـا ... لعَيْنَيَّ أغرابـاً ذوات سجَامِ
فَلَمْ يَبْقَ منهـا غَيْرَ أَثْلَمَ خَاشِعُ ... وَغـيـر ثلاث للرُّمـاد رئام
أَلَمْ ترَنـي عَاهَدْتُ ربِّي ، وإنـنـي ... لبـين رتَاج قَائـم وَمَقـامِ
علـى قَسَمٍ لاَ أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلمـاً ... وَلاَ خَارجـاً مَنْ فِيَّ سُوءُ كـلام
أَلَمْ تَرَنـي والشِّعْر أَصْبَحَ بيْنَنَا ... دُروء من الإسـلام ذات حـوام
بهنَّ شَفَى الرَحْمَنُ صَدْري ، وقَدْ جَلاَ ... عَشَا بَصَري منْهـنَّ ضَوْءُ ظـلام
فَأَصْبَحْتُ أَسْعَى في فكـاك قـلادةٌ ... رَهيـنَةُ أَوْزَار عَلَيَّ عظـامِ
أُحَاذرُ أَنْ أُدْعـى وَحَوْضـي مُحَلَّقٌ ... إِذَا كَانَ الـورْد يـومَ خصـامِ
ولَمْ أَنْتَه حَتَّى أَحاطَتْ خَطيـئـتي ... وَرَائي وَدَقَّتْ لـلـدُّهُور عظَامي
لعـمـري لَنعْمَ النخيُّ كـان لقَوْمه ... عَشيَّةَ غبَّ البَيْع نـخيُ حـمـامِ
بتَوْبَة عَبْد قـد أَنَاب فُؤَادَه ... وَمَا كـان يُعْطي النـاسَ غـيْرَ ظلام
أَطَعْتَكَ يَـا إِبْلِيـسُ سَبْعـينَ حجَّةً ... فلـمَّا انْتَهى شَيْبـي ، وتَمَّ تمـامي
فَرَرْتُ إلـى رَبِّي ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّنـي ... مُلاق لأيَّام المنونِ حـمـامي
ولَمَّا دَنَا رَأْسُ التـي كنتُ خـائِفـاً ... وَكُنْتُ أرَى فـيـهـا لقَاء لزَام

---

(١) الأغاني : الأصفهاني ص ٣٠٤ وما بعدها جـ ٢١ ، والديوان : ص ٧٦٩ .

حَلَفْتُ على نَفسي لأَجْتَهدَنَّها   عَلَى حَالِها من صِحّة وسِقَام
ألا طالَ ما قَدْ بِتُّ يُوضَع ناقتي   أبو الجنِّ إبْليسٌ بغير خِطام
يَظَلُّ يُمَنِّيني عَلَى الرَّحْلِ واركاً   يكُونُ وَرَائِي مرَّةً وأَمَامي
يُبَشِّرُني أن لن أَمُوتَ ، وأنَّهُ   سَيُخلدُني في جَنَّة وسلام
فقُلْتُ له : هَلاَّ أخيك أخْرَجَتْ   يمينُكَ من خُضْرِ البُحُورِ طَوَامِ
رَمَيْتَ به في اليَمِّ لمّا رأيته   كفرقة طودي يَذْبُل وشمام
فَلَمَّا تَلاقى فَوْقَهُ الموجُ طَامياً   نكَصْتَ ، ولم تَحْتَلْ له بمرام
أَلَمْ تَأْتِ أهلَ الحجر والحجر أهله   بأنعم عَيْشٍ في بيوت رخام
فقلْتُ اعقروا هذي اللقوح فإنها   لكم ، أو تُنِيخُوها ، لقوح غرام
فَلَمَّا أَنَا خوها تبرَّأتْ منهم   وكنت نكوصاً عند كل ذمام
وآدَمُ قَدْ أَخرجْتَهُ وهو ساكن   وزوجته ، من خير دار مقام
وأقْسَمْتَ يا إبْليسُ أنّك ناصحٌ   له ولها إقسامَ غيرَ أثام
فَظلاَّ يَخيطان الوِرَاقَ عليهما   بأيديهما من أكل شر طعام
فكمْ مِنْ قُرُون قدْ أَطاعُوك أصْبحُوا   أحاديثَ كانوا في ظلال غمام
وما أنت يَا إبليس بالمرء أبْتَغي   رضَاهُ ، ولا يَقْتَادُني بزمام
سأجزيك مِنْ سَوْءَاتِ ما كُنت سقْتَني   إليه جروحاً فيك ذات كلام
تُعيرها في النار ، والنار تلتقي   عليك بزَقُّوم لها وضرام
وإن إبليس وإبليس ألْبَنَا   لهم بعذاب الناس كل غلام
هُمَا تَفلا فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِما   عَلَى النَّابِحِ العَاوِي أشَدَّ رِجَام (١)

---

(١) هاجت : ثارت . ديار محيلة : مرت عليها سنوات . مربط أفلاء : موطم المهر الصغير أمام الخيمة . الدوّ : الصحراء . الحمض : المرّ أو المالح . أغراب وغرب : الدموع . سجم : سال . الأثلم : تكسر حده . ثلاث : موقد النار في قواعده الثلاث . الرئام : العطف . الرتاج : المغلق . من فيّ : من فمي . دروء : اندفاعاته القوية سواء أكان سيلاً أو ضوءا . حوام : الشمول . العشا : ضعف البصر . حوضي محلق : زاد ماؤه وارتفع . يوم الورد : يوم الجزاء . دقت عظامي : أصبحت هشة . النحى : إناء السمن . حمام : اسم البائع . غب البيع : إنجازه . تم تمامي : الكبر . المنون والحمام : الموت . يوضع الخطام : يدفعها بالحبل الموضوع في أنف البعير . واركا : يتكئ على وركه . أخيك : من يتبع الشيطان ، والمراد في البيت فرعون . خضر وطام : البحر المليء بالماء والأمواج . الفرقة : ما يحجز بين الشيئين . طود : يذبل . شمام : كلها جبال . نكص : غدر . تحتل : تتخذ حيلة لتحقيق غايته ومرامه . الحجر : ديار ثمود قوم صالح عليه السلام . رخام : حجارة ==

أصداء الخطاب عند المتلقي

المناسبة والتجربة في القصيدة : ظل الفرزدق إلى السبعين من عمره فارس الهجاء الفاحش مع جرير للنقائض الشعرية في العصر الأموي نشغلت الأدباء والنقاد قديما وحديثا ، وتبعهما فيها شعراء معاصرون لهما كالأخطل والراعي وغيرهما ، وشاءت الأقدار أن تتهيأ الأسباب ؛ ليتحول الفرزدق من هجائه الفاحش المعتمد على السباب وهتك الأعراض ؛ إلى هجاء الانحرافات ، والتنفير من القبائح ، والتصدي للسلوك الرديء والسيء ؛ ليقيم على أنقاضها أخلاقا فاضلة ، وقيما سامية ، وهو يشيد بالمبادئ الإسلامية والإنسانية الراقية ، وكما ورد في الحديث الشريف : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيكون بينه وبينها قيد شر ، فيعمل بعمل أهل النار ؛ فيكون من أهل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ؛ فيكون بينه وبينها قيد شبر ؛ فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيكون من أهل الجنة » .

ولقد شاءت الأقدار ، وما قدر سيكون ، أن اتجه الفرزدق إلى السوق فيساوم « حمام » البائع على نحى من سمن ، وإذا بالبائع يهزه من أعماقه هزا عنيفا ، فيعرض عليه أن يعطيه له ، ويشتري منه أعراض قومه ، فثارت عاطفة الشاعر ثورة عنيفة على مسرح الحياة الأليمة ، وفجرت بركانا ، يقذف بنيران المشاعر ، تلتهم ألسنة الشر في الهجاء عنده ، ويزيح التراب المتراكم على المعدن الأصيل في نفسه ، عن الفطرة السليمة ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ثم يرجع إلى بيته وهو مأخوذ بهذه الصدمة الصارخة ، التي هزت كيانه ، وحياته ودمرت جذور الشر في نفسه ؛ فيدرك سبب الأسباب في ذلك ؛ فيدرك أن هوى النفس ، ونزوغها إلى الباطل ، تفتح أبواب الشياطين ، وتفسح للأبالسة مواطن منها ، فيتحدث بلسانهم ، ويقدح بشررهم ، فينطلق ساعتئذ ساعة الرضوان والتوبة النصوح ، وهو ثائر على إبليس وأعوانه ، الذين كانوا من ورائه في قرض

== الجبال . اعقروا : اذبحوا . أقسام أثام : حلف مأثوم ويمين حانث . يخيطان الوراق : يستران الجسد بالأوراق . أكل شر طعام : طعام حرام عليهما . الزمام : مقود الدابة . العار : العيب . الزقوم : شجرة في جهنم طعام لأهلها . ضرام : مشتعل . ألبنا : سقاهم . تفلا في : نفثا في فمي . فمويهما : تصغير فم ، النباح للكلب والعواء للذئب . رجام : الرمي بالنجوم أو الرمي بالشهب .

الهجاء القبيح ، والمناقضات الشعرية ، ليثوب إلى رشده في تجربة شعرية ، ينتقم فيها من سب الأسباب ؛ فيهجو إبليسا ، فقد جاء في الأخبار أن الفرزدق أتى الحسن البصري ، وقال له : قد هجوت إبليسا (١) .

ومن هذا الموقف التاريخي ، يتضح دور المناسبات في الشعر العربي ، وهي أنها ليست من عوامل محو الذاتية في الشعر ، وطمس الشخصية والفردية في التجربة الشعرية ، كما يدعي ذلك بعض النقاد المحدثين ، وإنما هي مجرد الشرارة الأولى ، التي تحرك كوامن الذاتية في الشعر ، وتبعث الحيوية ، وتكسر القيود المضروبة حول الشخصية الشعرية ، والفردية الذاتية ، ويزيح التراب المتراكم عليها فيتألق معدنها الأصيل ، وتنطلق كالمارد ؛ لتقيم تجربة ذاتية شخصية فردية في مجال فن الشعر وإبداعه ؛ فيخاطب المتلقي ؛ ليثير في مكامنه الشعورية والعاطفية تجربة حياته مع إبليس والشر والقبيح ، ويأخذ بيديه ؛ لينقذه من ساحات الغواية والهوى والطيش ، وينطلق معه في سجلات التاريخ البشري مع الشيطان ليصور بعدسات الشعر اللاقطة صورا منفرة من عمل إبليس ، وأصداء الغواية ، وألوان الإغراءات الزاهية ، التي هوت بالنفس إلى التردي والسقوط في معاطنه الكريهة ومخابثه المنتة ، ومقابحه المنفرة .

لذلك كله هبط الإنسان مع الشيطان إلى الأرض : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع » ، وليغري أتباعه وأعوانه من البشر ، قال تعالى : ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ۝ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ۝ قال إنك من المنظرين ۝ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ۝ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ۝ قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ۝ إلا عبادك منهم المخلصين ۝ قال فالحق والحق أقول ۝ لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (٣) .

---

(١) الأغاني : ص ٣٥٧ جـ ٢١ .

(٢) سورة الأعراف : آيات ١٣ - ١٨ .

(٣) سورة ص : آيات ٨٢ - ٨٥ .

من هذا الموقف ، وتلك المناسبة ، أعلن الفرزدق توبته النصوح في تجربة شعرية ثرية متدفقة بالعاطفة الصادقة ، والمشاعر الفياضة ، والإحساس العميق والخواطر الفطرية ، والقيم الخلقية ، في تصوير أدبي بارع ، حتى أقسم الفرزدق وأبر بقسمه ، يردده في صيحات الخطاب وأصدائه ثائرا متمردا على إبليس في خطابه للمتلقي قائلا :

لعمري لنعم النحي كان لقومه	عشية غب البيع نحي حمام
بتوبة عبد قد أناب فؤاده	وما كان يعطي الناس غير كلام
أطعتك يا إبليس سبعين حجة	فلما انتهى شيبي ، وتم تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني	ملاق لأيام المنون حمامي
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي	رضاه ، ولا يقتادني بزمام
سأجزيك من سوء ما كنت سقتني	إليه جروحا فيك ذات كلام

الوحدة الموضوعية في الخطاب : خرج الخطاب في القصيدة على النمط الشائع في قالبها الفني ، ومنهجها التقليدي ، من تعدد الأغراض ؛ لتأخذ نمطا إبداعيا جديدا في باب الهجاء ، لتنبني القصيدة على « وحدة موضوعية » و« وحدة فنية » ، يبدأ الموضوع من أول بيت في المطلع إلى الوسط ثم إلى الخاتمة فأما بداية المطلع الذي كان لا بد أن ينطلق من القمة في الموضوع ، وهي مواجهة إبليس مواجهة صريحة ، يسجل فيها تاريخه السيء والشرير مع البشرية ، أولا مع آدم أبي البشر ، ومع أقوام الرسل من بعده ، جاءت هذه القمة في القصيدة بعد أن انطلق الشاعر من تجربته الشخصية مع إبليس في الماضي القريب له ، وقد كانت بعد مواقف إبليس التاريخية مع أقوام الرسل عليهم السلام بأزمان بعيدة عن تجربة الشاعر بكثير .

لذلك كان من العسير بهذه الكيفية أن تتحقق « الوحدة العضوية » التي تقوم على ترتب الأحداث ترتيبا زمنيا وواقعيا ، بحيث ينمو الحدث التاريخي من الحدث قبله ، ويترتب عليه ، إلا إذا كان من المقبول في عرف القصة الفنية الحديثة مراعاة ترتيب الأحداث في الذهن قبل النطق والنمو في الأحداث ، حينما يعود القاصّ إلى الوراء حينا ؛ فيبدأ أحداث قصته بالإشارة إلى الخاتمة ؛ ليعود بعدها إلى بداية الأحداث ، واتخذ الفرزدق هذا الاتجاه الفني في قصيدته ؛ فقد بدأها

بماضيه مع إبليس ، وهي مرحلة تاريخية متأخرة وحديثة ، تمثل مرحلة الوسطية في نمو الأحداث والترتيب الزمني ، وليس مرحلة البداية وهي موقف إبليس مع أقوام الرسل عليهم السلام ، ولا مرحلة الخاتمة التي انتهت القصيدة بالنهاية الحتمية وهي إصدار الحكم وإعلان النتيجة والقرار على إبليس .

وهذه البداية من وسط الأحداث والموضوع هي في ذاتها قمة التجربة الذاتية للفرزدق في قصيدته ، وهي جوهر الشعر الغنائي ولحمته وسداه ؛ فالشعر الغنائي ينأى كثيرا على الوحدة العضوية ، لكنها تستجيب في طواعية طبعية مع الشعر التمثيلي والقصصي والموضوعي ، ومع المسرحية الشعرية والرواية والقصة والمسرحية النثرية ، وفي هذا أبلغ الرد على من يتهم الشعر العربي بالتردي والرداءة ، لانطلاقه من المناسبات بنقض دعواهم الباطلة .

لأن الشاعر هنا بدأ القصيدة من أولها بتجربته الذاتية والشخصية مع الشيطان ؛ فمن غير المقبول أن يصور مواقف إبليس مع الأمم قبله وبعده ، قبل أن يصور موقفه مع صاحب الخطاب ، ومبدع النص ، فما دام الشعر غنائيا ذاتيا ؛ فلا بد من أن يبدأ التجربة مع ذاته ونفسه أولا ، وقبل كل شيء ، بعد ذلك يمضي مع الأبالسة ، ويأخذ بأيديهم إلى ماضيهم البعيد والقريب ، ليبين للمخاطب والمتلقي سبب تمرده على الشياطين وأعوانهم ؛ وليتخذ من مواقفه الذاتية أسلحة فتاكة يشهرها في وجوههم ، وتسيل منها دماؤهم ، ويخرجون صرعى الهزيمة والخزي متمرداً على سلطانه ، ومنتصرا عليه وعلى أعوانه مصداقا لقوله تعالى : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ۝ إلا عبادك منهم المخلصين ۝ قال هذا صراط علي مستقيم ۝ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ۝ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ۝ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ۝ إن المتقين في جنات وعيون ۝ ادخلوها بسلام آمنين ۝ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ۝ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ۝ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحجر : ٣٩ - ٥٠ .

ويمضي الفرزدق مع الأبالسة ؛ ليصور لهم الدواعي والأسباب التي كانت سببا في التمرد عليهم ، ويعبر في أسلوب أدبي عن المواقف المزرية والشريرة التي زينوها له في صور الترغيب والفتنة ، ويعرض الأحداث القبيحة التي نسجوها في أثواب الإغراء والزينة ، وذلك في تصوير واقعي من خلال المواطن المختلفة من السهول والجبال ، والخيام والأثافي ، والرماد والأبعار والحطاب والأشعار التي ترددت أصداؤها جميعا في الفيافي والصحراء وفي جنبات الوادي وعلى سفوح الجبال ، إنها كانت مواقع خبيثة ؛ لأن الشيطان نفث فيها من طبيعته الخبيثة الشريرة ؛ فقد عبث الأبالسة في جنباتها بألوان الفساد والضلال ، ومختلف القبائح والشرور ، يقول الفرزدق مبدعا في تصويره :

إذا شئت هاجتني ديار محيلة ... ومربط أفلاء أمام خيام
بحيث تلاقى الدو والحمض هاجتا ... لعيني أغرابا ذوات سجام
فلم يبق منها غير أثلم خاشع ... وغير ثلاث للرماد رئام
ألم ترني عاهدت ربي وإنني ... لبين رتاج قائم ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما ... ولا خارجا من فيّ سوءُ كلام
ألم ترني والشعر أصبح بيننا ... دروء من الإسلام ذات حوام

وهكذا إلى البيت العاشر .

القيم الخلقية في خطاب القصيدة : استطاع الشاعر من خلال الخطاب في النص والتراسل بين التراكيب والصور ، أن يتوجه إلى المتلقي ليغرس في تصويره قيما نبيلة ، يتخذها في سلوكه البشري ؛ ليقاوم التيارات الشريرة في النفس ، ويبدد بها الصراعات المنحرفة في الفعل والسلوك ، ويدمر بمضامينها الخلقية جوانب الفساد والغواية ؛ ليتخذ من كل ذلك منهجا قويما يتعامل به في سلوكه مع ربه ، ومع نفسه ، ومع أسرته ، ومع المسلمين ، ومع الناس أجمعين ، حتى لا يكون سلطان للشياطين على الإنسان ، يعكر صفو الفطرة ، أو يصرفه عن الهداية إلى الضلال ، قال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ۝ إن الذين اتقوا إذا

---

(١) سورة فصلت : ٣٦ .

مسـهم طائف من الشيطان تذكروا فـإذا هم مبصـرون ﴿٢٠١﴾ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ [1] ؛ ليقاوم الإنسان غواية إبليس ، يتذكر قيم الإسلام في قـوله وسلوكه ؛ فـيسـد عليه أبوابه ، ومن أهم هـذه القيم الخلقـيـة فـي خطاب القصيدة :

١ ـ يجب أن يحاسـب الإنسان نفسـه من حين لآخر ؛ ليقـف على ما وقع فيه من أخطاء ، أو مـا تورط فيه من مظالم وألوان الغواية والضلال ، ليطهـر نفسه بالتوبة ؛ فيستغفر ربه عما وقع فيه من أخطاء وآثام ، ويرد المظالم والحقوق ، حتى تتحقق التوبـة النصوح ؛ التي تغلق على الشيطان أبوابه ؛ لتفتح مـصاريعها لأنوار الرحمن ، وهذا هـو معنى التذكـر في الآية السابقـة : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مـسـهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبـصرون .. ﴾ ، قال عمر بن الخطاب ﷺ : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، حاسبوا أنفسكم قبـل أن تتعـرضوا لليـوم الأكبـر ، « يومئـذ تعرضـون لا تخفـى منكـم خافـيـة » فالفـرزدق في الأبيات الثلاثة الأولى ، تذكـر ماضيـه مع غوايات إبليس في دياره ومرابعها وخيامها وحيواناتها ومواقدها وأنوائها ورياحها ، فتجسمت فيها أخطاؤه حية شاخصة ، وتحركت صورها القبيحة من زلات وضلالات انغمس فيها ، ففزع إلى ربه نادمـا على مـا وقع منه في هذه الديار ، وتـائبا إلى ربـه منيبـاً ؛ ليـعـمل الصالحات الباقيات .

٢ ـ حينما تذكـر الفرزدق الماضي ، ذكـر ربه تائبا ، ثم عـاهده علـى ألا يعـود إلـى المعـاصي أبداً ، ولـن يخـضع بعـد ذلك لأفـاعيل إبليس والضـلال وسـيجـدد عهـده مع ربه بالتـوبة والإنابة مع كل فريـضة وأثناء الركـوع والقيـام والسجود ، وبعد ختـام الصلاة ، كما ورد في القرآن الكريم : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كـان غفـاراً ﴾ نوح : ١٠ ، وفي الحـديث الشريف : كـان النبي ﷺ يستـغفر ربه في اليـوم مائة مرة ، وفي دبر كل صلاة . ﴿ فـاصبر على مـا يقولون وسبح بحـمد ربك قـبل طلوع الشمس وقـبل الغروب ﴿٣٩﴾ ومن الليل فـسبحـه وأدبار السجود ﴾ سورة ق : ٣٩ ، ٤٠ ، وتعجبت أم المؤمنين السيدة عائشة ﷺ من كثرة استغفار الرسول ﷺ قائلة له : « لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما

---

(١) الأعراف : ٢٠٠ - ٢٠٢ .

تأخر ، وأتم نعمته عليك ، فقال ﷺ : أفلا أكون عبدا شكورا » ، فقد تذكر الفرزدق ذلك ؛ فعاهد ربه على التوبة والإنابة والانتصار على الشيطان فقال :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رتاج قائم ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا من فيّ سوء كلام

وهكذا إلى البيت العاشر .

٣ ـ لا تكفي التوبة باللسان ولا بالكلام ، بل بالعزيمة الصادقة وبالسلوك الحميد ، وبالفعل القويم ، فقد أقسم الفرزدق بقية حياته ألا يشتم مسلما ، ولا يجري على لسانه قبيح القول ، ولا فحش الكلام ، فلا يقع منه قولا أو فعلا إلا كل خلق قويم ، فلن يتبع الشيطان في قوله ، ولا يخضع لسلطانه في شعره ولا في معاملاته ؛ فينجو من كيده في الدنيا ومن البراءة من فعله والنكوص على وجهه يوم الحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » سورة إبراهيم : ٢٢ ؛ لذلك أبر الفرزدق بقسمه فأخرج نفسه من خبث الشيطان وكيده ولؤمه ونكوصه فقال :

على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا من فيّ سوء كلام

٤ ـ الهجاء في الأدب الإسلامي يختلف عن الهجاء الشائع في المناقضات الشعرية للفرزدق وغيره ، فقد كان الأخير يعتمد على الشتم والسباب وتصوير القبائح وهتك الحرمات ، فقد أصبح بعد توبته يستضيئ فيه بنور الإسلام ويتلألأ بتعاليمه وقيمه السامية ، وينفّر من القبيح ، ويتجنب الشر والخبيث ، ليحل مكانها الجميل والخير والطيب ، وهكذا أصبح شعر الهجاء عنده ، يهدف إلى غاية شريفة ، ويرمي إلى هدف سام بعد أن انتصر على إبليس وكسر شوكته مصداقا لقوله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ آخر سورة الشعراء ، فقد تأثر الفرزدق

بهذه الآيات وغيرها في هجائه ؛ فصدر عن قلب مؤمن ، لا يصدر عنه إلا الكلمة الطيبة ، والشعر الذي يستمد روافده من نور الإسلام وهداه ، فقال في ذلك :

ألم ترني والشعر أصبح بيننا　　　دروء من الإسلام ذات حوام

٥ ـ يتحدث الشاعر عن تعاليم الإسلام ، وقيمه الخلقية في الشعر ، التي شرعها الرحمن لعباده ، ليشفي صدورهم ، وينير بصيرتهم ، ويحيي قلوبهم فيهديهم إلى طريق الهدى والنور ، ويقضي على الضلال ، ويبدد الظلام ، ليمحو الأوزار ، ويبدل السيئات بالحسنات : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ، لأن التوبة تغفر الذنوب ، وتستجلب المغفرة والرحمة : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ۝ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ الفرقان : ٧٠ ، ٧١ ، يقول الفرزدق :

بهن شفى الرحمن صدري وقد جلا　　　عشا بصري منهن ضوء ظلام
فأصبحت أسعى في فكاك قلادة　　　رهينة أوزار عليّ عظام
أحاذر أن أدعي وحوضي محلق　　　إذا كان يوم الورد يوم خصام
ولم أنته حتى أحاطت خطيئتي　　　ورائي ودقت للدهور عظامي

٦ ـ نسبة الفضل إلى أهله ، والعرفان بالجميل لصاحبه ، والتقدير لمن أسدى إليه معروفا ، والشكر لمن قدم نصيحة ، ولمن أرشد إلى الخير ، كل هذه تعد قيما إسلامية ، تحث الشريعة عليها : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ؛ قد تاب الفرزدق على يد البائع « حمام » ، الذي باع له السمن ليشتري منه أعراض قومه ؛ فلا يتعرض لهم بالهجاء المذموم ، يقول الفرزدق :

لعمري لنعم النحي كان لقومه　　　عشية غبّ البيع نحى حمام
بتوبة عبد قد أناب فؤاده　　　وما كان يعطي الناس غير ظلام

٧ ـ من علامات وداع العبد للحياة وخط الشيب في شعره ، ووهن الجسد لكبره ؛ فهو نذير له بالنهاية وحلول الأجل ، ليلاقي ربه فيوفيه حسابه ، والله

سريع الحساب ، قال تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ الروم : ٥٤ ، ويقول تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ غافر : ٦٧ ؛ فكان الشيب وضعف الكبر وبلوغ السبعين هي الأخرى من دوافع التوبة النصوح ، والإقلاع عن الهجاء المحرم والتنفير من القبيح والشر والخبيث ، والحث على نقيضها من الحسن والخير والطيب ، فقد فر إلى ربه ، بعد أن أيقن أنه ملاقيه لا محالة ، قال الله تعالى : ﴿ وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ المنافقون : ١٠ ، ١١ ، فتدافعت النذر ، وتدفقت الدوافع للفرار إلى الله والرجوع إليه وإليه المصير : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ﴾ الذاريات : ٥١ ، يقول الفرزدق :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة فلما انتهى شيبي وتم تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني ملاق لأيام المنون حمامي

٨ ـ الشيطان يدخل على النفس من كل باب ، ويتخذ كل الأحابيل والسبل ، ليصرفه عن طاعة ربه ، فكثيرا ما كان يمنيه ، ويزين الشر والباطل ، فهو يعينه على إطالة عمره ، ويمد له الحياة ، ويؤخر الأجل ، فإذا تبددت الأماني إلى الفشل ، نكص على عقبيه ، وتبرأ منه ، قال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ الأنفال : ٤٨ ، ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكون ملكين أو تكونا من الخالدين ۝ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ۝ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ۝ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين

۝ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ۝ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ سورة الأعراف : ٢٠ - ٢٥ وقال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ۝ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ۝ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ۝ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى ۝ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ۝ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ۝ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ۝ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ طه : ١٢٠ - ١٢٧ ، لكن الفرزدق بعد توبته عرف أن أماني الشيطان واهية خاسرة ، ومغرياته سراب خادع ، فلا سلطان عليه ولن يتبعه بعد ذلك ، يقول الفرزدق :

ألا طال ما قد بتّ يوضع ناقتي ... أبو الجن إبليس بغير خطام

يظل يمنيني على الرحل واركا ... يكون ورائي مرة وأمامي

يبشرني أن لن أموت وأنه ... سيخلدني في جنة وسلام

٩ ـ لكي ينتصر الفرزدق على الشيطان يذكره بتاريخه الأسود مع السابقين وألاعيبه الخاسرة مع الطغاة الجبارين ، الذين أغراهم كثيرا ومناهم ، ومنهم فرعون الذي ظل يمنيه حتى طغى وتجبر ، وتعالى على ربه وتكبر ، حتى قال لموسى عليه السلام : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ۝ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ۝ قال لمن حوله ألا تستمعون ۝ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ۝ قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ۝ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ۝ قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ سورة الشعراء : ٢٣ - ٢٩ ، وقال تعالى : ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ غافر : ٢٩ ، وقال تعالى : ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ۝ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ۝ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ۝

فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴿﴾ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ الزخرف : ٥١ - ٥٦ ، لكن فرعون بعد أن خر صريع الأماني الباطلة ، وأهلكه الله عز وجل ، لم يمد له يد العون لينقذه من الهلاك ، بل تركه مثلا يضرب للذلة والهوان في سمع الزمان والمكان لخزي الشيطان وغدره ، فقال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿﴾ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿﴾ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ يونس : ٩٠ - ٩٢ ، وهكذا يستمد الفرزدق من القرآن قيم الهجاء الخلقية والفنية ؛ فيقول :

فقلت له : هلا أخيك أخرجت	يمينك من خضر البحور طوام
رميت به في اليوم لما رأيته	كفرقة طودى يذبل وشمام
فلما تلاقى فوقه الموج طاميا	نكصت ، ولم تحتل له بمرام

١٠ - يضرب الفرزدق مثلا آخر لسرابه الخادع ، وآمانيه الخاسرة ، وما فعله مع ثمود أهل الحجر ، وهم قوم صالح عليه السلام حين أغراهم بكفران نعمة الله في آية من آياته التي أنعم عليهم بها ، وهي ناقة صالح ، كانت تطوف عليهم ليشربوا من لبنها ، كما كانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين وغيرها ، فكفروا بنعم الله عز وجل فعقروا الناقة وحق عليهم العذاب والدمار ، وتخلى عنهم إبليس أيضا ، وتبرأ منهم ، قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴿﴾ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴿﴾.. أتتركون في ما هاهنا آمنين ﴿﴾في جنات وعيون ﴿﴾ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴿﴾ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴿﴾فاتقوا الله وأطيعون ﴿﴾ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴿﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿﴾ ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴿﴾ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴿﴾ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴿﴾ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴿﴾ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ الشعراء : ١٤١ - ١٥٩ ، وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود

بطغواها ۞ إذ انبعث أشقاها ۞ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ۞ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ۞ ولا يخاف عقباها ﴾ الشمس : ١١ - ١٥ ، يستمد الفرزدق قيمه الخلقية في هجائه من الآيات السابقة قال :

ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله ... بأنعم عيش في بيوت رخام
فقلت اعقروا هذي اللقوح فإنها ... لكم ، أو تنيخوها ، لقوح غرام
فلما أناخوها تبرأت منهم ... وكنت نكوصا عند كل ذمام

١١ ـ ويضرب مثلا آخر من كيد الشيطان مع أبينا آدم عليه السلام ، حين أغراه ومناه بالبقاء والخلد في الجنة ، وأقسم له على ذلك فأخرج آدم عليه السلام وحواء من الجنة ، وهبطا إلى الأرض على عرى ، فأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ومع القسم والأماني وقف عاجزا عن إنقاذهما وخلودهما في الجنة بل سخر من أتباعهما ، وتبرأ منهما ، قال تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .. ﴾ إلى آخر الآيات وقد سبق ذكرها : سورة الأعراف : ١٩ - ٢٦ ، يقتبس الفرزدق في تصويره الشعري هذه القيم السامية ليرد بها كيد الشيطان ؛ فيقول :

وآدم قد أخرجته وهو ساكن ... وزوجته من خير دار مقام
وأقسمت يا إبليس أنك ناصح ... له ولها إقسام غير أثام
فظلا يخيطان الوراق عليهما ... بأيديهما من أكل شر طعام
فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا ... أحاديث كانوا في ظلال غمام

١٢ ـ هذه الصور السابقة والنماذج المتعددة دلت على ألاعيب إبليس الخاسرة ، وتجارته البائرة ، أيقظت في نفس الفرزدق العزيمة الصادقة على مقاومة حيله وصوره ، والإيمان القوي الذي يكون حاجزا منيعا ، يرتد على سطحه مكره وخبثه ، فيعصيه ، لكي يعصي من غيره ، وسيظل يعصيه ابتغاء مرضاة ربه ويقذف بأباطيله الشيطانية مع الزقوم في جهنم ، فيتحول وقودا ثم رماداً ، ولن يعود أبداً إلى ما كان يرضعه من ألبان شره ، وما كان يتجرعه من ألوان العذاب فكثيرا ما تفلت الأبالسة في فمه بالشرور المدمرة على لسانه ، التي يرمي بها في هجائه كالشهب الحارقة ، التي ترجم من يسترقون السمع من الجن ، إنه لن يعود

إلى هذا الصنيع أبداً بعد هذه التوبة النصوحة من الهجاء المحرم والقبيح يقول الفرزدق :

وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي رضاه ، ولا يقتادني بزمام
سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني إليه جروحا فيك ذات كلام
تعيرها في النار ، والنار تلتقي عليك بزقوم لها وضرام
وإن إبليس وإبليس ألبنا لهم بعذاب الناس كل غلام
هما تفلا فيّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام

القيم الفنية في خطاب القصيدة : حفلت قصيدة الفرزدق في هجاء إبليس بالتصوير الأدبي القوي ، مع أن طبيعة التجربة فيها تكاد تكون تقريرية ، يغلب عليها الجانب الفكري والعقلي والاستدلالي ؛ لينتهي فيها بالانتصار على إبليس بالحجة ، وتبديد ألاعيبه بالإقناع ؛ لكن شاعرية الفرزدق استطاعت بفحولته أن تختفي فيها خيوط التقريرية ، وأن تحتجب البراهين العقلية وراء التصوير الأدبي ؛ ليسيطر الجانب الإبداعي في التصويرالفني والتعبير الأدبي - لا العلمي - على التقنية ؛ فتتلاشى خيوطها في روافد التصوير ، وتذوب أشكالها في عناصر الصورة ؛ فيتغلب الجانب الأدبي بالتصوير الفني على الجانب التقريري القائم على الحجة الواضحة ؛ لتكون الصور الفنية والأشكال الأدبية ، هي في ذاتها أدلة تقريرية ؛ لكنها أدلة تصويرية ، وتقارير أدبية فنية .

وعلى سبيل المثال لا الحصر حينما أراد الفرزدق أن يقنع الشيطان بفشله في حيله ، وتبديد مكره ، وتصوير ضعفه أمام قضاء الله عز وجل وقدره ؛ فلم يكن ذلك بالأدلة العقلية ، ولا بالبراهين المنطقية ، وإنما تمّ ذلك عن طريق التصوير الأدبي ، وعرض اللوحات الفنية ، التي استمدها من سجلات التاريخ ، وقداسة القرآن ، وحيوية الواقع في صور فنية حية ، تنبض بالعاطفة الصادقة ، والمشاعر القوية ، تتعاون فيها روافد التصوير ، وعناصر الفن والإبداع ، مثل اللوحات الفنية في تصوير فرعون موسى عليه السلام ، وتصوير أهل الحجر قوم ثمود مع ناقة صالح عليه السلام ، وتصوير آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة ، وغيرها من صور القرون الغابرة ، وذلك لأن الفرزدق استطاع بموهبته الشعرية ، أن يبدع بمداد فنه الأدبي التي ذابت فيه روافد التصوير وعناصره الحية المتنوعة .

فأما روافد التصوير الأدبي ومنابعه في القصيدة فقد تنوعت في غزارة وعمق ، فقد اشتهر الفرزدق بحقله اللغوي الغريب والحوشي ، لكن موهبته الشعرية حولت الصعب سهلا ، والحوشي مأنوسا ، والغريب رفيقا ورقيقا ، فتجد الكلمات في القصيدة قد تبددت غرابتها ، وأطلت معانيها من حسن موقعها ، ودقة موضعها من النظم والصورة ؛ لتستريح من العناء ، وطول التأمل في البحث عن معناها ، لتفصح الجملة أو المنظومة بمعناها مع قليل من التأمل مثل قوله : « هاجتني ديار محلة - ومربط أفلاء أمام خيام - تلاقى الدو والحمض - هاجتا لعيني أغرابا ذوات سجام - غير أثلم خاشع - وغير ثلاث للرماد رثام - وإنني لبين رتاج قائم ومقام » .

فهذه الكلمات في العبارات السابقة ، تجلت معانيها لحسن موقعها من الجملة ، مع أنها وهي مفردة في غاية الغرابة ، تحتاج إلى المعاجم اللغوية ، أما الكلمات الباقية في القصيدة كانت قريبة مأنوسة ، يتأتى معناها ، ويتضح بالتأمل اليسير ، لا الطويل ولا العميق ، ولا بالبحث عنها في معاجمها اللغوية ، فهي لا تحتاج إلى جهد كبير أو مشقة ، وهكذا تفعل المواهب الفنية ، ينماع بسحرها الثلج إلى ماء يسيل رقة وعذوبة ، وتتكسر الشعاب الحادة إلى عقود من اللآلئ والجواهر تشكل فيما بينها دروبا للوالهين بروعة النظم ، ومسارات للمفتونين بسحر التراكيب وهندسة الأساليب .

في الأبيات الثلاثة الأولى يستخرج الفرزدق من ملفات ماضيه القريب ومن سجلات تاريخه الحي صورة كلية لموطنه في الديار ، التي لا زالت تذكره بمآسيه في الهجاء السافر ، المتقبح بمغريات الأبالسة قبل توبته عنه ، ولم يبق من هذه الديار إلا الآثار البالية ، والدمن الخالية ، مرت عليها سنوات عجاف تنزف قيحا وعلقما ، فلا يزال يذكر في حسرة وألم مرابط المهر والجحش والمواقد والأثافي وغيرها أمام الخيام في الصحراء المهجورة ، والعشب المالح ، الذي لا يصلح للرعي ، وظلت الأمتعة المتكسرة والآلات المتثلمة ، ومواقد الطعام ، وقد تراكم الرماد حول الأثافي ، حين يذكر ذلك تنهمر عيناه بالدموع الحارقة ندما وحسرة على ما وقع فيها من ذكريات مريرة مع مغريات الشياطين في هجائه المتقبح بالشر والفساد والخبائث ، وحين يتذكر ذلك يقسم ألا يعود إليه مطلقا وإلى الأبد .

هذه صورة كلية تلاءمت فيها الروافد الكثيرة ؛ فقد صورت « إذا » أن ما حدث حقيقة لا تنكر ، تثيره صورتها إثارة عنيفة وقاسية وأليمة ، وتلك الصورة المثيرة في « هاجتني ديار » ، فليس الفعل مسندا إلى سهل أو إلى واد ، أو إلى خيمة ؛ بل إلى ديار عديدة ، وصحراوات شاسعة ، وخيام كثيرة ، ومرابط منثورة ليكون ذلك أكثر إثارة في نفسه ، وأقوى جيشانا لمشاعره ، هذه المواطن جدبة قاحلة « تلاقى » فيها الجفاف مع العشب المالح ، الذي لا يصلح للرعي ، بصيغة المفاعلة ، التي تدل على عنف الجفاف وشدة القحط .

تلك هي الصور المستمدة من الحقيقة ، وأما صور الخيال التي تؤازرها لتكون أكثر إثارة وتأثيرا كالاستعارة في « أثلم خاشع » و« هاجتني ديار ومرابط » « تلاقى الدو والحمض » و« هاجتا لعيني » والكناية في « وغير ثلاث للرماد رئام » وغيرها .

ثم تأمل الاستفهام التقريري « ألم ترني » مرتين ، فهو يدل على اتخاذ قرار التوبة بلا تردد ، والعهد مع ربه بلا نقض ولا رجعة ، وهو قرار صلب حاسم مؤكد في تصوير أدبي تمده روافد متعددة ، ترجع إلى وحي الرؤية الحسية في البصر ، والمعنوية في البصيرة ، ثم الإلحاح في تكرار ضمير الذات والمتكلم مما يدل على العزيمة الصارمة والضمائر هي : الياء في « ترني » مرتين ، والتاء في « عاهدت » ، والياء في « ربي » وفي « إنني » ، والضمير المستتر « أنا » في « أشتم » ، والياء في « فيَّ » ، ونا في « بيننا » بالإضافة إلى دلالات الألفاظ على التصميم والعزم في « ترني » و« عاهدت » و« قسم » و« دروء من الإسلام » و« الشعر » ثم التنوين المتكرر في ألفاظ كثيرة مع دلالات التنكير على التعظيم والتنوين على الزيادة والتكثير ، وهكذا بقية الصور المستمدة من الحقيقة كصورة التأكيد النابع من التكرار في قوله : « من فيّ سوء كلام » ؛ فهو يؤكد معنى الشتم السابق في « أشتم » ، ثم التأكيد بتكرار الاستفهام التقريري « ألم ترني » كأنها قرارات تصدر متتابعة تؤكد بعضها بعضا على التوبة النصوح بالقول والرؤية الباصرة وبالبصيرة والعلم ، وأما السلوك والفعل وهو أكثر تأكيدا فهو سلوكه الجديد في شعر الهجاء ، الذي اتخذ سلوكا حميدا ، وكان صورة منه هي تلك القصيدة التي هجا فيها إبليس ، وما تضمنت من قيم إسلامية استمدها من تعاليم

الإسلام ، وغيرها من القصائد التي انتقم فيها من الشيطان ، وأرضى ربه ؛ فأثلج صدره ، وأنار قلبه ، وطهر بصيرته ، كما أبصر نور الهدى بعينيه .

فهذه الصور تؤازرها في الصورة الكلية صور خيالية جزئية ، منها : الاستعارات في قوله : « والشعر أصبح بيننا ـ دروء من الإسلام ذات حوام » فهي تجسم المعاني المجردة من الموهبة الشعرية ومن الإسلام ونوره وهديه حواجز حسية حصينة ، تمنعه ، وترده عن السقوط والانحراف في الهجاء مرة أخرى بعد توبته وكذلك الاستعارات في قوله : « شفى صدري » ، « وجلا عشا بصري ضوء ظلام » وفي هذا البيت كناية أيضا ، والمجاز المرسل في « الصدر » والمراد به القلب الذي يحل فيه وتحتضنه ضلوعه .

ثم تأمل التعبير بالفعل « أصبحت » مسندا إلى ضمير المتكلم يصور أن التوبة والإنابة إلى الله هي النور والهدى مثل نور الصباح الذي يبدد الخوف والظلام ، ثم صورة التعبير بصيغة المبالغة « فكاك » التي تدل على أن أوزاره كانت كثيرة وثقيلة ، ولازمته كالقلادة ، وليست وزراً واحدا ، وإنما هي « أوزار » كثيرة ، وليست من اللمم ، وإنما هي من الكبائر ، كما تصور ذلك « عظام » بالصيغة وبالدلالة الوضعية في اللغة ، ويؤكد عظمها ما يدل عليه قوله : « وحوضي محلق » أي كثير الذنوب ، وتصور صيغة المفاعلة في قوله « أحاذر » عنف المقاومة في الحذر والإصرار على التوبة بعزيمة صادقة استعدادا ليوم الحساب للفصل بين العباد ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، مما يوحي به قوله « يوم خصام » ويصور قوله « أحاطت خطيئتي ورائي » اتساع الماضي وعمقه ؛ مما يدل على كثرة ذنوبه وخطاياه في الهجاء ، التي كان لها أثر كبير في ضعفه وشيخوخته ، حتى أتت على عمره كله ، كما يدل عليه قوله « دقت للدهور عظامي » أي أصبح عظمه هشا ضعيفا دلالة على كبره وضعفه ؛ لأنه كما ذكر في القصيدة أنه لم يتب إلا بعد السبعين .

تلك هي الصور المستمدة من الحقيقة تؤازرها صور خيالية منها الاستعارة في قوله « فأصبحت أسعى في فكاك قلادة » فصار يخلص نفسه من الأوزار كمن يفك قيده من الأسر ، والكناية في قوله « حوضي محلق » عن كثرة الأوزار والبعد عن الرحمة ، والكناية عن الحساب والجزاء في قوله « يوم الورد يوم خصام » ،

والاستعارة بالكناية في قوله « أحاطت خطيئتي » ، وقوله « ودقت عظامي » وغيرها .

وتأمل أسلوب المدح في قوله « لنعم النحى نحى حمام » لقومه ؛ فهو يعطي صورة أدبية تثني على حمام البائع ، وعلى سلعته « السمن » ؛ فقد كان سببا في صون قومه عن الهجاء القبيح إلى الأبد ، وسببا في توبة الفرزدق إلى الأبد ، وسببا في الانتصار على إبليس بهجر الهجاء المذموم وغيره ، وسببا في قرض الهجاء الحسن والبنّاء ، الذي يحارب الانحراف والشر والقبح والفساد والخبيث ليرسي مكانها القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ، وذلك « بتوبة » عظيمة نصوح ، وهو ما تفيده إضافة النكرة إلى نكرة منونة ، ثم الصورة الأدبية التي يشكلها أسلوب القصر الضمني ، مما يؤكد أن هجاءه المحرم قبل التوبة كان قاسيا لاذعا ، يتغشاه الظلم والظلام ، ولا يتسرب إليه بصيص من نور ، في قوله « وما كان يعطي الناس غير ظلام » ، فهو قصر بـ « ما » والاستثناء بـ « غير » ، ثم ذلك التحسر والاعتراف الأليم بالذنب في قوله « أطلعتك يا إبليس » ، ثم دلالة الصورة الفنية في قوله « سبعين حجة » على أنه بلغ الغاية وأشرف على النهاية مبالغة وإسرافا في الهجاء المذموم ، لأن السبعة هي كمال الأعداد ، فكان الكمال في سبع سموات ، وسبع أراضين ، وسبعة أيام في الأسبوع وغيرها ، فما بالك بمضاعفة السبع عشر مرات إلى سبعين ؟ إنها قمة المبالغة والإسراف في الهجاء القبيح ، وقمة الاعتراف بالخطيئة ، وقمة التحسر والندم على ما فات من عمره في العبث واللهو ، وقمة الإخلاص في التوبة النصوح والإصرار عليها .

وتأمل الصورة الأدبية النابعة من الإطناب ، والإطناب بلاغة يتناسب مع المقام هنا ، وهو مقام مرارة التحسر وشدة الألم وفظاعة الاعتراف بالذنب وذلك في ثلاثة أبيات تصور الشيب ، يكفيه عبارة واحدة لكنها لا تؤدي روعة الصورة الأدبية هنا كما أداها الإطناب في قوله : « فلما انتهى شيبي ـ تم تمامي ـ دنا رأسي التي كنت خائفا ـ أرى فيها لقاء لزام ـ فررت إلى ربي ـ وأيقنت أني ملاق حمامي ـ لأيام المنون ـ حلفت على نفسي لأجتهدنها ـ على حالها ـ من صحة وسقام » وغيرها ، إنه إطناب ما بعده إطناب ؟ يعطي دلالة بليغة ، لا يقوى عليها الإيجاز ولا المساواة ولا الحذف .

ثم تأمل الاقتباس من القرآن الكريم في قوله : « فررت إلى ربي » من قوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم نذير مبين ﴾ الذاريات : آية ٥ ، ثم صورة الندم والتأكيد عليه ، وصدق العزيمة على التوبة في « حلفت على نفسي » فيجرد من شخصه نفسا أخرى يبادلها القسم ، ويخاطبها ، ويجري حواراً معها ، ويشهدها على ذلك ، ثم يشفعها بتأكيد آخر من لون آخر « لأجتهدنها » ثم تأكيد ثالث على التوبة في قوله « صحة وسقام » أي في جميع الأحوال ، وهي لا تخلو من صحة ومرض .

ثم تأمل دلالة الصورة الأدبية على التقرير والاعتراف بالذنب ، وعلى التحسر والندم على ما فات من أسلوب التخصيص والعرض في قوله « طال ما قد بت » ؛ لأن « ألا » تتضمن تأكيد النفي كما وضحنا ذلك في صورة سابقة ولا تعارض بينهما ؛ لأن التحسر والندم فيه معنى النفي ، وكذلك صورة « أبو الجن إبليس » تدل على كمال سيطرة الشيطان على الفرزدق في الماضي ، وتبعيته له كتبعية الإبن للأب في الطاعة ؛ بحيث لا يقوى على مقاومته ، ولا يستطيع أن يفلت من بين يديه .

ثم دلالة التصوير الأدبي في البيت « يظل يمنيني .. » على طبيعة إبليس الملحة في إصرار وعناد ، لا يمل من ذلك في صيد فريسته ، يلازمها في جميع الأحوال حتى الموت ؛ لأنه يجري من ابن آدم كمجرى الدم من العروق كما في الحديث الشريف ، وفي ذلك يتخذ أساليبه من وسائل الإغراء المختلفة كالقسم والتبشير والوعود الخادعة ، وغيرها مما توحي به دلالات الألفاظ والأساليب والصورة في هذا البيت « يبشر أن لن أموت .. » .

وهذه الصور وغيرها مستمدة من الحقيقة وعلم المعاني ، أما الصور الخيالية المستمدة من علم البيان وغيره من أشكال الخيال الكثيرة منها المجاز المرسل في قوله « لنعم النحى نحى حمام » لأن الثناء والمدح للبائع لا لوعاء السمن « النحى » وأيضا في قوله « أناب فؤاده » ؛ فالفؤاد وهو القلب محل التوبة كما قال الرسول ﷺ : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » ، والاستعارة في قوله « ما كان يعطي غير ظلام » وأيضا في قوله « انتهى شيبي » ، والكناية في قوله « تم تمامي » ، وعن الموت في

قوله « ملاق لأيام المنون حمامي » ، والاستعارة في قوله « دنا رأس » ، ثم الكناية عن الهروب من الشيطان واللجوء إلى الرحمن في قوله « فررت إلى ربي » والكناية عن المنية في قوله « أيقنت أني ملاق لأيام المنون حمامي » ، والكناية في قوله « من صحة وسقام » أي في جميع الأحوال ، وكذلك في قوله « يوضع ناقتي أبو الجن إبليس » فهو كناية عن تمكنه في الخداع والعناد والإصرار ، ثم الكناية عن ملازمة إبليس للإنسان في قوله « واركا يكون ورائي مرة وأمامي » .

وانظر إلى قوله « هلا أخيك أخرجت يمينك » فإنه أسلوب للعرض ؛ لكن الشاعر ولد منه صورة أدبية أخرى توحي بالانكار والعجز عن إنقاذ إبليس لفريسته التي يغريها ويخدعها ، ثم تأمل تلك الصورة العجيبة من إبداعات الفرزدق وهي « خضر البحور طوام » التي تحدد أعماق المياه حتى صار لونها أخضر ؛ فإذا ازدادت عمقا كان لونها أزرق ، أما الماء القليل في البحر فلونه شفاف لا لون له ترى سطح الأرض منه ، ويؤكد هذه الدكنة في الخضرة هذه الجموع في « خضر البحور طوام » .

ثم تأمل روعة التصوير بالرمي وهو القذف والضرب والقتل في « رميت به في اليم » ؛ لأنه يعاقبه على استجابته لخداعه وإغرائه ؛ فيقذفه ويقتله في اليم ليبتلعه ويدمره ، وروعة التصوير الأدبي في أسلوبه « طودى يذبل وشمام » فيصور جانبي البحر بعد فلقه كالطود الشامخ من الجبال بالإضافة إلى ما يفيده تشبيه الطريق العميق بين جانبي البحر بالوادي العميق بين جبلي يذبل وشمام ثم الصورة الأدبية النابعة من صيغة المفاعلة في « تلاقي » التي تصور تلاطم الأمواج وعنفها أثناء الغرق ، بل وعظمتها وكثرتها النابع من التنكير والتنوين في « طاميا » ، ثم التصوير الأدبي القائم على الإطناب في « نكوصا ولم تحتل له بمرام » الذي يدل على تخاذله وعدم نصرته لأعوانه ، الذين أضلهم وأعمى أبصارهم ، لأن نكوصا تتضمن معنى الجملة التي بعدها ، ولا تغني أحدهما عن الآخر ؛ فالثانية نفيا ، والأولى تؤكد معناها بالإثبات وعلى ذلك فهما مختلفان وليس أحدهما حشوا ولا زيادة بدون فائدة ، ثم دلالة التصوير بالاستفهام على النفي والإنكار في قوله « ألم تأت أهل الحجر » ، ودلالة صيغة المبالغة على كثرة اللبن في ناقة صالح عليه السلام « اللقوح » ، وتدل صيغة هذا اللفظ نفسه على

عظيم الانتقام لغدرهم في عقرها في « لقوح غرام » ، والصورة الأدبية في صيغة المبالغة « نكوصا » التي تدل على العناد والإصرار والغدر والخيانة ونقض العهد والمقت والتأخر وغيرها ، ثم صورة التعبير بقوله « تبرأت » من برئ بزيادة التاء والتضعيف ، التي تدل على زيادة النكران والغضب عليهم لكفرهم بالنعم التي أسبغها الله تعالى عليهم ، وأنهم يستحقون ما نزل بهم من العذاب والعقاب في الدنيا والآخرة ، ثم دلالة الصور السابقة التي اقتبست من القرآن الكريم في آيات ذكرناها في القيم الخلقية على روعة التصوير الأدبي المتأثر بالتصوير القرآني في إعجازه ، وعلى ما تتضمن من القيم الخلقية ، وعلى إسلامية الفرزدق وتأثره بالقرآن الكريم والسنة الشريفة .

هذه الصور السابقة مستمدة من الحقيقة ومن جاء على شاكلتها حتى نهاية القصيدة على النحو الذي ذكرناه في الأبيات السابقة ، تشد من أزرها في اكتمال الصور الأدبية وزيادة تأثيرها صور خيالية كثيرة منها الاستعارة في قوله « خضر البحور » ، وفي قوله « رميت به في اليم » ، والتشبيه في قوله « كفرقة طودى يذبل وشمام » ، والاستعارة المكنية في قوله « تلاقى الموج طاغيا » ، والكناية عن الخذلان في « نكصت ولم تحتل له بمرام » ، والكناية عن النعيم في قوله « والحجر أهله بأنعم عيش » ، والتشبيه الضمني في قوله « فإنها لقوح غرام » ، والمجاز المرسل في قوله « عقروها .. وتنيخوها » ، والكناية في قوله « خير دار مقام » والكناية عن ستر العورة في قوله « يخيطان الوراق عليهما » ، والكناية عن الأكل المنهي عنه في الجنة في قوله « من أكل شر طعام » ، والتشبيه في « أصبحوا أحاديث » أي كالأحاديث ، والاستعارة في قوله « ظلال غمام » للدلالة على التمتع بالنعيم ، والكناية في قوله « يقتادني بزمام » ، والمجاز المرسل في قوله « جروحا ذات كلام » أي أثر كبير ، والاستعارة بالكناية في قوله « ألبننا لهم بعذاب » وغيرها من الصور الخيالية ، التي كان لها أثر فعال في تشكيل الصورة الكلية وتمامها وقوة تأثيرها واكتمال لوحاتها الفنية .

ومن روافد التصوير الأدبي في القصيدة اختيار البحر الطويل القائم على ثمانية تفاعيل « فعولن مفاعيلن » مكررة أربع مرات ، ليتناسب طوله مع استيعاب الصور الكثيرة المتراكبة ، لتصوير حملة الفرزدق العنيفة على هجاء

إبليس ، ومـا يتلاءم مع طولـه من عنف مشـاعر الكـره الشديد ، وتدفق البـغض العنيف للأبالسة لمقـاومة إصرارهم وعنادهم على إغراء الإنسان ، حـتى يصير من أتباعهم إلا عباد الله المخلصين ، فليس لهم من سلطان عليهم .

لذلك جاءت الـقافيـة تصور هذا العنف لاعـتمادها علـى حرف لين وهو الألف ، مما يطول معه الإيقاع والتنغيم ، الذي انتهى بالروى المكسور ، وهو حرف « الميم » وهو يمتـاز بالتنغيم في إيـقاعـه الصوتي ، ويزيد من عـمق إيقاعـه وطوله حركة الكسر ، التي تزيد امتداده في الإيقاع والتنغيم .

وأما الموسـيقى الداخليـة والخفيـة ، فقد تلاءمت مع التـجربة الشـعرية في القصيدة مع المعاني والأفكار والعاطفة والمشاعر ؛ فلا تخلو عبارة أو صورة أو بيت من تتابع حروف اللين والشدات والتنوين ، واختيار الحروف الثقيلة في النطق وفي إيقاعهـا الصوتي كالهاء والحـاء والطاء والخاء والجيم والميم والفاء والـثاء والقاف والعين والشين والتاء ، وما أشبه ذلك مما يشكل تصويرا صـوتيا ثقيلا وعنيفا ، يمتد فيـه الإيقاع ويطول ؛ ليـتلاءم مع العـاطفة القـوية ، والمشاعـر المتدفقـة ، والأفكار الكثـيرة من ثقل وقع أصـوات الحروف وامـتداد الإيقاع والـنغم الممتـد مع اختـيار الكلمـات والصـور الأدبيـة الـتي توحي بالعنف والقـوة وغـزارة المعـانـي وتنوع الإيحاء .

ومما يزيد الإيقـاع عـمـقـا وطولا وامـتـدادا وتوازنا تآزر بعض المحـسـنات البديعية ، التي جاءت عفو الخاطر ، منها الجناس في قوله « تم تمامي » ، وفي قوله « اللقوح لقـوح غرام » ، والطبـاق في قوله « صحـة وسقـام » ، وفي قوله « وراء وأمام » ، وكذلك التنوع بين الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري كما هو واضح من خلال التصوير الأدبي المستمد من الحقيقة ، وقد وقفنا عنده طويلا فتأمله .

أما عناصر الـتصـوير الأدبي من الحـركـة واللون والصـوت والطعم والرائحـة والحجم والشكل ، فـإنها تقف مـع الروافد السـابقة في تشكيل الصـور الأدبية وتناسق اللوحـات الفنية ، بما يتناسب مع التـجربة الشعـرية ، والغرض من القصـيدة . فالتجـربة في القصيدة ثائرة علـى الشياطين ثورة عنيفـة ، بما تحمل من مشاعر وعواطف حزينة ومؤلمة ، يعتريها الندم والتحسر على تفريط أتباع الشيطان وتقصيرهم ، وارتكاب الخطيئة الشيطانية في الماضي .

لذلك تجد الحركة الثائرة مع كثير من الألفاظ والصور في « هاجتني » و« هاجنا » و« تلاقى » ، والفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار وتجدد الحدث كما في « ترني » وغيرها ، وصيغ المبالغة الكثيرة التي تدل على عنف الحركة وعظمها وكثرتها ، منها ما جاء على صيغة « فعال » أو على صيغة « فعول » وغيرها ، وقد وضحنا ذلك في القيم الفنية ، وكذلك التدافع في الكثرة النابع من صيغ الجمع وهي كثيرة ذكرنا بعضها قبل ذلك وغيرها من الألفاظ والصور والصيغ ومعاني الألفاظ الوضعية التي تدل على الحركة ، مثل الطامي والرمي والسعي وغيرها .

وأما الألوان القاتمة الحزينة فلا يخلو منها بيت ، وهي إما حسية تدرك بالحواس مثل ألوان الفلاة والصحاري والسهول والجبال والوديان والأعشاب والأشجار والحيوان والخيام والأمواج واليم والبحر والسوء والظلام وغيرها ، وإما معنوية خلقية تدرك بالعقل والعاطفة والقلب كالعاطفة الحزينة والمشاعر القاتمة ، مثل ألوان العنف والهياج والأوزار والخطيئة وألوان الأبالسة والشياطين القاتمة السوداء والمخيفة المرعبة ، والخادعة كالسراب وغيرها .

وأما الأصوات فكثيرة تتولد من المعاني الوضعية للألفاظ والصور والحروف مثل صوت الرياح والعواصف والهياج والشتم والكلام والشعر ، ثم أصوات البحر الطامي بأمواجه والعقر والإناخة للناقة وما يصحبها من كركرة وحداء وغير ذلك وأصوات الحروف الثقيلة في النطق والإيقاع كما سبق ، والأصوات النابعة من إيحاءات الوزن العروضي ، والروي والإيقاعات الداخلية في النص من تتابع توقيعاتها وتدفقها بعضها إثر بعض وغيرها .

وأما الطعم والرائحة فلا يخلو منها بيت أو عبارة أو صورة ، وهو إما حسي يتذوق باللسان أو يشم بالأنف ، وإما معنوي أخلاقي يدرك بالعقل والعاطفة والمشاعر والقلب ، أما الحسي فظاهر معروف ، وأما المعنوي تجد المرارة والعلقم في الأوزار والخطيئة والسوء ، وشر الطعام والعقر ، والهجاء والسقم والحمام ، والخداع ، والخيانة ، والغدر ، والتبرأ ، وتشم من هذه كلها الروائح الخبيثة المنتنة ، فتفوح بالقبيح والخبث والكراهية والبغض وغيرها .

وأما شكل هجاء الشياطين فهو شكل محكم ينبغي أن توصد أمامها كل

الأبواب والنوافذ في حصار شديد ، بحيث لا يتمكن من التسلل مهما بلغ من الخبث والخداع والمكر والعناد والإصرار ، حتى لا يتمكن من النفس فتحبس أنفاسه في مجاري الدم ، وتضيق عليه مجاريه ومساريه ، لذلك كان الفرزدق بعد توبته أشد من الشياطين عنادا وإصرارا في مقاومتها ؛ فلم يعد إلى الهجاء القبيح بل رد كيد الشيطان بعرض صور من خيانته ، ولوحات من غدره وضلاله في ماضيه الأسود والسيء مع السابقين ، وصور من الواقع الحي الذي يعيشه الشاعر من المقاومة العنيفة ، وهجائه الشديد العميق في هذه القصيدة ؛ فيشكل لها إطارا قويا ومحكما ، أغلق دون الأبالسة كل الأبواب والنوافذ ، وذلك في بناء خلقي ينشد فيه القيم السامية والأخلاق الفاضلة ؛ لينشدها من بعدها الشادون ، ويطبق قيمها اللاحقون ؛ ليغلقوا أمام الشياطين كل الأبواب والنوافذ ، كما فعل الفرزدق مع الأبالسة .

وأما حجم هجاء إبليس يقوم على موازين هذه القيم في عرف الأخلاق والمبادئ الإنسانية فتسمو إلى القدر العظيم والشأن السامي ، بما يتضمن من أسلحة فتاكة تفتك فتكا شديدا بالشياطين وأتباعهم على وجه الأرض ، وفي جميع العصور ؛ لذلك كان هجاء الفرزدق لإبليس ثقيلا عنيفا عليه ، وعلى أعوانه ووقعه شديدا ، أشد عليهم من الشهب التي تنزل على من يسترق السمع من الجن كما ورد في القرآن الكريم ، إنه حجم ثقيل عنيف أشد من الصواعق والشهب لأنها تتوجه من إنسان ينتقم لنفسه ولماضيه المخدوع من الشياطين الذين انكشف غدرهم منذ الخليقة وفي كل الصور والأحوال .

المعجم الشعري في القصيدة : أقام الهجاء في القصيدة معجما شعريا يستمد مصطلحاته من حقل الصراع مع الأبالسة وعنادهم وإصرارهم ، ثم الانتصار بالسلوك الحميد في قيمه الخلقية وأخلاقه الإسلامية ؛ فقد تلاحمت هذه المصطلحات في تصوير السلوك بقيمه الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات التي نستمدها من هذه المادة اللغوية التي تكونت منها : « عاهدت ربي - القيام والركوع وهي الصلاة - لا أشتم مسلما - سوء كلام - دروء من الإسلام - ذات حوام - نكاك قلادة - رهينة أوزار - أحاذر أن أدعي - يوم الورد - يوم خصام - أحاطت خطيئتي - شفى الرحمن صدري - بتوبة عبد - قد أناب فؤاده - غير ظلام

ـ أطعـتك يا إبليس ـ انتـهى شيبي ـ وتم تمامي ـ فـررت إلى ربي ـ وأيقنت أنني مـلاق ـ لأيام المنون حمـامي ـ دنا رأس ـ كنت خـائفا ـ لقـاء لزام ـ حلفت على نفسي ـ لأجتهـدنها ـ من صـحة وسقـام ـ أبو الجن إبليس ـ بغيـر خطام ـ يظل يمنيني ـ واركا ـ ورائي مـرة وأمامي ـ يبشرني أن لن أموت ـ سيخلدني ـ في جنة وسـلام ـ هلا أخرجت يمينك ـ رميت به في اليم ـ نكصت ـ لم تحتل له بمرام ـ أهل الحجر ـ بأنعم عيش ـ بيوت رخام ـ اعقروا ـ هذي اللقوح ـ تنيخوها ـ لقوح غرام ـ تبرأت منهم ـ وكنت نكوصا ـ كل ذمام ـ وآدم قد أخـرجته وزوجته ـ خير دار مقام ـ وأقسمت يا إبليس ـ أنك ناصح ـ له ولهـا ـ إقسام غير أثام ـ يخيطان الوراق ـ أكل شـر طعام ـ من قـرون أطاعوك ـ أصبحـوا أحاديث ـ ومـا أنت يا إبليس أبتغي رضاه ـ لا يقتادني بزمام ـ سـأجزيك من سوءات ـ ما كنت سقتني ـ جروحا فـيك ـ ذات كلام ـ تعيرها في النار ـ والنار تلتقي ـ بشـر قوم ـ وضرام ـ وإن إبليس وإبليس ـ بعـذاب الناس ـ تفلا فيّ ـ فـمويهـما ـ على النابـح ـ أشد رجام » وغيـرها مما يقيم معجمـا شعريا ، يشخص معـالم الهجاء لإبليس ، الذي استحق اللعنة مع أتباعه في جهنم وبئس القرار .

ويدخل في هذا المعجم مـا مر ذكره من الايات المقتبسـة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفـة باللفظ أو بالمعنى ، وعلى النحو ذكرت في القـيم الخلقية في القصيـدة ثم القصص القرآني للرسل السابقين مع أقـوامهم مثل قصـة موسى عليه السلام مع فرعـون ، وقصة صالح عليـه السلام مع ثمود أهل الحجـر ، وقصة آدم عليه السـلام وزوجته حـواء مع الشيطان وإخـراجه من الجنة ، ثم قصص الأنبـياء والرسل في القرون الغابرة ، قال تعـالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ۝ وإن كل لما جميعٌ لدينا محضرون ﴾ يس : ٣١ ، ٣٢ وقوله تعـالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قـرونا آخرين ۝ ما تسبق من أمـة أجلها وما يستـأخرون ۝ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جـاء أمة رسولها كـذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحـاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ المؤمنون : ٤٢ - ٤٤ وقـصة أبونا آدم عليـه السـلام وأم البشـر حواء مع الشـيطان في خلقـه وفي الجنة وعلى الأرض مـعـه ، ومع أولاده قـابيل وهابيل ، وغـيـرها مما توحي به الألفـاظ والصور والأساليب .

وهكذا فـهـذا المعـجـم الشـعـري في هجـاء إبليس يشكـل نمطاً له ، في تشخيص حي يكشف عن طبيعة الشـر والحقد والكره والبغض للإنسان على وجه الأرض ، وكذلـك العناد في الإغراء ، والإصـرار على الفتنة والخـداع والنكوص والتبرأ وغيـرها من المعالم الشيطانية ، التي استحق عليهـا الطرد من رحمة الله عز وجل واللعنة مع أتباعه في الحيـاة الدنيا ، ثم الخلود في نار جهنم وبئس القرار يوم الدين ، قال تعـالى : ﴿ إذ قال ربك للمـلائكة إني خالق بشـرا من طين ۝ فإذا سـويته ونفـخت فيـه من روحي فـقعـوا له ساجـدين ۝ فـسـجـد الملائكة كلهم أجمعـون ۝ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ إلى قـوله تعالى : ﴿ قال فـاخرج منهـا فـإنك رجيـم ۝ وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ۝ قـال رب فانظرني إلى يوم يبعـثـون ۝ قال فإنك من المنظرين ۝ إلى يوم الوقت المعلـوم ۝ قال فـبعـزتك لأغوينهم أجـمعين ۝ إلا عـبادك منهم المخلـصين ۝ قال فالحق والحق أقـول ۝ لأملأن جهنم منك وممن تـبعك منهم أجمـعـين ﴾ سورة ص : ٧١ - ٨٨ .

* * *

الشكوى

يقول الراعي النميري [(١)] في شكوى يرفعها إلى الخليفة عبد الملك بن مروان :

أَبْلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً ... تشكو إليك مضلَّةً وعَويلا
أَخَليفَةَ الرحمن إنا معشرٌ ... حنفاءُ نَسْجُدُ بُكْرةً وأصيلا
عَرَبٌ نرى لله في أموالنا ... حَقَّ الزّكاة منزَّلاً تنْزيلا
إنَّ السُّعَاة عَصَوْك يوم أمرتهم ... وأتَوْا دواهيَ لو علمتَ وغُولا
أخذُوا العريف فقطَّعُوا حَيْزومه ... بالأصْبَحيَّة قائماً مَغْلولا
حتى إذا لم تتركوا لعظامه ... لحماً ولا لفؤاده معقولا
جاءُوا بصكِّهمُ وأَحْدَبَ أسْأَرَتْ ... منه السِّياطُ يراعَةً إجْفيلا
أخذوا حُمولتَهُ وأصبح قاعداً ... لا يَسْتَطيعُ عن الدِّيار حَويلا
يَدْعُو أميرَ المُؤْمنينَ ودونَهُ ... خَرْقٌ تَجرُّ به الرِّياحُ ذُيولا
كَهُدَاهِد كَسَرَ الرُّماةُ جَنَاحَه ... يَدْعو بقَارِعَة الطريق هَديلا
أَخَليفَةَ الرحْمن إنَّ عَشيرَتي ... أمْسى سَوامُهُمُ عِزِينَ فُلُولا
قومٌ على الإسْلامِ لَمَّا يَمْنَعوا ... مَا عُونَهم ، ويُضَيِّعُوا التَّهْليلا
قَطَعُوا اليَمامَةَ يُطْرَدون كأنَّهم ... قَوْمٌ أصابُوا ظالمين قَتِيلا
يحذُون حُذْباً مائلاً أشرافُها ... في كلِّ مَقْرَبَة يَدَعْنَ رعيلا
شَهْرَيْ رَبيعِ ما تذوق لَبُونُهم ... إلاَّ حُمُوضاً وَخْمَةً وذَبيلا
وأتاهُمُ يَحْيى فَشَدَّ عَلَيْهِمُ ... عَقْداً يراه المسلمونَ ثَقيلا
كُتُباً تَرَكْنَ غنيَّهم ذا عَيْلَة ... بَعْدَ الغنَى وفَقيرَهُم مَهْزُولا
إنَّ الذين أمَرْتُهم أن يَعْدلوا ... لَمْ يفعلوا ممَّا أمَرْتَ فَتيلا
أنت الخليفة عَدْلُه ونوالُه ... وإذا أردتَ لظالم تنْكيلا

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن غير بن خرشة الثقفي النميري ، ويلقب بالراعي من شعراء العصر الأموي ، عاش حتى عام (٩٠هـ - ٧٠٨م) ، ولد ونشأ ومات في الطائف وإن تنقل بينها وبين اليمن ودمشق حتى لجأ إلى الخليفة عبد الملك بن مروان مستجيرا من الحجاج الثقفي لأنه شبب بأخته زينب في شعره ، ويغلب على شعره الغزل ، ولم يستطع أن يصمد أمام جرير في مناقضاته وجمع بعض شعره في ديوان صغير . الأعلام : الزركلي ٦/٢٢٠ .

فـــادْفَعْ مَظَالِمَ عَيَّلَتْ أبـاءَنـا عنـا وَأنْقِذْ شِلْوَنـا المأكـــولا
نَرَى عَطِيــةَ ذاكَ إن أعْطَيْتــهُ مِنْ رَبِّنَا فَضْلاً وَمِنْكَ جــزيلا (١)

أصداء الخطاب عند المتلقي

هذه القصيدة في غرض من الأغراض الشعرية في الأدب الإسلامي للعصر الأموي وهو « الشكوى » ، التي ضج بها الشعراء من الفساد والظلم ، وما يعانيه المجتمع من المشاكل والأزمات والمظالم ، والإجحاف والقهر والتعذيب والتسلط وغير ذلك مما لا تخلو منه الحياة في الصراع بين الخير والشر ما دام الإنسان على وجه الأرض ، له حاجاته ومقتضياته ، وما دام هناك حاكما ومحكوما ، وراعيا ورعية .

لكن « الشكوى » في العصور الإسلامية اتخذت مضمونا وشكلا آخرين لتحقيق غاية شريفة ، تستمد أصولها وقيمها من الشريعة الإسلامية ، وتنبع روافدها من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، لقد كانت الشكوى في العصر الجاهلي من عزل القبيلة لبعض أفرادها ؛ لخروجهم على عاداتها وتقاليدها وأعرافها ، وإن لم تتضمن قيما إنسانية نبيلة ، وهدفا ساميا مما تضطر القبيلة أن تعلن خلعها وتطلق عليه « الخليع » ، مما أدى إلى ظاهرة الصعلكة والصعاليك في ثورة عنيفة على القبيلة انتقاما وإنصافا لحقوقهم .

وقد تكون « الشكوى » عتابا واعتذاراً ؛ ليصير غرضا جديدا في العصر الجاهلي وهو « الاعتذار » والعتاب ، نشأ على يد النابغة الذبياني ، بعد أن أهدر دمه النعمان بن المنذر لسماعه للوشاة والحاقدين عليه ، ثم تنوعت أشكاله في

---

(١) مضلة : ظلما وضلالا . عويلا : استغاثة من الظلم . حنفاء : مسلمين . دواهي : مصائب . غولا : خوفا ورعبا . العريف : رئيس القبيلة . حيزومه : وسطه . الأصبحية : السوط . مغلولا : مظلوما . الصك : سجل الصدقات . أحدب : عريف . أسأرت : تركت . يراعة إجفيلا : هما بمعنى واحد وهو الجبان . حويلا : محوّلا . الخرق : الصحراء . السام : العشب . عزين فلولا : هما بمعنى التمزق الذي يؤدي إلى الضعف . الماعون : ما يوضع فيه الزكاة ، وهي المراد . التهليل : الصلاة . أشراف الحدب : أسنمة الإبل . مقربة : طريق وسط الجبل . رعيلا : قطيعا من البقر والغنم . اللبون : الناقة الحلوب . ذبيلا : يابسا . يحيى : جابي الخراج . ذا عيلة : صاحب عيال محتاج . مهزولا : ضعيفا . فتيلا : خيط رفيع ممتد في بطون النواة . عيلت : أضعفت . تنكيلا : تعذيبا . شلونا : عضونا . انظر جمهرة أشعار العرب للقرشي ، وديوان الراعي النميري .

العصور الإسلامية كالعتاب والتوبة والشكوى والاستغاثة والاستعطاف وغيرها كما تغير مضمونه ؛ فأصبح يستمد أصوله من القيم السامية ، والأخلاق الإسلامية وتطورت أساليبه وصوره الأدبية ومصطلحاته في الألفاظ والأساليب ، متأثرا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة ، في نظمه وبلاغته ؛ ليسير على نهجه في الأسلوب والتعبير والتصوير القرآني بالتبعية أو الاقتباس أو التضمين ؛ ليظل الأدب الإسلامي خالدا في ظلال القرآن الكريم ، تابعا له في سموه بقيمه الخلقية والفنية .

فأما القيم الخلقية في خطاب القصيدة : فقد اشتملت قصيدة الراعي النميري على الشكوى من ظلم الولاة والسعاة وعمال الخراج والعاملين على الزكاة وعسفهم بالرعية ، والتنكيل بهم ، مما أدى إلى انتشار الفقر والحاجة والضعف والهزال في الجسد ، فيرفع الراعي إلى عبد الملك بن مروان الخليفة شكوى مرّة بلسان قومه بني نمير ، لينصفهم من هؤلاء وهؤلاء ، أو يغدق عليهم من الخير يعوضهم عما انتزعوه منهم بغير وجه حق ، ومن هذه القيم الخلقية :

١ ـ طاعة الحاكم وعدم الخروج عليه والعصيان له ، لكي يستتب الأمن ويتفرغ لرعاية الأمة وتحقيق مصالحها ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ النساء : ٥٩ ، كما ترفع المظالم إليه ، والشكوى من الجور والأذى والتعسف بلا تمرد أو عصيان ، لكي يحكم بما أمر الله ورسوله ، ويقيم حدود الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ۝ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ النساء : ١٣ ، ١٤ ، وهذه القيم الإسلامية اتخذها الراعي في تصويره الأدبي حين لجأ بالشكوى إلى الخليفة عبد الملك بن مروان لمظالم الولاة والسعاة بدون عصيان أو تمرد ، وبلا تدمير أو سفك دماء ، وبلا قتل أو إرهاب ، قال الراعي :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة   تشكو إليك مضلة وعويلا

٢ ـ أن يلتزم الحاكم بأوامر الله عز وجل ، وأن يكون رحيما بأمته ، يقضي مصالحها ، ويقوم بالقسط بين الأغنياء والفقراء ، والضعفاء والأقوياء ، والمظلومين والمنكوبين ، لأن صفة الرحمن مشتقة من صفات الله الجليلة من « الرحمن الرحيم » ، وتلك قيم إسلامية لا بد أن يتخلق بها الحاكم ، قال الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

٣ ـ كما يجب أن تتخلق الرعية أيضا بأخلاق الإسلام ، وأن يطبقوا تعاليمه السمحة ، ومبادئه التشريعية ، حتى يكونوا أهلا للرعاية ، ويستحقوا الإنصاف من الحاكم ، إذا جأروا بالشكوى إليه ، لرد مظالمهم ، قال الله تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ النحل : ٩٧ ، وقال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور .. ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ الحج : ٣٨ - ٤١ ؛ لذلك صور الراعي هذه القيم السامية والتشريع الإسلامي البناء والصالح لكل زمان ومكان ، صورها في قومه من بني نمير ؛ فهم يسلكون الحنيفية السمحة ، ويطيعون الله ورسوله بكرة وأصيلا فقال :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى الله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

٤ ـ من القيم الإسلامية في القصيدة النصيحة لله لرسوله وللمؤمنين ابتغاء مرضاة الله عز وجل ؛ لفضح الظلم وأهله ، وكشف ألوان الفساد والضلال عند الولاة والمسئولين ، وإعلاء كلمة الحق في ذلك للحاكم والراعي كما قال الله عز وجل : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ آل عمران : ١٠٤ ، وكما يقول الرسول الكريم أفضل كلمة : قوله حق عند سلطان جائر ، والشاعر الراعي يرفع إلى الحكام والخليفة عبد الملك بن مروان عصيان السعاة والولاة لله عز وجل في قوله :

إن السعاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العريف وقطعوا حيزومه بالأصبحية قائما مغلولا
حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

جاءوا بصكهم وأحدب أسارت | منه السياط براعة إجفيلا
أخذوا حمولته وأصبح قاعداً | لا يستطيع عن الديار حويلا
يدعو أمير المؤمنين ودونه | خرق تجر به الرياح ذيولا
كهداهد كسر الرماة جناحه | يدعو بقارعة الطريق هديلا
أخليفة الرحمن إن عشيرتي | أمسى سوامهم عزين فلولا

٥ ـ التزم بنو نمير قوم الشاعر بتعاليم الإسلام ؛ فأقاموا الفروض والأركان وأخرجوا زكاة أموالهم ، وأقاموا الصلاة مهللين مكبرين في مواقيتها ، قال الراعي :

قوم على الإسلام لما يمنعوا | ما عونهم ، ويضيعوا التهليلا

٦ ـ بنو نمير قوم الشاعر ، الذين أطاعوا الله ورسوله والحاكم تفرقوا في اليمامة شيعاً من قسوة ظلم السعاة ، وصاروا يطاردونهم كأنهم ظالمون أو قتلة ويتبعونهم على إبل قوية بين الشعاب والوديان والجبال مشتتين بين الديار ، لا يستقرون على حال ، مما أدى إلى ضعفهم وهلاكهم ، وهذا ظلم ، وتلك قسوة لا يرضى عنها الإسلام ، قال الراعي :

قطعوا اليمامة يُطردون كأنهم | قوم أصابوا ظالمين قتيلا
يحدون حدبا مائلا أشرافها | في كل مقربة يدعن رعيلا

٧ ـ بلغ بهم التشريد والمطاردة حداً بالغا ، حتى هزلت إبلهم ومواشيهم لأنها لا تجد في الربيع وقت المرعى الخصيب إلا اليابس منها في المواطن النائية الجافة والبعيدة عن المراعي الخضراء ؛ لذلك فلم تقتصر القسوة والظلم على الإنسان فحسب ، بل تعدت إلى الحيوان والطعام ، وفيها أيضا قسوة على الإنسان لاعتماده على الحيوان في طعامه وشرابه ومسكنه ، وهذا ظلم لا يرضاه الله عز وجل ولا رسوله ﷺ ، قال الراعي :

شهري ربيع ما تذوق لبونهم | إلا حموضا وخمة وذبيلا

٨ ـ يصور الراعي الوالي يحيى وهو يحمّل الرعية مواثيق وعقوداً لا يطيقونها ، ولا يقدرون على أدائها مصداقا لقوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ البقرة : ٢٨٦ ، وقوله تعالى :

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما أتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما أتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ الطلاق : ٧ ، حتى أصبح الغني منهم محتاجا ، والفقير ضعيفا مهزولا ، وهذا لا يرضي الله عز وجل ، ولا يقبله الحاكم العادل بين الرعية ، قال الراعي :

وأتاهم يحيى فشد عليهم ... عقداً يراه المسلمون ثقيلا
كتبا تركن غنيهم ذا عيلة ... بعد الغنى وفقيرهم مهزولا

٩ ـ يصور الراعي للخليفة أن الولاة الذين اخترتهم ليسوا أهلا للمسئولية وحمل أمانة الحكم والرعية ، وأنهم بذلك خرجوا على طاعته ، ونظام حكومته من العدل بين الرعية ؛ فهم يستحقون العزل والعقاب منه ، لكي تقيم مكانهم ولاة أتقياء قادرين على تحمل المسئولية أمام الله عز وجل وأمامك وأمام الرعية جميعا قال الراعي :

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
أنت الخليفة عدله ونواله ... وإذا أردت لظالم تنكيلا

١٠ ـ يطالب الراعي الخليفة بدفع الظلم عن البلاد ؛ لأنه هو المسئول الأول أمام الرعية وعند الله عز وجل ؛ لينقذ الرعية من ظلم الولاة الجائرين ، ويقيل عثرتهم ، ويرد على الفقراء حقوقهم ، وينصف الضعفاء والمرضى والمصابين ؛ فإن فعلت هذا كان من فضل الله عليك ، حيث وضعك في موقع يعود على الرعية بالخير والرفاهية ، فتكون كما قال الرسول ﷺ : « خير الناس أنفعهم للناس » ولأنك من خير الناس فقد اختارك لتقضي حوائج الناس ، وإلا نزع الله منك هذا الفضل كما ورد في أحاديث كثيرة . بذلك تنال الأجر العظيم كما قال رسول الله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ... » ومصداقا لقول الله عز وجل : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ آل عمران : ٢٦ ، قال الراعي :

فادفع مظالم عيّلت أبناءنا ... عنا وانقذ شلونا المأكولا
فنرى عطية ذاك إن أعطيته ... من ربنا فضلا ومنك جزيلا

القيم الفنية في خطاب القصيدة : هذه القيم الخلقية السامية لم يعرضها الراعي بالطريقة التي يعرضها المفكر أو الفقيه أو العالم السياسي أو الاجتماعي أو الفيلسوف في علم النفس والأخلاق ، فهؤلاء جميعا يعرضونها عرضا علميا منطقيا تجريبيا منظما ، يقوم على الترتيب والتحديد ، والاستدلال والتعليل ، والحجة والبرهان ، وإقامة المقاييس الفقهية والعلمية والمنطقية والفلسفية والرياضية والتجريبية ، وهذا يختلف عما يعرضه الشاعر الراعي ؛ فهو يعرضها في أسلوب أدبي مثير ، وصور فنية مؤثرة ، وتصوير أدبي يهز العواطف والمشاعر ، ويثري الخواطر ، لا يعتمد على العقل والفكر وحده ، وإنما تشترك معه العاطفة والمشاعر والوجدان والخيال في تشكيل تجربة شعورية ، لا تجربة علمية .

لذلك لم يأت اللفظ محدد المعنى ، بل كانت الألفاظ والأساليب والصور بشاعريتها توحي بمعان كثيرة ، وبمشاعر فياضة ، وبعواطف إنسانية سامية وبوجدان صادق عامر بالإيمان والإخلاص ، فالتعبير بأمير المؤمنين يعبر عن صورة أدبية ثرية بالمعاني والمشاعر والقيم ؛ فهو الحاكم العادل المسئول عن الرعية وليست أية رعية ، وإنما عن المؤمنين ، الذين يلتزمون ـ وعلى رأسهم أميرهم ـ بتنفيذ شريعة القرآن ، وقوله : « رسالة » ليست كأية رسالة ، وإنما هي رسالة جديرة بالاهتمام والرعاية والتقدير ، وهو ما يفيده التنكير والتنوين من التعظيم والاهتمام ؛ فهي رسالة مستمدة من رسالة محمد ﷺ إلى أمته ، فقد تحولت هذه الرسالة الشفوية المجردة إلى شخص يشكو ويئن من وقع الظلم ، ليرفع شكواه إلى الحاكم أمير المؤمنين في معروض يقدمه بيديه ، ليقرر فيه المظالم مشيعا بالصراخ والاستغاثة والنجدة من الولاة والسعاة ، في صورة أدبية رائعة تقوم على التشخيص القوي الحي .

ثم يأتي الاستفهام الموضوع للإجابة على سؤال ؛ ليعطي صورة أدبية أخرى غير ذلك ، تدل على تقرير يعبر عن التزام قوم الراعي وعشيرته بشريعة الإسلام أمراً ونهياً في حماية دولة الخليفة ، الكثير الرحمة بالرعية ، وهو ما يفيده صفة الرحمن من المعاني الغزيرة والعواطف الرحيمة ، فهو أهل لأداء المسئولية عن ربه الرحمن الرحيم .

ثم ذلك الإيقاع الذي يثير كوامن النفس ، ويوقظ المشاعر ، وهو الطباق

بين « بكرة وأصيلا » ، وإن كانت دلالته أوسع بكثير من الوقتين : الصباح الباكر وقبيل الغروب ، وهما معناهما في وضع اللغة ؛ بل يتحول التعبير الوضعي إلى صورة أدبية تشمل النهار كله ، بل حياة الإنسان وعمره ، بل الدهر .

وفي التعبير بكلمة « عرب » تؤدي صورة أدبية ، تصور أن قومه وهم عرب ، قد فضلهم الله على الأجناس ، فقد خصهم بأعظم شريعة ، وأفضل كتاب منزل بلغتهم اللغة العربية التي خلدها القرآن الكريم ، فصارت لغتهم شريعة وعبادة إلى الأبد ، وفي التعبير بقوله « نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا » صورة أدبية رائعة غنية بالمشاعر والعواطف والقيم التصويرية ، فإخراج زكاة الأموال ابتغاء مرضاته ، وتأمل الصورة في قوله « لله في أموالنا حق الزكاة » تدل على أن الزكاة حق الله للفقير ، وليس تفضلا من الغني على الفقير ؛ لأنها محددة بالتنزيل والقرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأن ما عداها فهو ملك صاحبه خاص به ، كما تفيد الإضافة إلى الضمير « نا » ، وإن كانت هذه الخصوصية مقيدة بدلالات أنهم « عرب » ملتزمون بشريعة الإسلام في أموالهم ؛ فهي مسخرة في طاعة الله عز وجل ، لا بالتقتير ولا بالإسراف ، ولكن بالإنفاق على صاحب المال وعلى أهله وعلى المسلمين بما يعود عليهم بالنفع .

وتأمل قوله « إن السعاة عصوك » تجد صورة أدبية تجعل ظلم السعاة شائعا يرد كل إنكار ، وبالتأكيد فيه يرد على كل دعوى باطلة لإنكاره ، وبين « العصيان والأمر » طباق جميل يثير الانتباه بإيقاعه وتنويعه بالتقابل بين معنيين ، والتعبير بالداهية وجمعها على « دواهي » تصور الظلم الفادح وعموم البلوى ، يؤازرها استعارة خيالية جسمت الدواهي المجردة إلى جريمة قائمة واقعة يؤتى إليها ، فهي مرئية رأي العين ، لا يستطيع أحد أن ينكرها .

وفي البيت « أخذوا العريف .. » كناية عن شدة العذاب والتنكيل بالسياط حتى أصبح مصلوبا مغلولا لا حول له ولا قوة ، وفي البيتين « حتى إذا لم يتركوا .. جاءوا بصكهم .. » كناية عن القسوة والجبروت في التعذيب ، حتى صار المعذب عظما بلا لحم ، فاقد الوعي والعقل معا ؛ ليوقع على العقود الظالمة فيزداد شقاء على شقائه ، وبلاء على بلائه على يد عريف جبار وجبان لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلبه ، وفي التصوير بقوله « أخذوا حمولته .. » يدل على أنهم

جردوه من كل شيء من متاعه وطعامه وملبسه ودابته التي تحمله وتغذيه ، وتدفعه إلى العمل ؛ فأصبح خائرا عاجزا مقيدا لا يستطيع انتقالا ولا تحويلا ، وفي البيت « يدعو أمير المؤمنين .. » يصور استغاثة الضعيف في جنبات الصحراء المطرود فيها حتى لا يسمعه أحد من حوله ، ولا تصل دعواه إلى أمير المؤمنين لكي ينقذه من قسوتهم والهلاك ، وتؤازرها صورة أخرى وهي استعارة مكنية في قوله « تجر به الرياح ذيولا » تصور عبث الرياح في الفلاة ، وصورة خيالية وهي تصوير الصحراء بخرق يختفي فيه المطرود من دياره ، وهو يتمزق ألما وضعفا كالشأن في الخرق الممزق ، وتؤازرها استعارة أخرى حتى صار المطرود كالهداهد المكسورة الأجنحة لكثرة ما وقع عليها من سهام السعاة حتى تحول الهديل إلى بكاء .

وانظر إلى المجاز المرسل في قوله « ما عونهم » والمراد الزكاة وعلاقته المحلية ؛ لأن الماعون محل الزكاة ، وإلى المجاز المرسل في التهليل ، لأن جزء من الصلاة حيث يلتقي فيها مع التكبير والتسبيح وقراءة القرآن الكريم ، وإلى الاستعارة في قوله « قطعوا اليمامة » إنهم لقوتهم وجبروتهم وكثرة عدتهم وخيلهم وإبلهم يقطعون الصحاري والسهول بسرعة خاطفة كما تقطع السكين الشيء بسرعة ، وتؤازرها صورة أخرى ، وهي التشبيه في قوله « كأنهم قوم .. ».

وفي البيت « يحدون حدبا .. » صورة أدبية تدل على أن القساة لا يملون من الظلم والقسوة في أبعاد الزمان ، الذي يتجدد ويتكرر من زمن الفعل المضارع وأبعاد المكان الذي يركب فيه السعاة إبلا قوية لها أسنام كبيرة عالية ، يقطعون بها الفيافي والجبال الوديان وفي كل مكان ، والصورة الأدبية في الاستعارة : « ما تذوق لبونهم إلا حموضا » يؤازرها أسلوب القصر يؤكدها مما يؤكد ظلمهم والغاية في الضعف والهزال حتى لا تسقى لبنا ، ولا تجد إلا العشب الجاف ؛ فلا يسمن ولا يغني من جوع ، والاستعارة في قوله « فشد عليهم عقودا » ، وفي قوله « يراه المسلمون ثقيلا » تجسيم للعقود الثقيلة كأنها جبل محمول يئن منه الغنى حتى أصبح فقيرا ويئن منه الفقير حتى صار ضعيفا مريضا ، ثم يمنح هذا التجسيم إيقاعا مثيرا في الطباق بين الغنى وذا عيلة ، وبين الغنى والفقير ، مما يشكل اتساقا وانسجما بين أجزاء الصورة فتزداد جمالا وتأثيرا .

وهكذا إلى نهاية القصيدة تتزاحم الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة ومن

الخيال ، ومن الإيقاعات الموسيقية في المحسنات البديعية وفي البحر العروضي والقافية واختيار الكلمات المناسبة للمعاني والألفاظ والأساليب التي تتلاءم مع عاطفة الشكوى ومشاعر القسوة والجبروت .

وكذلك عناصر التصوير الأدبي من الحركة واللون والصوت وغيرها ، فلا نجد صورة ولا عبارة ولا بيتا إلا وقد تلاءمت فيها عناصر الصورة مع روافدها ومنابعها ، لتبني صورا فنية متكاملة الجوانب والأنماط ، وتشكل لوحات فنية غنية بمدادها وألوانها وأركانها وعناصرها المتنوعة ، تنبض بالحيوية والقوة والتجدد والاستمرار لا كاللوحة المرسومة ، ولا كالمادة المنحوتة ، حيث لا تسري فيها الحيوية المتجددة مع الزمان والمكان ، بل تقتصر على لحظة واحدة من الزمن ، ومقطع واحد من المكان أثناء التصوير أو الرسم أو النحت .

إنها روعة التصوير الأدبي بالكلمة والعبارة والصورة والإيقاع والموسيقى وغيرها من الروافد والعناصر النابعة من الحقيقة ومن الخيال ومن الواقع ومن الدقة والعمق في التصوير .

وأما المعجم الشعري لفن الشكوى فتجد حشدا كبيرا من الألفاظ والأساليب والصور والاقتباسات من القرآن الكريم والسنة والشريفة ، تتآزر جميعا في تكوين أنماط بشرية تجمع بين القساة والمنكوبين ، وبين الظالمين والمظلومين وبين الراعي والرعية ، وبين الحاكم والمحكوم ، ليتكون من هذه كلها معجما شعريا في الشكوى تستطيع في سهولة أن تستخرجه من القصيدة على نحو ما استخرجناه في أغراض أخرى في النصوص السابقة .

وهذا التلاحم بين الروافد والعناصر المتنوعة في التصوير الأدبي للقيم الخلقية والفنية كانت كلها تدور حول الغرض وهو « الشكوى » في التلاؤم بين المعاني والأفكار والعاطفة والألفاظ والصور والموسيقى والإيقاع لتحقيق الشكوى والغرض من القصيدة ، مما يحقق الوحدة الموضوعية ، فقد تناول الراعي الموضوع من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت .

كما تحققت الوحدة الفنية حين تلاءمت الأفكار المترابطة والعاطفة والمشاعر والخيال مع الألفاظ والأساليب والصور والموسيقى والإيقاع والاقتباس من القرآن

الكريم والسنة الشريفة ، ومع عناصر التصوير من الحركة والصوت واللون والطعم والرائحة والحجم والشكل ، جاء ذلك في بناء فني محكم ومتلاحم ليشكل من الشكوى صورة كلية لها ، تلاءمت فيها اللوحات الفنية المتنوعة تجمع بين لوحة الحاكم والخليفة ، ولوحة الوالي والسعاة ، ولوحة الرعية والمظلومين ، لتصور البعد الزماني المحدد لعصر الخليفة عبد الملك بن مروان ، والبعد المكاني في دمشق العاصمة وفي الطائف الولاية ، وفي الصحراء المنفى والسجن ، ليصور الأدب الإسلامي قطعة من الحياة في هذا العصر ، وينقلها نقلا حيا وأمينا في صورة شعرية من الشعر الإسلامي في العصر الأموي .

* * *

النثر الأدبي « الفني »

قضية وجود النثر الأدبي قسيم الشعر بعد الإسلام ؛ ينبغي ألا تكون مجالا للمناقشة ؛ فلا يستطيع أحد أن ينكر تفوق القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه على فنون العرب ، الذين اشتهروا بين أجناس الأرض بالفصاحة والبلاغة فيها إلى حدّ الإعجاز في القرآن الكريم ، فقد قام على التحدي والمعارضة للعرب ؛ فعجزوا عن الإتيان بشعر بليغ على مثاله ، أو بنثر أدبي عال يناظره ؛ فعجزوا عن ذلك شعرا ونثرا ، وكان ذلك إقراراً بوجودهما معا ، وتأكيداً بأنهما كانا معا في قمة البلاغة والنضج الفني عندهم قبل نزول القرآن الكريم ، سواء أكان نثرا أدبيا كالخطب والوصايا والأمثال وغيرها ، أو كان قصيداً كالشعر العمودي المشهور بينهم ؛ وإلا لانتفى الإعجاز القائم على التحدي والمعارضة .

لأن التاريخ قد سجل على سبيل التوثيق والتحقيق ، بالتواتر لا بالآحاد قد سجل عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور ، أو بسورة ، أو بآية ، وهذا دليل عقلي يرد مجرد الشك في هذه القضية ، أما الأدلة النصية من القرآن الكريم فهي كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ، وفي الحديث الشريف : « القرآن الكريم حبل الله المتين .. لا يخلق على الرد ، ولا تبلى عجائبه .. » ، وتسليم أهل المعارضة بإعجازه ، فقال الوليد بن المغيرة : « إنه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمعذق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه » ، وغيرها .

وقد وقفنا على فنون النثر الأدبي في أدب الصحابة ﷺ كالخطبة والرسالة والوصية وغيرها ، ثم تنوعت فنونه في العصر الأموي كالوصية والخطبة والرسالة والمقامة والمناظرة وغيرها ، مما كان امتداداً للنثر الفني في صدر الإسلام ، يستمد مصادره من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأدب الصحابة ﷺ ، لكن هذه الأنواع منها ما هو مبتكر كالمناظرة والمقامة ، ومنها ما اتخذ شكلا جديدا كالرسالة وغيرها ، ومنها أنواع ظلت كما هي كالخطبة والوصية ، ثم اتسعت مجالاته وأهدافه ؛ فقد وجهتها الأحزاب السياسية المتنوعة للدفاع عن مبادئها وأهدافها من

شيعة وخوارج وزبيريين وأمويين وغيرهم ، ثم تلاقت عوامل كثيرة على ازدهاره من أهمها : أن النثر الفني في هذا العصر كان أكثر تأثرا بالقرآن والسنة عنه في صدر الإسلام لقصر المدة هنا ، ولانصراف الصحابة ﷺ لنشر الإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى ، والاشتغال بحفظ القرآن الكريم والسنة الشريفة ؛ لذلك كان التابعين ﷺ أكثر استفادة وتأثرا في أدبهم ، وأسرع من أسلافهم ، ولتنافس أدباء كل حزب للتفوق على الأحزاب الأخرى ببراعة فنهم الأدبي ، ثم انصراف الرأي العام عن أمر الخلافة والملك إلى الاهتمام بالأدب شعرا ونثرا وقصصا ، وتأثر النثر الفني بالثقافات الوافدة على العربية ، ونشأة دواوين الكتابة والرسالة حتى أصبحت الكتابة حرفة ووظيفة ووزارة ، وغيرها من عوامل ازدهار النثر الفني ومن أهم أنواعه :

الخطابة

ازدهرت الخطابة في العصر الأموي ، واكتملت عناصرها الفنية ، وتعددت موضوعاتها ، وتنوعت مصادرها من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأدب الصحابة ﷺ ، وتمت عناصرها الفنية ، فاعتمدت على مقدمة تقوم على التحميد والثناء على الله عز وجل ، والصلاة على رسوله ﷺ ، وعلى موضوع يقتنع به المتلقي عن طريق وسائل التأثير الفنية ، ثم الخاتمة لتحديد الغاية منها ، فإن تجردت الخطبة عن ذكر الله والثناء عليه سميت بـ « البتراء » كخطبة زياد بن أبيه ، وإن لم تتحل بالقرآن الكريم والحديث الشريف والحكمة والمثل سميت بـ « الشوهاء » كما ذكر ذلك قدامة بن جعفر في كتابه « نقد النثر » .

واعتمدت الخطبة على ركنين أساسيين هما : الاقناع والتأثير ، وقد وضح ذلك بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة ، فقال : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ؛ فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني .. » وهكذا حتى نهاية الصحيفة مما ذكرته في كتابي : « صحيفة بشر ابن المعتمر وأثرها في النقد الأدبي » ، وقد تأثر بها قدامة بن جعفر في كتابه « نقد النثر » ؛ فقال : « يجب أن يكون الخطيب عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له .. » إلخ قوله ، وغيره من النقاد كابن سلام والجاحظ وسواهم .

ويرجع ازدهار الخطابة إلى عوامل كثيرة من أهمها : أنها صارت من أهم الفنون النثرية في أساليب الدعوة الإسلامية ، وأنها قد تلاءمت مع نضج العقل بعد أن أصبح خصبا وثريا بشريعة الإسلام ، ثم غدت سلاحا فعالا تدافع بها الأحزاب عن مبادئها وأهدافها ، بعد أن كثرت الخلافات والنزاع حول الحكم والخلافة في عهد بني أمية ، ومن أشهر الخطباء الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وأخوه مصعب ، ومعاوية بن أبي سفيان ﷺ ، والحسن البصري وعبد الله بن الأهتم ، والأحنف بن قيس ، وقطري بن الفجاءة ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن عبد الملك ، والمهلب بن أبي صفرة وقتيبة بن مسلم ، وخالد بن عبد الله القسري ، وسحبان بن وائل ، وخالد بن صفوان ، وزياد بن أبيه ، والحجاج الثقفي ، وصالح بن مسرح ، وأبو حمزة الشازي في خطبة مرت بالتحليل والنقد والدراسة ، وطارق بن زياد في خطبته الآتية :

خطبة طارق بن زياد في فتح الاندلس

قال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه (١) :

« أيها الناس ، أين المفرُّ ؟ البحر من ورائكم ، والعدوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام في مآدبِ اللِّئام ، وقد استقبلكم عدُّوكم بجيشه ، وأسلحتُه وأقواتُه مَوْفُورة ، وأنتم لاَ وَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقواتَ إلا ما تستخلصُونه من أيدي عَدُوكم ، وإن امتدَّت بِكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكُم وتعوَّضَت القلوبُ من رُعْبها منكم الجُرْأَةَ عليكم ، فادفعوا عن انفسكم خذْلاَنَ هذه العاقبَة من أمركم ، بمُناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينتُه الحَصينة وإنَّ انتهاز الفرصة فيه لممكن ، وإن سَمَحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذِّركم

---

(١) بعد أن أتم الله عز وجل الفتح الإسلامي في عهد الوليد بن عبد الملك لشمال أفريقيا وبلاد المغرب على يد موسى بن نصير ، بعث مولاه طارق بن زياد على جيش من البربر والعرب عام (٩٢هـ) لفتح الأندلس ، ومواجهة لذريق ملك القوط ، فعبر البحر وأحرق السفن حتى يقطع كل أمل في العودة ، ليتحقق النصر فحمد الله وأثنى عليه وحثهم على الجهاد والنصر ، وذكر هذه الخطبة .

أمرا أنا عنه بنَجْوة ، ولا حملتكم على خطة أرخَصُ متاعٍ فيها النفوس ، أربْأ فيها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبَرتم على الأشقِّ قليلا ، استمتعتم بالأرفهِ الألذِّ طويلا ، فلا ترْغبوا بأنفسكم عن نفسي فيما حظكم فيه أوفر من حظي .

وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الحُور الحسَان ، من بنات اليُونان الرَّافلات في الدُّرِّ والمَرْجَانِ ، وَالحُلَل المنسوجة بالعقْيَانِ ، المَقصُرَاتِ في قصور الملوك ذوي التِّيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزْبانا ، ورَضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختَانا ، ثقةً منه بارتياحكم للطِّعان وإسماحكم بمجالدة الأبطال والفُرْسان ، ليكون حَظُّه منكم ثواب الله على إعلاءِ كَلمَته ، وَإظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكونَ مَغْنَمُها خالصاً لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وَلِيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين .

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند مُلْتَقى الجَمْعين حاملٌ بنفسي على طاغيةُ القوم لُذَريق ، فقاتله إن شاء الله ، فاحلموا معي ، فإن هلكْتُ بعده ، فقد كُفيتم أمرَه ، ولن يُعْوزَكم بَطَلٌ عاقل تُسْندُون أموركم إليه ، وإن هلكْت قبل وصولي إليه ، فاخلفُوني في عزيمتي هذه ، واحْملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا المُهِمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخْذَلون » [١] .

خطبة للحسن البصري

هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصْري ، ولد بالمدينة المنورة عام (٢١هـ) ، كان والده يسار مولي لأنصاري أعتقه جاء من ميسان بجوار البصرة ثم نزح مع أسرته إلى البصرة في عهد علي ﵁ واستقر فيها ، وهو من كبار التابعين والعباد الزاهدين وإمام في العلم والتقوى ، وشيخ واصل بن عطاء . توفي عام (١١٠هـ) رحمه الله تعالى ، يقول في خطبة له بعد الثناء على الله تعالى [٢] :

---

(١) وزر : ملجأ . بنجوة : بمنأى . ربأ : اعتز . الرفلات : المتبخرات . المخدرات : المختفيات . الصهر والختن : زوج البنت أو زوج الأخت . انظر : وفيات الأعيان ١٣٥/ ٢ ، ونفح الطيب ١/١١٢ .

(٢) البيان والتبيين : الجاحظ ص ٧٠ جـ ٣ .

« يا بن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، مؤمن مُهْتَمّ ، وعِلج اعتمّ ، وأعرابي لا فقْه له ، ومنافق مكَذِّب ودنياوي مُتْرَف ، نَعق بهم ناعق فاتبعوه ، فَراشُ نار ، وذبابُ طمَع ، والذي نفسُ الحسن بيده ، ما أصبح في هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا في عافية مستورون ، فإذا نزل بَلاَء صاروا إلى حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أيْ قوم : نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم ، فسارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحة دون الجنة ، ولا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبَة من همّه » .

* * *

المناظرات

مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شَوْذَبُ الخارجيّ - واسمهُ بِسْطام من بني يشكر - فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولستَ أوْلَى بذلك مني فهَلُمَّ إليّ أنَاظرْك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بسطام إلى عمر : قد أنصفتَ ، وقد بعثتُ إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولي لبني شَيبان حَبَشياً اسمهُ عاصم ، ورجلا من بني يشكر ، فقدما على عمر بخُنَاصِرَة ، فأخْبِر بمكانهما ، فقال : فتِّشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما فلما دخلا قالا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر : أخبراني ما الذي أخرجكم مُخْرَجَكم هذا ؟ وما نقمتم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرّى العدل والإحسان ، فأخبرْنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس ومَشورة ، أم ابتززتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ، وعَهد إليّ رجلٌ كان قبلي ، فقمت ولم ينكره عليّ أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم تَرَون الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس فاتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت الحق ورغبت عنهُ فلا طاعة لي عليكم فقال : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتَناه فنحن منك وأنت منا ، وإن منعتناه فلستَ منا ولسنا منك ، فقال عمر : وما هو ؟ قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال ، فالعَنهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يُفَرق فتكلم عمر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مَخرجكم هذا لطلب دنيا ومَتاعها ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعَّانا ، وقال إبراهيم : « فمَنْ تَبِعَني فَإنَّهُ مِنّي وَمَنْ عَصَاني فَإنَّكَ غَفُورٌ رَحيمٌ » وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ أولـئكَ الَّذينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدهْ ﴾ ، وقد سميت أعمالهم ظلماً ، وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضةٌ فأخبرني متى لعنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لعنته

قال : أفَيَسَعُك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرّهم ، ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون ؟ قال : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال : لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان ، فكانَ من أقرَّ به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حَدَثاً أقيم عليه الحد ، فقال الخارجي : إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فابرأ ممن خالف عملك ، وردَّ أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليسَا من أسلافكما وممن تتوليان ، وتشهدان لهما بالنجاة ؟ قالا : اللهم نعم . قال : فهل علمتما أن أبا بكر حين قُبض رسول الله ﷺ فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسَبَى الذراريّ ؟ قالا : نعم ، قال : فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر ، فردَّ تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟ قالا نعم ، قال : فهل برئ عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قالا : لا ، قال : فأخبراني عن أهل النَّهْرَوان أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قالا : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفُّوا أيديهم فلم يسفكوا دماً ، ولم يُخيفوا آمناً ، ولم يأخذوا مالا ؟ قالا : نعم . قال : فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مِسْعَر بن فُدَيْك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خَبَّاب بن الأرَتّ صاحب رسول الله ﷺ ، فقتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صبَّحوا حيًّا من أحياء العرب فاستعرضوهم ، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون الصبيان في قدور الأقط وهي تفوز ؟ قالا : قد كان ذلك . قال : فهل برئ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالا : لا . قال : فهل تَبرءون أنتم من إحدى الطائفتين ؟ قالا : لا . قال : أرأيتم الدين واحداً أم اثنين ؟ قال : بل واحداً . قال : فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني ؟ قال : لا . قال : فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى بعضهم بعضاً وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني فيما زعمتم إلا لعنُ أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَيْحكم ! إنكم قوم جهال ، أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تردُّون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ ، ويأمن

عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمِن عنده . قالا : ما نحن كذلك . قال عمر : بل سوف تُقرون بذلك الآن . هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بُعث إلى الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حقَن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمته وكانت له أُسْوَة المسلمين ؟ قالا : نعم . قال : أفلستم أنتم تلقَوْن من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فتستحلون دمهُ وماله وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرِّمون دمه ؟ فقال اليشكري : أرأيت رجلا ولِيَ قوماً وأموالهم فعدل فيها ، ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذي يلزمه لله عزَّ وجلَّ ؟ أو تراه قد سلم / قال عمر : لا . قال : أفتسلّم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاه غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي . قال : أفترى ذلك مِنْ صُنع مَنْ ولاّه حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظِرَاني ثلاثاً ، فخرجا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق فقال عمر لليشكُري : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسنَ ما وَصفت ، ولَكن لا أفتات على المسلمين بأمر ، أعرِض عليهم ما قلت وأعلمُ حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالعطاء ، فتُوفِّيَ بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكني أمر يزيد وَخُصِمت فيه ، فاستغفر الله ، فخاف بنو أمية أن يخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضعوا على عمر من سقاه سمًّا ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات » (١) .

القيم الخلقية في مناظرة عمر بن العزيز للخوارج :

المناسبة في المناظرة : حين تولى خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد وفاة سليمان بن عبد الملك عام (٩٩هـ) ، استتب الأمن وهدأت الأحزاب المناوئة لبني أمية من شيعة وخوارج وغيرهما ، إلا أنه قد بلغهُ سنة مائة أن « بسطام » من بني يشكر ، الملقب بـ « شَوْذَب » الخارجي ، قد خرج على خلافته ، وتنكر لحكمه ، واستقر في الجزيرة مدعيا : أن خروجه لله ورسوله

---

(١) العقد الفريد ١/ ٢١٦ ، وتاريخ الطبري ٨/ ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزي ٧٧ .

فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز - وكان عالما فذا تقيا ورعا زاهداً - أن يحضر ليناظره في أمر خروجه على الدولة قائلا : بلغني أنك خرجت لله ولرسوله ولستَ أولى بذلك مني ؛ فهلم إليّ أناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا ، دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك ؛ فكتب « بسطام » إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولي لبني شيبان حبشيا اسمه « عاصم » ، ورجلا من بني يشكر ، فقدما على « عمر » بخناصرة ؛ فأخبر بمكانهما ؛ فقال : فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما ؛ فلما دخلا ، قال : السلام عليك ، ثم جلسا للمناظرة .. وتضمنت **قيما سامية وأخلاقا إسلامية من أهمها :**

١ - على حاكم الأمة وراعيها أن يعمل على استتباب الأمن العام في رعيته ، وأن يكون على بصيرة بالخارجين عليها ، فيقضي على أسباب الخروج بشتى الوسائل ، فيقدم الأيسر فاليسير ؛ لذلك لما علم عمر بن عبد العزيز بخروج « بسطام » أرسل إليه الرسالة السابقة ، ليناظره في أمر الخروج ، حتى يقتنع المتناظران ، ويتفقان على أمر واحد ، وعلى طاعة الحاكم ، لا الخروج عليه حرصا على وحدة الصف في الأمة .

٢ - الغاية من المناظرة انتصار الحق ، والرجوع إليه بالدليل المقنع ابتغاء مرضاة الله عز وجل ؛ فقال عمر بن العزيز في رسالته إلى بسطام : « بلغني أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ، ولست أولى بذلك مني ؛ فهلم إلي أناظرك ؛ فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك فكتب « بسطام » إلى عمر : قد أنصفت » .

٣ - الإسلام يسوي بين الناس ، لا فرق بين عبد ومولي وسيد وحر فالجميع سواسية ، لا يتميز أحدهما على الآخر ، لا بالجنس ، ولا بالحرية ، ولا بالسلطان ، وغيرها ، وإنما يرجع التمييز إلى التقوى والعلم ، لذلك أرسل « بسطام » مولي حبشيا من بني يشكر يسمى « عاصم » ، ومعه رجل من بني « يشكر » ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ الحجرات : ١٣ .

٤ ـ أخذ الحذر واجب حرصا على النفس والمال والعرض ، قال تعالى : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ البقرة : ١٩٥ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾ النساء : ٧١ ، ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ النساء : ١٠٢ ، ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون (٦٧) ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ يوسف : ٦٧ ، ٦٨ ، فقد كان الخليفة حذراً حين أمر الحراس أن يفتشوهما قبل الدخول ؛ فقال : « فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخلوهما » .

٥ ـ إفشاء السلام بين المسلمين ؛ فهي تحية الإسلام ، ودليل الأمن وشعار الأمان والسلام ، وهي عهد وميثاق عند اللقاء وعند الانصراف ، ألا يخون أحدهما الآخر ، لأن القادم ألقى السلام ، والمتلقي بادله بتحية مثلها أو أحسن منها قال تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا ﴾ النساء : ٨٦ .

٦ ـ اتسم حكم الخليفة عمر بن عبد العزيز بالإحسان بين الرعية ، والعدل بين الناس ، ورفع المظالم عنهم ، ومر ذلك في الحوار الذي دار بينه وبين ابنه عبد الملك بعد دفن الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك ، فقد رد المظالم قبل أن يقيل ، ويظهر ذلك في قول الخوارج عليه على لسان عاصم يصف الخليفة ابن عبد العزيز : « ما نقمنا سيرتك إنك تتحرى العدل والإحسان » .

٧ ـ الشورى تشريع أخلاقي ، وقيمة إسلامية سامية ، يطبقها المسلمون فيما بينهم ، وفي اختيار من يتحمل المسئولية ويحكمهم ، فلا يتولى المسئولية إلا من يرضون عنه حكما وراعيا ، لا بالغصب ، ولا بالقوة ، ولا بالابتزاز ، ولا بطلب الولاية ، ولا بالقتال والحرب ، ولا بولاية العهد ، إلا إذا لم ينكرها عليه أحد من الرعية ، ويرضى عنها الجميع ، ليقوم الرضى مقام الشورى ، قال تعالى :

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ الشورى : ٣٨ ، والأحاديث كثيرة حين استشار الرسول أصحابه في الخروج إلى جبل أحد ، والخروج إلى قتال قريش في غزوة بدر الكبرى ، وكذلك في حفر الخندق حول المدينة في غزوة الخندق وغيرها من الأحاديث الشريفة ، قال عاصم : « فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة ؟ أم ابتززتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها وعهد إلى رجل كان قبلي ؛ فقمت بذلك ، ولم ينكره علي أحد ، ولم يكرهه غيركم ، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف .. » .

٨ - أنصف الخليفة في حكمه على الخارجين عليه ، حين وصف خروجهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، ولم يكن لمتعة في الحياة الدنيا ، وهذا حق أقره لهم ، ولكنهم أخطأوا طريقه في الخروج عليه ؛ فلم يريدوا الآخرة ؛ فشقوا عصا الطاعة على الحاكم ، وأولي الأمر ، وخرجوا على الجماعة ، وهو مخالف للشريعة حيث أمرت بطاعة أولي الأمر ما لم يعصوا الله عز وجل ، وهذا هو ما أنكره عليهم قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ النساء : ٥٩ .

٩ - لا يجوز أن يلعن المسلم أخاه المسلم ، لأنه نطق بالشهادتين ، وهذه تعصمه من اللعنة ومن هدر دمه ؛ لأن لعن العاصي وأهل الذنب ليس فرضا وإنما يوجه بالنصح وإنكار المعصية ، وبالإقلاع عنها ، والتوبة النصوح ، قال تعالى : ﴿ ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ إبراهيم : ٣٦ ، وفي الحديث الشريف حين أقبل النبي ﷺ على خباب بن الأرت ؛ ومعه نفر مسندي ظهورهم إلى مسجده فقال : « ما أجلسكم ؟ قالوا جلسنا ننتظر الصلاة ، فأزم قليلا ثم قال ما تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن ربكم يقول : من أدى الصلاة لوقتها وحافظ عليها ، ولم يضيعها ؛ فله علي عهد أن أدخله الجنة ، ومن لم يؤد الصلاة لوقتها ، ولم يحافظ عليها ؛ فليس له علي عهد إن شئت عذبته وإن شئت غفرت له » .

١٠ - سوق الأدلة الكثيرة التي تؤكد أن المسلم لا يلعن ، وفي هذا ما يدل على أن الإقناع بشتى الأدلة خلق إسلامي سام ؛ فالشريعة الإسلامية لا تتعارض مع العقل ؛ بل تقدره وتحثه على التدبر ؛ لذلك تنوعت الأدلة على إنكار اللعن مثل موقف الخوارج من فرعون ، وموقفهم من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وموقفهم من أهل النهروان والكوفة والبصرة وغيرها كما هو واضح من المناظرة .

١١ - وضح الخليفة للخوارج أنهم ليسوا على حق في خروجهم ، بل هو خروج باطل وعصيان ، لأنه قام على التناقض ، الذي لا يقبله الإسلام ، فقد أحل الخارجي دم المسلم الذي ينطق بالشهادتين وهتكوا حرمته ودمه وماله ، بينما اليهود والنصارى وسائر الأديان الأخرى آمنون عندهم لا ينتهكون حرمتهم ولا دماءهم ولا أموالهم ، وهذا دليل على بطلان خروجهم على طاعة الإمام وأولي الأمر ممن رضي عنهم الجماعة ، وذلك في قول عمر بن عبد العزيز : « فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ ، ويأمن عندكم من خاف عنده .. » إلى قوله « وتلقون من ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتحرمون دمه » .

١٢ - الاعتراف بالحق من القيم الإسلامية التي حث عليها الإسلام ؛ لذلك نجد عاصما واليشكري بعد المناظرة يعترفان بالحق عن يقين واقتناع ، وأن عصيان الخوارج وخروجهم على الأمة منكر وباطل ؛ لذلك قال عاصم : أشهد أنك على حق ، وقال اليشكري : ما أحسن ما وصفت ... إلخ .

١٣ - من القيم الإسلامية أن يؤلف الحاكم بين قلوب الخارجين عليه بالمناقشة والحوار حتى الإقناع ؛ فإذا اقتنعوا ، يجري عليهم العطايا والرواتب لسد حاجتهم ، وتأليف قلوبهم ، فيكونوا مثلا يقتدى لأمثالهم من الخارجين فيخلعون عصيانهم حرصا على وحدة الأمة .

١٤ - من القيم الإسلامية قول الحق ولو كان مرآ ، وذلك حين أعلن عمر ابن عبد العزيز رأيه بصراحة في عدم أهلية يزيد للخلافة من بعده ؛ فقال : أهلكني أمر يزيد وخصمت فيه فاستغفر الله ؛ لذلك دسوا السم له فمات بعده بثلاثة أيام .

القيم الفنية في المناظرة : يقوم الأسلوب والتصوير الأدبي في المناظرة على الحوار بين المتناظرين ، الذي يضفي عليه الحيوية والحركة والرشاقة والخفة ، كما اتسم الأسلوب هنا بالرقة والعذوبة والسلاسة والوضوح ، والتنوع بين الإنشاء والخبر ، مما يبعث على الإثارة ، ويقظة الذهن ، وتحريك العاطفة ومتابعة الفكرة ، كما يتميز بخفة الحروف ، وانتقاء الكلمات ، وقصر الجمل ، مما يعين على سرعة فهمها ، ومتابعة ما بعدها في إقبال ويسر وسهولة .

اتسمت المناظرة بأسلوب أدبي يستمد صوره الأدبية من الحقيقة أكثر من اعتماده على الصور المستمدة من الخيال ، وليس معنى ذلك أن هذا الصنيع يسقط من القيم الفنية ويهبط بقدرها ومكانتها ، بل على العكس فإن ذلك يعلي من شأنها ويرفع من منزلتها لملائمة النص مع المقام ، وهي قمة البلاغة ؛ فقد أجمع علماء البلاغة على أنها هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وكما قالوا : لكل مقام مقال ؛ فالمقام هنا ومقتضى الحال يرجع إلى طبيعة المناظرة ؛ فهي تعتمد كما قلنا على الصور الأدبية المستمدة من الحقيقة أكثر من الاعتماد على الصور المستمدة من الخيال ، كما أن البلاغة تعلي من مكانة الأسلوب المستمد صوره من الحقيقة إذا كانت أقوى تأثيرا وتغني عن صور الخيال ، وهذا الصنيع أولى وأبلغ وأقوى تأثيرا من الأسلوب الذي يستمد صوره من الخيال ، إلا إذا كانت الطريقة الأولى لا تنهض به ، عند ذلك يكون اعتماد الأسلوب على صور الخيال أولى وأبلغ وأقوى تأثيرا ، لأن لكل مقام مقال ، وعلى ذلك فقد بلغ القرآن الكريم قمة البلاغة والإعجاز مع شيوع الصور القرآنية المستمدة من الحقيقة وغلبتها على الصور القرآنية المستمدة من الخيال ، وهذا يدل على أن البلاغة في الأسلوب والتصوير تعتمد على أن « لكل مقام مقال » ، وعلى مراعاة « مقتضى الحال » في تصوير أدبي لا في أسلوب علمي .

تأمل الصورة الأدبية المستمدة من الاستفهام في « أخبراني ما الذي أخرجكم مخرجكم هذا » ؛ فالاستفهام هنا ليس لطلب الإجابة على السؤال فحسب ، وإنما يولد صورة أدبية ، تدل على إنكار خروجهم على الدولة وعصيان أولي الأمر بغير حق ، كما أن اسم الإشارة هنا يعطي صورة أدبية أخرى تؤازر الأولى ، فتدل على التحقير والتهوين من شأن الخروج على جماعة المسلمين

والدليل على الصورتين السابقتين أن المتلقي ترك الإجابة على سؤال الاستفهام وأجاب عما توحيه دلالة الصورتين ، وهو إثبات أن إجماع الأمة على حق في خلافة عمر بن عبد العزيز ، لأن الخوارج ومنهم المتناظران أقروا وأثنوا على سياسته ؛ لأنه يتحرى العدل والإحسان ، لذلك لم ينقموا سيرته ، قال عاصم : « ما نقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان » .

وكذلك التصوير بالاستفهام في قول عاصم : « أعن رضا من الناس .. أم ابتززتم أمرهم » فهي صورة أدبية لا تنكر أمر الخلافة ، وإنما تنكر أنها قامت على رضى وبلا مشورة ؛ بل قامت على الابتزاز والغلبة والقوة ، لذلك نجد الإجابة في صورة أدبية تنقض هذا الانكار ، وتنفي الإلحاح في طلب الولاية ، لا نفي الولاية وتنفي القهر والجبروت في تحقيقها ؛ فلا هذا ولا ذاك ، وإنما كانت بولاية العهد التي لم تنكرها الجماعة ، فكانت بمثابة الاجماع وأخذ المشورة ، بدليل أن الخوارج رأوا في سياسة عمر العدل والإحسان والإنصاف .

وتجد من ألوان الخيال الكناية في قوله : « فنحن منك وأنت منا » ؛ فهي كناية عن الطاعة ، والكناية عن الخروج والمعصية في قوله : « فلست منا ولسنا منك » ، والكناية عن المخالفة في قوله « سلكت غير سبيلهم » ، والاستعارة في قوله « خالفت أعمال » ، كما تجد المقابلة والطباق في قوله « فنحن منك وأنت منا » ، « فلست منا ولسنا منك » ، « إنك على هدى ـ وهم على ضلال » « يجمع ويفرق » ، وتلك صور إيقاعية تثير بموسيقاها الانتباه ، وتوقظ الوجدان وتحرك المشاعر والعاطفة ، وتؤكد المعاني ، ليزداد المتلقي تأثرا واقتناعا .

وتصور الكناية أن خروجهم ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، لا طمعا في متاع الحياة الدنيا الذاهب في قوله : « أني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ولكنكم أردتم الآخرة » ، ثم تأمل تسليط النفي على تعلق البعثة المحمدية باللعنة في صورة أدبية تدل على تحريم اللعان للمسلم مطلقا حيث تسلط النفي على البعثة متعلقا بالنكرة « لعانا » ، لإفادة الإطلاق والعموم ، ثم تحلية الأسلوب وتخصيبه وتعميقه وشفافيته الروحية بالاقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ فمن اتبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

ثم تأمل الاستفهام في قوله : « فأخبرني متى لعنت فرعون » فليس طلب الإجابة على السؤال ؛ لكنها صورة أدبية تدل على التقريع والتوبيخ والتأنيب والسخرية ، ثم المقابلة بين : « أفيسعك ألا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم » و« ولا يسعني أن لا ألعن أهل بيتي وهم مصلون صائمون » ، ثم صورة الاستفهام في المقابلة ، التي تصور عنف الإنكار ومرارته الشديدة .

وانظر الكناية في قوله : « ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء » ، تصور الوقوع في المعاصي والانغماس فيها ، حتى ألفوها ، وأصبحوا لا ينكرونها ، وصورة الاستفهام التي تدل على التقرير في قوله : « أليس من أسلافكما وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة ؟ » ، ثم المجاز في قوله « فارتدت العرب » ، وفي قوله « فسفك الدماء » وكذلك الاستفهام التقريري : « أليسوا من صالحي أسلافكم وممن تشهدون لهم بالنجاة » ، ثم المقابلات بين قوله : « فهل تعلمون أن أهل الكوفة .. » إلى قوله : « وهي تفور » ، وفي « يأمن عندكم من يخاف عنده » ، و« ويخاف عندكم من أمن عنده » ، ثم الكنايات في « حقن دمه » كناية عن حرمة القتل ، و« أحرز ماله » كناية عن حرمة المال ، وهكذا إلى نهاية اللوحات التصويرية في المناظرة من الصور الاستفهامية التي خرجت عن معناها الوضعي في اللغة إلى صورة أدبية أخرى لها دلالاتها التي نبعت من السياق ، ومن مواقعها في نسق الكلام ، وكذلك ألوان المحسنات البديعية ، التي تشكل صورا إيقاعية وموسيقية يهتزلها الوجدان وتتفتح أمامها منافذ الإدراك المختلفة .

ومن خلال التحليل الفني السابق للمناظرة التي غلبت عليها الاهتمام بالفكرة والحقيقة والاستدلال عليهما ، إلا أن العاطفة والخيال كانت تؤازر الصور المستمدة من الحقيقة وعلم المعاني من حين إلى آخر ؛ لتمثل هذه الصور الخيالية أدلة أخرى محسة تتفتح لها جوانب الإدراك المختلفة في النفس ، لتدعم الأدلة العقلية والفكرية ، وتؤكد مقاييسها في صورها الأدبية الكثيرة ، التي كانت أشد ظهورا في أداء دورها الفاعل والمؤثر في نفس المتلقي والمتناظر ، حتى انتهى الأمر به إلى الاقتناع التام ، والتسليم الكامل لمعطيات المناظرة الأدبية ، ليكون عمر ابن عبد العزيز ﷺ خامس الخلفاء الراشدين ، وفارس الحلبة ، لما أوتي من العلم

والحكمة والبلاغة والقدرة على الإقناع بالوسائل الفنية للتأثير القوي الفاعل ، ومن الأدلة التي أعانت على الإقناع في المناظرة :

١ ـ شيوع عدل الخليفة وإحسانه ، واعتراف المتناظرين من الخوارج وإقرارهما بذلك ، فكان دليلا مقنعا وقويا على خطأ الخوارج في عصيانهم للخليفة ، والخروج على طاعة ولي الأمر ، الذي لم تنكر ولايته جماعة المسلمين .

٢ ـ عدم إنكار الرعية لولاية عمر بن عبد العزيز للعهد بعد خلافة سليمان بن عبد الملك ورضاهم بخلافته وعدم إنكارها ، ولم يعرف عنه بأنه طلبها ، وعف عن الإلحاح عليها ، كل هذا يتفق مع مبدأ الشورى الإسلامي فكان ذلك دليلا قويا ومقنعا ، ينقض رأي الخوارج بأن خلافة عمر كانت قهرا وبالقوة ، ولم تقم على مبدأ الشورى ، ولكن الأمر على خلاف رأيهم هذا بالدليل السابق القاطع ، فقد نقض هذه الدعوى الباطلة .

٣ ـ استدلالات عمر بن عبد العزيز الكثيرة ، بصورها المتنوعة من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وموقف الخوارج من فرعون ، وموقفهم من أهل البصرة والكوفة ، التي تدعم رأيه في تحريم لعن المسلم ، كانت كلها دافعة تضطر المتلقي إلى الاقناع يقينا ، والتسليم بها إقراراً واعترافا بالحق الساطع ، فهذه الصور المحكمة لم تترك ثغرة واحدة ينفذ منها الخوارج إلى الجدل أو الإنكار .

٤ ـ التمييز بين الفرائض والسنة ، وبين العمل بها ؛ فالإقرار بها لا ينفي عنهم صفة الإسلام ، وعدم العمل بها مع إقرارهم بها ، لا يكفرهم ؛ بل يعد ذلك إسرافا وشقوة وعصيانا ، يعذب عليها ولا ينفي عنه نعمة الإسلام وما أعظمها من نعمة ! تميز وتفصل بين المسلم والمسيحي واليهودي والزنديق والبوذي يوم القيامة ، كالفرق بين النور والظلام ؛ فكان ذلك رداً مقنعا على سؤال الخارجي بتكفير العاصي والفاسق ، فاضطر إلى التسليم اقتناعا وإيمانا وتصديقا ، ولم يبق في نفسه للإنكار بقية بعد هذه الإجابة المقنعة المؤيدة بالأدلة القوية .

٥ ـ أما سؤال الخارجي وطلبه من عمر أن يبرأ من حكام بني أمية السابقين لعصيانهم ، لأنهم خالفوا سياسته في العدل والإحسان ، فقد رد عليهم أيضا بصور مقنعة بالدليل العقلي والحسي ينقض سؤالهم ، ويرد دعواهم ، منها عدم

تبرأ الخوارج من فعل السابقين ، مثل رد عمر لسبايا أبي بكر ﷺ في حرب الردة ، ولم يتبرأ عمر من فعل أبي بكر ، ولم تبرأ الخوارج من فعل الاثنين معا ، ومنها عدم إنكار نعل أهل البصرة في انتهاك الدماء والأموال إثما وظلما ، ولم يتبرأ منهم أهل الكوفة ، ولا الخوارج من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وهكذا نجد عمر ينقض ما ينكره الخارجي من تبرأ عمر بن عبد العزيز ممن سبقوه بهذه الأدلة الدامغة من خلال صور يقينية متعددة وقعت من الخوارج أنفسهم ، لا تقبل النقض أو الجدل أو المناقشة .

٦ ـ أما دعوى الخارجي بأن الفاسق والعاصي الذي يشهد بالشهادتين مهدور الدم والمال ؛ فهي دعوة منقوضة ومردودة بفعل الخوارج أنفسهم ؛ فهم لم يهتكوا دم النصارى وأموالهم ولا اليهود ولا غيرهم من عبدة الأوثان ، وهم كفار وغير مسلمين ، وكان الصحيح عكس ذلك ، لأنّ العاصي مسلم ، وليس كافرا مثلهم وهو دليل يرد عليهم من فعلهم ردا قويا لا يقبل النقض مطلقا .

٧ ـ إقناع الخوارج بأن تولية يزيد بن عبد الملك من بعده ليس من فعله وإنما قد ولاه غيره ، وأمره متروك للمسلمين من بعده ، فهو من أقوى الأدلة ، حتى اضطر الخارجيان إلى التسليم والاقتناع فأعلنا طاعتهما للخليفة والانقياد لحكمه وسياسته عن إيمان وتصديق ، وغير ذلك من الأدلة الدامغة ، التي جاءت من خلال الصور الأدبية ، والأساليب الفنية في هذه المناظرة ، وغيرها من المناظرات التي ظهرت في العصر الأموي نظرا للصراعات بين الأحزاب السياسية ، مثل مناظرات عبد الله بن عباس مع معاوية بن أبي سفيان ، وهي كثيرة ومشهورة ، ومناظرة عبد الله بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ قبل أن يتعرض للمعركة الأخيرة بينه وبين الحجاج الثقفي الذي حاصره في بيت الله الحرام ، وغيرها من المناظرات المشهورة في العصر الأموي .

* * *

مقامات الزهاد

المقام : اسم مكان للقيام ، ثم أطلقت على ما يقال في مكان القيام من العبر والعظات ، واحدها : مقامة (اسم مرة) ، يعبر عنها الزاهد في نص أدبي يقال في الجلسة التي تجمع بين القائل وهو الزاهد ، والمتلقي كالخليفة أو الوالي وقد يطلبها الخليفة من الزاهد فيبعثها إليه لينصحه فيها وينفره من الإقبال على الدنيا ، مثل ما وقع بين الخليفة عمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرها وهكذا انتشر هذا الفن الأدبي ممثلا نوعا من أنواع النثر الأدبي في العصر الأموي تقوم على توجيه المسئولين والحكام وتقديم المواعظ والعبر ، والتحذير من الإمارة وعظم المسئولية ، والتنفير من الدنيا والاقبال عليها ، والترغيب فيما عند الله فهو خير وأبقى ، ومن أشهر مبدعيها : الحسن البصري ، وخالد بن صفوان ، ومحمد ابن كعب القرظي ، ومحمد بن أبي الجهم ، وغيرهم .

ثم استمرت هذه المقامة في الزهد تعقد في مجالس الخلفاء والولاة والقادة في العصر العباسي ، حتى جاء بديع الزمان الهمذاني فأوحت إليه مقامات الزهاد إلى أن ينشئ فنا أدبيا على مثالها وهو فن « المقامة » الهمذانية التي اشتهر بها في الأدب العربي ؛ لكنها اعتمدت على الخيال ، وكانت الغاية منها « الكدية » والتكدي ، وتنوعت مضامينها من وعظية ، وعلمية ، ولغوية ، وأدبية ، ونقدية واجتماعية ، وسياسية ، وغيرها ، وهكذا كانت مقامات الزهاد هي المصدر الأساسي لمقامات الهمذاني ، انطلق منها إلى مقاماته المشهورة ، وهي وإن اتفقت معها من حيث التسمية ؛ لإطلاقها على ما يقال في المجلس والمقام ، ومن حيث الشخصيات والبطولة فيها ؛ فالبطل في مقامات الزهاد ، هو الزاهد الذي يلقيها في المجلس ، والخليفة أو الوالي الذي يتلقاها منه ليتعظ بما فيها ، أما الشخصيات في مقامات الهمذاني فالراوية عيسى بن هشام يروي أحداث المقامة التي تقع من بطلها « أبو الفتح الاسكندري » ، ثم جاء الحريري ليسير على نهج المقامة الهمذانية مع اختلاف في اسمي الراوية والبطل ، ومن بعدهما حتى تحولت المقامة إلى رواية على يد محمد المويلحي في العصر الحديث ، في روايته « حديث عيسى بن هشام » تمهيدا للقصة الفنية الحديثة ، هذا من حيث الاتفاق .

أما من حيث الاختلاف بينهما فهما مختلفان في الحقيقة والخيال ، فمقامة الزهاد تستمد أصولها ومصادرها من الحقيقة والواقع ، والهمذانية تستمد روافدها من نسج الخيال ، وكذلك من حيث الأسلوب والأحداث والموضوعات والغرض والغاية وغيرها من مظاهر الاختلاف أو الاتفاق ، قد وضحته بالتفصيل في كتابي : « الأدب الإسلامي الصوفي حتى نهاية القرن الرابع الهجري » .

وتعد مقامة الزهاد من الأنواع الجديدة في النثر الأدبي التي ابتكرها الأدباء الزهاد في العصر الأموي ، فاكتملت أركانها وعناصرها على أيديهم ، واستمدت أصولها وروافدها وقيمها من الكتاب والسنة وأدب الصحابة ، ومن قصص السابقين التي تهدف إلى موعظة أو عبرة ، وتزينت بالآيات الكريمات والأحاديث الشريفة وأقوال الصحابة ﷺ والحكماء ، والقصص القرآني وقصص الملوك والتنفير من الاقبال على الدنيا والاسراف في متاعها الذاهب ، بل التزود منها للآخرة ، فالزاهد فيها هو الغني الذي لا يكنز ماله ، ولا يسرف فيه ، فيجمعه مما أحل الله ؛ لينفقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، ولما يعود على المسلمين والإسلام بالعزة ، لأن الزهد ينبغي أن يكون فيما هو مملوك تحت يديه ، وليس في المعدوم زهد ، ولا في التواكل زهد ، فلا يتصور أن يزهد الزاهد في المعدوم أو ما لا يملك ، ومقامات الزهاد كثيرة سنعرض منها مقامة بالتحليل والدراسة للحسن البصري عند الحجاج بن يوسف الثقفي .

مقامة الحسن البصري

روي أن الحجاج بنى داراً بواَسِط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال :

« الحمد لله ، إن الملوك ليَروْن لأنفسهم عزّاً ، وإنا لنَرَى فيهم كل يوم عِبَرا يَعْمِد أحدهم إلى قصر فيشيّده ، وإلى فرش فينَجّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسِّنها ، ثم يحفُّ به ذبَابُ طَمَع ، وفَراشُ نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : انظروا ما صنعت ! فقد رأينا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أمَّا أهل السموات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيتَ دار الفناء ، وخرَّبت دار البقاء ، وغرِرت في دار الغرور ، لتذل في دار الحبُور ، ثم خرج وهو يقول :

إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، لَيُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تُنكرون ! ثم أمر بإحضاره ، فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإمارتي عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، إن من خَوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحبّ فيك ممن أمّنك حتى تبلغ الخوف ، وما أردتُ الذي سبق إلى وهمك ، والأمران بيدك : العفو والعقوبة ، فافعل الأوْلى بك ، وعلى الله فتوكل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمهُ وحَبَاه .

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ منّي عند من هو شرٌّ منك ، قال فرعون لموسى : « فَمَا بالُ القُرونِ الأولى ؟ قال : عِلْمُها عند ربِّي في كتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي ولاَ يَنْسَى » عِلْمُ عليّ وعثمان عند الله ، قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية وعلَّف بها لحيته ، فلما خرج تبعهُ الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتي عند كربتي ، ويا صاحبي عند شدَّتي ، ويا وليَّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته ، واصرف عني أذاه » ففعل ربي عز وجل (١) .

القيم الخلقية في مقامة الحسن البصري عند الحجاج :

كان الدافع الأساسي لنشأة مقامة الزهاد هو العظة والعبرة لمن يتحملون مسئولية الرعية في الأمة الإسلامية ، سواء أكان خليفة أو واليا ، أو قائدا لتبصيرهم بالقيم التي تعينهم على الإحسان والعدل في حكمهم ، وتطبيق الشريعة في الحكم وعلى أنفسهم مع الرعية ، كما تحثهم على الزهد في الدنيا والاستعداد للآخرة ، وعلى تقوى الله عز وجل ، والعمل ابتغاء مرضاته ؛ لذلك تستمد المقامة قيمها الخلقية من

---

(١) واسط مدينة بين الرافدين بالعراق بناها الحجاج ومات بها . التنجيد : التزيين . النجاد : الذي يخيط الوسائد والفراش ويعدها . وذّباب طمع ـ بفتح الذال ـ : مرضى طمع ، أو دفّاع طمع وبضم الذال : جمع ذبابة ، وهي الحشرة المعروفة ، والمعاني كلها واردة . فراش : جمع فراشة وهي التي تحوم حول المصباح . أمالي المرتضى ١/ ١١٢ ، الحسن البصري : ابن الجوزي ص ٥٣ .

القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ومن هذه القيم الخلقية :

١ - استفتاحها بالحمد لله والثناء عليه عز وجل ، وغالبا ما يحذف الاستفتاح اعتمادا على أنها أصل وضرورة ولازمة في كل مقامة وتبدأ بقولهم : « أما بعد » كما في موعظة الحسن البصري للخليفة عمر بن عبد العزيز الذي بدأها بقوله :

« أما بعد يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال .. فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حتفه ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه ، يحتمي قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، الصبر على لأوائها ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها ، فإنها غدّارة ختالة خداعة ، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها فهي كالعروس ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، وهي - والذي بعث محمدا بالحق - لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير صرعها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدٍّ إلى الهلكة والفناء .. » (١) .

٢ - التحذير من إسراف الحجاج وأمثاله المسئولين في الإنفاق على بناء القصور وتجهيز الفرش والإكثار من الملابس والمراكب ، اقتداء بالنبي ﷺ ، فقد كان يفترش الحصير ، ولا يوقد في بيته نار تحت قدر شهرا كاملا ، وبأصحابه ﷺ فقد امتنع عمر بن الخطاب ﷺ عن أكل الزيت والسمن في عام الرمادة ليكون الحاكم قدوة حسنة لرعيته ، فيجبر قلوب الفقراء والمحتاجين بسلوكه الحميد بلا مبالغة ولا إسراف ولا تقتير : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ ، قال الحسن البصري لما دخل قصر الحجاج : « إن الملوك ليرون لأنفسهم عزا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرا ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها » ، وفي مقامة أخرى للحسن البصري عند النضر بن عمر ، وكان واليا على البصرة ، قال النضر للحسن : « يا أبا سعيد إن الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها ، وبهجتها وزينتها لعباده ، قال عز وجل : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إن الله لا يحب

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٤ ، والحسن البصري ١٢١ ، وكلاهما لابن الجوزي .

المسـرفين ﴾ ، وقـال عز مـن قائل : ﴿ قل مـن حرم زينة الله الـتي أخرج لعبـاده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ فقال الحسن :

« أيهـا الرجل : اتق الله في نفسـك ، وإياك والأمـاني التي ترجَّحْت فـيهـا فتَهلك ، إن أحداً لم يُعْط خيراً من خير الدنـيا ، ولا من خير الآخرة بأُمْنيته ، وإنما هي داران ، من عـمل في هذه أدرك تلـك ، ونال في هذه مـا قُدِّر له منهـا ، ومن أهمل نفسه خسـرهما جميعاً ، إن الله سـبحانه اختار محمـداً ﷺ وسلم لنفسه وبعثه برسالته ورحمته ، وجـعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتابا مُهَيْمناً وحَدَّ له في الدنيا حـدوداً ، وجعل له فيـها أجلاً ، ثم قال عـز وجل : ﴿ لَقَد كَان لكم في رسول الله أسْوَةٌ حـسنة ﴾ ، وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهـتدي بهَدْيه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسُنَّـته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمـته ، وما قصَّرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب مخرجنا ، فأما الأماني فلا خير فيها ، ولا في أحد من أهلها » .

فـقال النضـر : « والله يا أبا سـعيـد إنا على ما فـينا لَنُحبّ ربنا » ، فـقـال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهـد رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالـى عليه : ﴿ قُل إن كنتم تحبـون الله فاتبعوني يُحْبِبْكم الله ﴾ ، فـجعل سبحـانه اتّباعه ﷺ عَلَما للمحبـة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيـها الرجل في نفسك ، وأيم الله لقد رأيت أقواما ما كانوا قبلك في مكانك ، يَعْلُون المنابر ، وتهتز لهم المراكب ويجرون الذيول بطراً ورياءَ الناس ، يبنون المدَر ، ويؤثرون الأثـر ، ويتنافسون في الثيـاب ، أُخرجـوا من سلطانهم ، وسُلموا مـا جمـعوا من دنياهـم ، وقَدِموا على ربهم ، ونزلـوا على أعـمـالهم ، فالويلُ لهم يـوم التغـابن ، ويا ويْحَهم ﴿ يـوم يفـر المـرء من أخيـه وأمه وأبيه وصـاحبتـه وبنيه ، لكل امـرئ منهم يومـئـذ شأنٌ يُغْنيه ﴾ » (١) .

٣ ـ التـحـذير من بطانة السـوء ، وأهل الـطمع والجـشع ، وندامى اللهـو والعبث والمجون ؛ فإن ذلك يصرف المسئول عن التفكير في الرعية ، والعمل على

---

(١) الحسن البصري : ابن الجوزي ص ٥٠ .

إسعادهم ، لاشتغالهم عنهم بمتاع الحياة واللذات والشهوات ، فإن من انغمس في الشهوات انصرف إليها ، وغاب عن أمور الرعية ، قال الحسن : « ثم يحف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء » .

٤ - مواجهة المسئولية بالحق ولو كان مراً ؛ لتحذيرهم مما يغضب الله عز وجل ووصفهم بما جنت أيديهم ، حتى يرتدعوا وينصرفوا عنها ، ليزدجر غيرهم ويكون غيرهم عبرة لمن بعدهم ، فيقول الحسن موجها قوله للحجاج : « فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ، أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيت دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغررت في دار الغرور ، لتذل في دار الحبور » .

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوق من الأسواق ، فمنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم وكم من قوم قد غرَّهم مثل الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا من الدنيا مرملين ، لم يأخذوا لما أحبُّوا من الآخرة عدة ، ولا لما كرهوا جُنَّة ، واقتسم ما جمعوا من لم يَحْمدهم ، وصاروا إلى من لا يعذرهم ، فانظر الذي نحبّ أن يكون معك إذا قدمت ، فقدِّمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قدمت ، فابتغ به البَدَل ، حيث يجوز البدل ، ولا تذهبن إلى سلعة قد بارت على غيرك ، ترجوا جوازها عنك ، يا أمير المؤمنين : افتح الأبواب ، وسهِّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، وردُّ الظالم » (١) .

٥ - يجب على أهل العلم ألا يكتمو ما أنزل الله ، ولا يخفون من العلم شيئا عن الناس ؛ فيوضحوا لهم ما تقتضيه المواقف والأحوال ، فلكل مقام مقال وهذا هو ما فعله الحسن مع الحجاج وحاشيته معقبا على إرشادهم وتعليمهم ، فلا يكتم عنهم علمه ونصحه وإرشاده ، فقال الحسن وهو خارج من القصر بعد وعظه وإرشاده : « إن الله سبحانه وتعالى أخذ عهده على العلماء لتبيننه للناس ولا يكتمونه » .

٦ - من القيم الإسلامية الدعاء للحاكم ولو كان فاسقا : أن يرحمه الله

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ابن لجوزي ص ١٣٤ ، وعيون الأخبار ٣٤٣/ ٢ .

ويهديه للصواب ، وأن يوضح له ما خفي عليه من موعظته وتعليمه ، وإعلان الحق في وجهه ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، فمن أخاف المخطىء اليوم ليأمنه من عذاب الله غدا فهو خير له وأحب ممن أمّن الخائف اليوم ليلقى عذاب الله الشديد يوم القيامة ، ثم يحتسب الله عز وجل في نصيحته ، فقال الحسن : « يرحمك الله .. وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

٧ ـ من القيم الإسلامية الرجوع إلى الحق ، والاعتراف به ، والاعتذار مما وقع منه لصاحب الحق ومسدى النصيحة ، ثم إكرامه ومكافأته ؛ ليزداد إيمانا على إيمانه ، ويصر على جرأته في قول الحق ، ليكون قدوة لغيره في الرجوع إلى الحق والاعتذار عن الخطأ ، ومكافأة الناصح ، ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ ، فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه ، قال الحجاج : « أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا بغالية وعلّف بها لحيته » .

٨ ـ الاحتجاج بالقرآن فيما يشكل ، وتفسيره المواقف تبعا لقيمه ؛ ليقتنع الخصم بالموعظة ، قال الحجاج : « ما تقول في علي وعثمان .. علم علي وعثمان عند الله » .

٩ ـ أن يلجأ الإنسان إلى الله عز وجل في الشدائد بالدعاء ، وأن يطلب منه النصر ، وإظهار الحق وزهق الباطل : « فلما خرج تبعه الحاجب ، فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه ؟ قال : قلت : يا عدتي عند كربتي ، ويا صاحبي عند شدتي ، ويا ولي نعمتي .. ارزقني مودته ، واصرف عني أذاه ، ففعل ربي عز وجل » .

القيم الفنية في مقامة الحسن البصري عند الحجاج :

تمتاز مقامة الزهاد بانتقاء الألفاظ في خفنها وعذوبتها وسلاستها وملائمتها للفكرة والغرض ، ثم تتميز العبارة بالوضوح ، والأسلوب بالقوة ، والتراكيب بإحكام النسج ، مع قصر الفقرات والجمل ، والمزاوجة بينها ، وكثرة المقابلات بين العبارات مما يعين على فهم المعاني بسهولة ، وبلا معاناة أو تأمل يسير ، مع الدقة في التصوير المستمد من الحقيقة وأبواب علم المعاني غالبا ، لأن المقامة تعبر عن الحقائق والواقع ؛ فلا تركب أجنحة الخيال ؛ لأنها تعالج التجارب الإنسانية مع الله

ومع النفس ، ومع الناس ، ومع الرعية ، ولا يمنع ذلك من استعمال الصور الخيالية التابعة من علم البيان بين حين وآخر ، لتوضح الحقيقة والواقع أكثر ، ثم ما تقتضيه المعاني والفقرات من المحسنات البديعية التي تأتي عفو الخاطر ، فتسيل رقة وعذوبة ؛ فلا يستطيع المتكلم أن يقف دونها ، بل تفرض موقعها من الأسلوب .

تأمل الصورة الأدبية في قوله : « إن الملوك ليرون لأنفسهم عزآ » ، فقد جسم العز ، وهو أمر معنوي في صورة محسة ، ترى بالعين ، وتلمس باليد وكأنها ظاهرة للعيان ، وكذلك التجسيم في العبارة الثانية في قوله : « نرى عبرا » فقد جسم العبر على النحو السابق ، مع قصر الجملتين ، والتوازن والتنسيق الإيقاعي بين العبارتين ، ثم المقابلة بينهما ، والسجع في نهايتهما من غير تكلف أو تصنع ، فتذوب رقة وعذوبة وسلاسة ، وكذلك تجد هذه السمات الفنية بين العبارتين : « إلى قصر فيشيده ، وإلى فرش فينجده » .

ثم تأمل العبارات : « يحف به ذباب طمع ، وفراش نار ، وأصحاب سوء » تتميز بقصر الفقرات ووضوحها وحسن إيقاعها وتنسيقها ، وعمق معانيها مع روعة الصور الخيالية فيها ؛ فالصورة الأولى جعل فيها الطمع وحشا كاسرا يترك صاحبه مريضا مجروحا على سبيل الاستعارة المكنية على اعتبار أن « ذَباب » - بفتح الذال - بمعنى المريض ، وفي « ذَباب طمع » بفتح الذال أيضا تشبيه تمثيلي بليغ حيث يشبه حاشية الظالم وهم مثله في الظلم وأشد منه في تدافعهم وإلحاحهم عليه بمرضى الطمع الذين يسقطون من الضعف والهلاك ، فلا يبرأون من الداء والبلاء ، ولا ينفكون عن أوزارهم ، فهم في إصرارهم على الظلم وإدمانه عندهم أصبحوا كالمرضى ، لا يفارقهم المرض ، بل يظل يلازمهم حتى يقتلهم وفي « ذَباب » - بالفتح - معنى التدافع ، فالظالم منهم دفّاع للطمع ، فهو يتدافع نحوه ، ويلح عليه ، ولا يمل منه .

أما « ذُباب » - بضم الذال - فهي جمع ذبابة ، أيْ الحشرة الضارة التي تحمل الجراثيم ، وتلح في نقلها إلى الآخرين أو عن طريق الطعام والشراب ، وفيه معنى الذب والدفع والإلحاح والإصرار على الأذى ، وعلى ذلك فالتشبيه البليغ فيها ظاهر ، حيث شبه الظالم بالذباب وليس أي ذباب ، بل ذباب طمع وجشع ليكون أكثر أذى وأقوى جرثومة وفتكا بغيره ، وإن كانت الصورة أيضا توحي

- بالإضافة إلى ما سبق - بمعاني الحقارة والذلة والهوان والضعف وغيرها من المعاني التي يتصف بها الذباب والظالم معا ؛ فتأمل هذه الصور الأدبية الكثيرة والمتنوعة في ذلك الإيجاز في التعبير والموهبة في فن التصوير الأدبي .

والصورة الثانية « فراش نار » فيها تشبيه تمثيلي بليغ ، يشبه الحاشية الظالمة وهي تحوم حول الظالم مثل الفراش الذي يحوم حول نيران المصباح حتى يكاد يحترق بها ، كمن يحوم حول الحمى يوشك أن يقع فيه متأثراً بحديث النبي ﷺ : « إن الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » ، وكذلك الصورة الثالثة يجسم فيها السوء وهو أمر معنوي ، حتى يصير قرنا لصاحبه ، يشاركه في الشر ويتعاملان به معا .

ثم تأمل صورة النداء في « أيها المغرور » ، فهو نداء للتحقير والتهوين من شأن المغرور ، ثم صورة الاستفهام للتبكيت والتنفير ، ثم المقابلة بين العبارتين مع قصرهما وروعة تنسيقهما ، وتزاوج الإيقاع فيهما ، وانتهائه بالتوافق في الختام بينهما ، ثم الطباق بين « السموات والأرض » ، وبين « دار الفناء ودار البقاء » وبين « بنيت وخربت » ، و« غررت لتذل » ، و« الغرور والحبور » ، ثم الصورة الأدبية الرائعة في قوله « بنيت دار الفناء » كناية عن الزوال والتحقير ، والصورة الأدبية في قوله : « خربت دار البقاء » كناية عن الخسران في الآخرة ، وكذلك الكناية في « دار الغرور » ، وفي « لتذل في دار الحبور » .

وتأمل الاستعارة في قوله : « فاشتد غضبه » ، ثم الصورة الأدبية في الاستفهام « أما كان لإمارتي عليك حق » ؛ فليس هنا لطلب الإجابة على السؤال ولكنه تصوير للألم الذي يملأ قلب الحجاج واستعطافه ليخفف من نقده اللاذع لذلك جاءت الإجابة من الحسن البصري بالدعاء له بالرحمة لما يعانيه من الألم والمرارة ؛ فقال له : يرحمك الله أيها الأمير ، ثم الصورة الأدبية التي تقوم على التجسيم في قوله : « تبلغ أمنك » ؛ فقد جسم الأمن ، وهو أمر معنوي ، بجبل شامخ يصعب اجتيازه ، ومثلها صورة تجسيم الخوف في قوله : « حتى تبلغ الخوف » وكذلك الأمر في « وما أردت الذي سبق إلى وهمك » ، ثم الطباق بين

العفو والعقوبة ، والاقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ ، وغيرها من الصور الأدبية الكثيرة ، التي نبعت من الحقيقة أو الخيال أو من الإيقاع والنسق الموسيقي في التعبير ، كما تجد روعة التصوير الأدبي الذي يجمع بين الصور الخيالية والصور المستمدة من الحقيقة ومن التضمين القصصي لأحد ملوك الأعاجم بالخورنق ، الذي زهد في ملكه وتنسك ، وذلك في مقامة خالد بن صفوان بين يدي هشام بن عبد الملك ، قال خالد بن صفوان :

« وفدت على هشام فوجدته بدأ يشرب الدُّهن ، وذلك في عام باكر وَسْمِيُّه ، وتتابع وليه ، وأخذت الأرض زخرفها ، فهي كالزَّرابي المبثوثة والقباطي المنشورة ، وثراها كالكافور ، لو وُضعت به بضعة لم تُترب ، وقد ضربت له سرادقات حِبَر ، بعث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن ، تتلألأ كالعقبان ، فأرسل إليَّ ، فدخلت عليه ، ولم أزل واقفاً ، ثم نظر إليَّ كالمستنطق لي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أتمَّ الله عليك نعَمه ، ودفع عنك نقَمه ، وجعل ما قلَّدك من هذا الأمر رشدا ، وعاقبة ما يئول إليه حمْدا ، وأخلَصَه لك بالتُّقى وكثره لك بالتمام ، ولا كدَّر عليك منه ما صفا ، ولا خالط سُرُورَه بالرَّدى ، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستراحا ، إليك يقصدون في مظلمهم ، ويفزعون في أمورهم ، هذا مقام زيَّنَ الله به ذِكْري ، وأطاب به نشري ، إذ أراني وجه أمير المؤمنين ، ولا أرى لمقامي هذا شيئا هو أفضل من أن أنبِّه أمير المؤمنين لفضل نعمة الله عليه ، ليحْمد الله على ما أعطاه ، ولا شيء أحضَرُ من حديث سلف لملك من ملوك العجم ، إن أذن لي فيه حدَّثته به ، قال : هات ، قلت : « كان رجل من ملوك الأعاجم جُمعَ له فَتاءُ السِّنّ ، وصحّة الطباع ، وسعَة المُلك ، وكثرة المال وذلك بالخَوَرْنق ، فأشرف يوماً ، فنظر ما حوله ، فقال لمن حضره : هل علمتم أحدا أوتي مثل الذي أوتيت ؟ فقال رجل من بقايا حَمَلَة الحُجَّة : إن أذنت لي تكلمتُ . فقال : قل ، فقال : أرأيت ما جُمع لك ، أشيء هو لك ، لم يزل ولا يزول ، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه ، وصار إليك ، وكذلك يزول عنك ؟ قال : لا . بل شيء كان لمن قبلي ، فزال عنه وصار إليَّ ، وكذلك يزول عني قال : فسُررت بشيء تَذهب لَذَّته ، وتبقى تبعته . تكون فيه قليلا ، وتُرتهن به

طويلا ؟ فبكى وقال : أين المهرَب ؟ قال : إلى أحد أمرين : إما أن تُقيم في ملكك ، فتعمل فيه بطاعة ربك ، وإما أن تُلقي عليك أمساحاً ، ثم تلحَق بجبل تعبد فيه ربك ، حتى يأتي عليك أجلُك ، قال : فما لي إذا أنا فعلت ذلك ؟ قال : حياة لا تموت ، وشباب لا يَهْرَم ، وصحة لا تسقم ، وملك جديد لا يَبْلى قال : فإذا كان السحَر فاقرَعْ عليَّ بابي ، فإني مختار أحد الرأيين ، فإن اخترت ما أنا فيه ، كنتَ وزيراً لا يُعْصى ، وإن اخترت فَلَوات الأرض وقفر البلاد ، كنت رفيقاً لا يخالف ، فقرع عليه عند السحر بابه ، فإذا هو قد وضع تاجه ، وخلع أطماره ، ولبس أمساحه ، وتهيأ للسياحة ، فلزما والله الجبل ، حتى أتاهما أجلهما » ، وأنشد قول عَدِيٍّ بن زيد :

وتفكر ربُّ الخَوَرْنَقِ إذ أصـــبح يوماً وللهُدى تفكير
سرَّه حاله وكثرةُ ما يمْـــلك والبحرُ مُعْرِضاً والسَّدير
فارعَوَى قلبُه ، فقال : وما غِبْـطةُ حَيٍ إلى الممات يصير ؟

فبكى هشام وقام ودخل ، فقال له حاجبه : لقد كَسبت نفسك شرا ، دعاك أمير المؤمنين لتحدِّثه وتُلْهيه ، وقد عرفت علَّته ، فما زدت على أن نَعيتَ إليه نفسَه ، فأقمت أياما أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمر لك بجائزة وأذن لك في الانصراف » (١) .

* * *

(١) الوسمي : المطر الذي ينزل أول الربيع . الزرابي : البسط . القباطي : ثياب بيض من كتان . البضعة قطعة لحم . حبر : برود اليمن . العقبان : الذهب . الفتاء : الشباب . الأمساح : أكسية من شعر كثوب الرهبان . معرضا : ظاهرا . سيرة عمر بن عبد العزيز : ابن الجوزي ١٣٤ ، وعيون الأخبار ٢/٣٤٣ .

الوصايا

من فنون النثر الفني الوصايا ، وهو الفن المشهور في الجاهلية وعصر صدر الإسلام ، والوصايا تصدر من الوالد لأبنائه ، أو من الخليفة للخلفاء من بعده ، أو للقائد في المعارك وملاقاة العدو ، ومن هذه الوصايا :

وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

قال عبد الملك بن مروان : « يا بني أمية : ابذلوا ندَاكم ، وكفُّوا أذاكم واعفُوا إذا قَدَرتم ، ولا تبْخلوا إذا سُئلتم ، فإن خير المال ما أفاد حمداً ، أو نفى ذما ولا يقولنَّ أحدُكم : ابدأ بمن تعول ، فإنما الناس عيَالُ الله ، قد تكفّل الله بأرزاقهم فمن وسَّعَ أخلفَ الله عليه ، ومن ضيَّق ضيَّق الله عليه » (١) .

وصية أسماء بن خارجة لابنته

زوَّج أسماء بن خارجة الفزازي بنته هنداً من الحجاج بن يوسف ، فلما كانت ليلة أراد البناء بها ، قال لها أسماء : « يا بنية ، إن الأمهات يؤدبن البنات وإن أمك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكُحْل ، وإياك وكثرة المعاتبة ، فإنها قطيعة للودّ ، وإياك والغَيْرة ، فإنها مفتاح الطلاق ، وكوني لزوجك أمَةً ، يكن لك عبْداً ، واعلمي أني القائل لأمِّك :

خذي العَفوَ تستديمي مودتي ... ولا تنطق في سورتي حين أغضبُ
ولا تنقُريني نقْرة الدُّفِّ مرةً ... فإنكِ لا تدرينَ كيف المغيَّبُ
فإني وجدتُ الحبَّ في الصدر والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يَذْهبُ (٢)

وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته

لما كان المُهَلّب بن أبي صفرة بزَاغول من مَرْو الرُّوذِ (من خُراسان) أصابته الشَّوصة (وقوم يقولون الشوكة) ، فدعا حبيبا ومن حضره من ولده ، ودعا بسِهامٍ

(١) الأمالي : أبو علي القالي ٢/٣٢ .
(٢) البيان والتبيين : الجاحظ : ٢/٤٥ ، والأغاني : الأصفهاني ١٨/١٢٨ .

فَحُزمت ، وقال : أترونكم كاسريها مجتمعة ؟ قالوا : لا . قال : أفترونكم كاسريها متفرقة ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم ، فإن صلة الرحم تُنسئ في الأجل ، وتُثري المال ، وتُكثر العدد ، وأنهاكم عن القطيعة ، فإن القطيعة تُعقِب النار ، وتورث الذِّلة والقلة ، تباذلوا وتواصلوا تحابوا ، واجمعوا أمركم ولا تختلفوا ، وتباروا تجتمع أموركم ، إن بني الأم يختلفون ، فكيف ببني العَلاَّت ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولتكن فعالكم أفضل من قولكم ، فإن أحب الرجل أن يكون لعمله فضلٌ على لسانه ، واتقوا الجواب ، وزلّة اللسان ، فإن الرجل تَزِلُّ قدمه فينتعش من زلّته ، ويزل لسانه فيَهْلك ، اعرفوا لمن يغشاكم حقّه ، فكفى بغُدُوِّ الرجل ورَواحه إليكم تذكرةً له وآثروا الجود على البخل ، وأحبُّوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك ، فكيف الصنيعة عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة ، فإنها أنفعُ في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء فإن أخذ رجل بالحزم فظهرَ على عدوه ، قيل : أتى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحُمد ، وإن لم يظفر بعد الأناة ، قيل : ما فرَّط ولا ضيَّع ، ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن ، وتعليم السُّنن وأدَب الصالحين ، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيد ، وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد . فقال له المفضّل : لو لم تُقَدِّمْه لقدَّمناه (١) .

وصية عبد الله بن شداد لابنه (٢)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاةُ ، دعا ابناً له يقال له محمد ، فقال :

« يا بني ، إني أرى داعِيَ الموت لا يُقلع ، ورأى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإليه ينزع ، وإني مُوصيك بوصية فاحفظها ، عليك بتقوى الله العظيم وليكن أوْلَى الأمور بك شُكْرُ الله ، وحَسْنُ النية في السرِّ والعلانية ، فإن الشكور يزداد ، والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

---

(١) نهاية الأرب ٧/٢٤٩ ، تاريخ الطبري ٨/١٩ .

(٢) هو عبد الله بن شداد بن الهادي ، واسمه أسامة الليثي ، كان من القراء ، خرج على الحجاج في فتنة ابن الأشعث ، وقيل مات غريقا بدجيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقيَّ هو السعيدُ
وتقوَى الله خير الزاد ذُخراً ... وعند الله للأتقى مَزِيدُ
ومَا لا بُدَّ أن يأتي قريبٌ ... ولكنَّ الذي يمضي بَعيدُ

ثم قال : أيْ بُنَيَّ ، لا تزهدن في معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب أصبح مطلوبا ما لديه واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومَن يصحب الزمان يرَ الهوان ، وكن أيْ بُني كما قال أبو الأسود الدؤلي :

وعدٌ من الرحمن فضلاً ونعمة ... عليك ، إذا ما جاء للعُرْف طالب
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخيرُ عنده ... يكُن هيِّناً ثقلاً على مَن يصاحبُ
فلا تمنعَنْ ذا حاجة جاء طالبا ... فإنك لا تَدْري متى أنت راغبُ
رأيتُ التواء هذا الزمان بأهله ... وَبينهُم فيه تكونُ النوائب

ثم قال : أي بني ، كن جوادا بالمال في موضع الحق ، بخيلا بالأسرار عن جميع الخلق ، فإن أحمدَ جُود المرء الإنفاقُ في وجه البر ، وإن أحمدَ بُخل الحُرِّ الضَّنِّ بكتوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخَطِيم الأنصاري :

أجُودُ بمكنون التِّلاد ، وإنني ... بسرِّك عمَّن سالني لَضَنينُ
إذا جاوز الإثنين سرٌّ فإنه ... بنَثٌّ ، وتكثير الحديث قمينْ
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتَني ... مكانٌ بِسَوْدَاء الفؤاد مكينْ

ثم قال : أي بني ، وإن غُلبتَ يوما على المال ، فلا تَدَع الحيلة على حال فإن الكريم يحتال ، والدَّنيٌّ عيال ، وكن أحسنَ ما تكون في الظاهر حالا ، أقل ما تكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرُمت طبيعتُه ، وظهرت عند الإنفاد نعمتُه وكن كما قال ابن حذاق العبدي :

وجدتُ أبي قَد أورَثه أبوه ... خلالاً قد تُعَدُّ من المعالي
فأكرمُ ما تكونُ عليَّ نفسي ... إذا ما قَلَّ في الأزمات مالي
فتَحْسُنُ سيرَتي وأصونُ عِرضي ... ويجملُ عند أهل الرأي حالي
وإن نِلْتُ الغنى لم أغْلُ فيه ... ولم أخْصُصْ بِجفْوَتيَ الموَالِي

ثم قال : أي بني ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست

بشاهد ، فإنك إن أمضيت حيالَها ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ، هو الفَطن المتغافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شِيمتي شتمُ ابْنِ عَمِّي ... وما أنا مُخْلِفٌ من يَرْتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم ... سمعت فقلت مُرِّي فانفُذيني
فعابُوها عليَّ ولم تسُؤني ... ولم يَعْرَق لها يوما جبيني
وذو اللونين يلقاني طَليقا ... وليس إذا تَغَيَّب يأتَليني
سمعْتُ بعَيبه فصفَحْتُ عنه ... مُحَافظَة على حسبي وديني

ثم قال : أي بني ، لا نؤاخ امرأ حتى تعاشره ، وتتعقد موارده ومصادره فإذا استطعت العشرة ، ورضيت الخِبرة ، فواخِهِ على إقالة العثْرَة ؛ والمواساة في العُسرَة وكن كما قال المقنَّع الكِنْدي :

أبْلُ الرجال إذا أردت إخاءَهم ... وتَوَسَّمَنَّ فعالهم وتفقّد
فإذا ظَفِرْتَ بذي اللَّبابة والتُّقى ... فبه اليَدَيْن (قرير عيْن) فاشْدُد
وإذا رأيت (ولا محَالة) زلّةً ... فعلى أخيك بفضل حلمك فارْدُد

ثم قال : أي بني ، إذا أحببتَ فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تُشْطط ، فإنه قد كان يقال : أحْبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بَغضك يوماً ما ، وأبْغض بغيضك هونا ما ، عسى أن يكون حبيبك يوما ما ، وكن كما قال هُدْبة بن الخشرم العذري :

وكن معقلا للحلم واصْفح عن الخنا ... فإنك راء ما حييت وسامع
وأحْبب إذا أحببت حبا مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا ابغضت بُغضاً مقاربا ... فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

وعليك بصحبة الأخيار ، وصدق الحديث ، وإياك وصحبة الأشرار ، فإنه عار ، وكن كما قال الشاعر :

أصحب الأخيار وارغب فيهم ... رُبَّ من صاحبته مثْلُ الجَرَبْ
ودع الناس فلا تشتمهم ... وإذا شاتمت فاشْتُمْ ذا حَسَبْ
إنَّ من شاتم وغداً كالذي ... يشتري الصُّفر بأعيان الذَّهَب

وأصـــدق النـاس إذا حـــدثتـــهم ودع الناس فـــمن شـاء كــذَبْ (١)

* * *

(١) العرف : المعـروف . التوا : التواء مـقصور لضـرورة الشعر ، بمعنى التوى واعـوج . الضن : البخل . نث : أفشى . وتين : جدير . سوداء الفؤاد : حبة القلب . الانفاذ : الفقر . ابن حذاق : شاعر قديم . الموالي : القريب . حياله : ازاؤه . نفذ : جاز . يأتلي : يقصر . الخبرة : التجربة . اللب : العقل . شط : تجاوز وظلم . الخنا : الفحش . الصفر : النحاس .

رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب إلى الكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب رسالة إلى الكتاب يوصيهم فيها قال :

« أما بعد .. حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرّفهم في صفوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معايشهم وأبواب أرزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوج إلى اجتماع الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتّاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منهُ صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فهيماً في موضع الحُكم ، مقداماً في موضع الإقدام ، محجاما في موضع الإحجام ، مؤثرا للعفاف ، والعدل والإنصاف كتوماً للأسرار ، وفيًّا عند الشدائد ، عالما بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطّوارق أماكنها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمته ، فإن لم يحكمه ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعُدُّ لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته ، فتنافسوا ، يا معشر الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيدُوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا

الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم ، ولا تضيِّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيِّها ، ودَنيِّها ، وَسَفْساف الأمور ومحقرها ، فإنها مذلة للرِّقاب ، مفسدة للكتاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات ، واربئوا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة ، وما فيه أهل الجهالات وإياكم والكبر والصَّلف والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحْنَة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليها بالذي هو أليقُ بأهل الفضل والعدل والنُّبل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ويثوب إليه أمره ، وإن أقعد أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظَ منه على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ في الشُّغل مَحْمَدة ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مَذَمَّة فليحملها هو من دونه ، وليحذر السَّقطة والزلة ، والمَلَل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب ، أسرعُ منهُ إلى الفرَاء ، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبهُ الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقّه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ما هو جزاء لحقه ، ويصدِّق ذلك بفعله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا ذلكم ـ وفقكم الله من أنفسكم ـ في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان ، والسرَّاء والضرَّاء ، فنعْمت الشِّيمة هذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وُلِّيَ الرجل منكم ، أو صيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ ، فليراقب الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم مُنْصفا ، فإن الخلق عيال الله ، وأحبُّهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللأشراف مُكرماً ، وللفَيْء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألِّفا ، وعن إيذائهم متخلفا ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليما وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقا ، وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر

خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسَن ، واحتال لصرْفه عما يهواه من القبيح ، بألطف حيلة ، وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحا لم يهجها إذا ركبها ، وإن كانت شَبُوباً اتَّقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حروناً قمعَ برفق هواها في طريقها فإن استمرَّت عطفها يسيراً ، فيَسلس له قيادُها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم وده ، من سائس البهيمة التي لا تُحير جواباً ، ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطاباً ، إلا بقدر ما يُصيِّرها إليه صاحبُها الراكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رحمكم الله في النظر ، وأعْملوا فيه ما أمكنكم من الرويّة والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبوَةَ ، والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزنَّ الرجل منكم ـ في هيئة مجلسه ، وملبسه ، ومرْكبه ، ومطعمه ومشربه وبنائه وخدَمه وغير ذلك من فنون أمره ـ قدر حقه ، فإنكم ـ مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم ـ خدَمَةٌ لا تُحمَلون في خدمتكم التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، قصَصْته عليكم ، واحذروا متالف السَّرَف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يُعْقبان الفقر ، ويُذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب الآداب ، وللأمور أشباهٌ ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محَجَّة ، وأصدقها حجة ، وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن للتدبير آفة مُتْلفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصدَ الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصْلَحة لفعله ، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره ، ولْيَضرَع إلى الله في صلة توفيقه ، وإمداده بتسديده مخافة

وقوعه في الغلط المُضر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل : إن الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمّله غيرُ خاف .

ولا يقُل أحد منكم إنه أبْصَرُ بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مُرَافِقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رَمَى بالعُجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقَل منه ، وأحمَد في طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن يَعْرف فضل نعم الله جل ثناؤه ، من غير اعتزاز برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره ، وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته والتذلُّل لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثلُ : « من يَلْزم النصيحة يَلْزَمه العمل » ، وهو جوهر هذا الكتاب وغُرّة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكْر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخره ، وتممته به ، تولانا الله وإياكم معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمُه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (١) .

عبد الحميد الكاتب : هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد مولي بني عامر بن لؤي ، يرجع في نسبه إلى أصل فارسي ، كان يسكن « الرقة » ، وظل يتنقل في قرى الأنبار والعراق في التعليم والتعلم ، حتى صار حجة في البيان والبلاغة والكتابة ، وانضم تحت رئاسة سالم مولي هشام بن عبد الملك ، الذي تولى ديوان الرسائل ، حتى تحولت الكتابة فيه من الفارسية إلى العربية في عهده (١٠٥ - ١٢٤هـ) ، وسبق أن مهد لعربية ديوان كتابة الرسائل بالعربية كتاب منهم : سليمان بن سعد الخُشَني ، ويحيى بن يعمر ، وصالح بن عبد الرحمن وقُحْذُم ، وشيبة بن أيمن ، ومروان بن إياس ، والمغيرة بن عطية وأخوه سعيد وغيرهم ، ممن مهدوا لسالم ، الذي تتلمذ على يديه ولده عبد الله ، وصهره عبد الحميد الكاتب ، وهو الذي نسبت إليه الكتابة : « بدئت الكتابة بعبد الحميد

---

(١) صبح الأعشى : ١/٨٥ .

وختمت بابن العميد » ، فقد اجتمع عنده مع العربية والإسلامية ثقافتان : الفارسية التي يجيدها ، واليونانية التي أخذها عن أستاذه سالم ، حتى تفوق عليه ثم ينتقل إلى أرمينيا مع مروان بن محمد عامل هشام بن عبد الملك عليها ؛ ليصير كاتبا له في ديوانه ، وحين يتولى الخلافة (١٢٧ - ١٣٢هـ) يعينه رئيسا لديوان الرسائل ، وظل معه حتى سقطت دولة بني أمية ، وانهزم مروان بن محمد ، وفر معه إلى مصر ؛ ليقتلا معا على الأرجح في معركة « بوصير » آخر المعارك لنهاية دولة بني أمية (١٣٢هـ) .

الغرض من الرسالة : هي أقدم وثيقة تاريخية في فن الكتابة وخصائصها النقدية ، يوضح فيها عبد الحميد الأسس البلاغية ومقاييسها النقدية وسماتها الأدبية ، فقد جمعت الرسالة القيم الخلقية والفنية من تعدد الثقافة وتنوع المعارف في العلم والأدب والدين وعلم الفرائض وأحكام الشريعة وتاريخ العرب والعجم ، وقبل ذلك أن يكون القرآن الكريم والحديث الشريف أعظم الروافد للكاتب ، ثم الشعر واتجاهاته وطبقاته ومدارسه ، وفنون النثر والخطابة وأن يتخلق الكاتب في كتابته وأسلوبه بالأخلاق الحميدة ، ورعاية حقوق الناس والرعية والولاة والخلفاء ، والتكافل مع أهل الحرفة من الكتاب ، وأن يكون على دراية وخبرة بسياسة الدولة وشئون الخراج والجند ، مع إتقان العلوم العربية والعلوم الإسلامية بفروعها المختلفة ، وغيرها مما يعد من العناصر الرئيسة في فن الكتابة .

وهذه الوثيقة في فن الكتابة والرسالة ، لا في فن الشعر والخطابة وغيرها كانت وثيقة نقدية فيها فحسب ، ليكون عبد الحميد الكاتب أول من دون فن الكتابة ونقدها ؛ ليأتي بعد ذلك فارس من فرسان التدوين في النقد الأدبي لجميع الفنون الأدبية ، وهو بشر بن المعتمر (م ٢١٢هـ) في صحيفته النقدية المشهورة فقد كانت أول صحيفة ووثيقة نقدية في تاريخ النقد الأدبي العام ، فأرسى قواعد ومقاييس نقدية لجميع الفنون الأدبية من شعر ونثر وخطابة ورسالة وكتابة وغيرها وقد وضحت ذلك في كتابي : « صحيفة بشر بن المعتمر وأثرها في النقد الأدبي » المنشور عام ١٩٨١م .

عناصر الرسالة : تقوم الرسالة على ثلاثة عناصر : المقدمة والموضوع والخاتمة ، فأما المقدمة فهي استفتاح الرسالة بالحمد لله تعالى والثناء على الله عز وجل ، يدعو الله تعالى للكتاب بالرعاية والحفظ والتوفيق والرشاد ، وأنه سبحانه وحده فضلهم بعد الأنبياء والرسل ، ثم الحكام والخلفاء الصالحين على غيرهم ليكونوا أشرف طبقة بعدهم ، لأنهم أهل الأدب والعلم والرواية والمروءة والأخلاق ، بهم يستقر الحكم ، وتستقيم سياسة الخليفة ، وتصلح الرعية ، وتعمر البلاد بالخير ؛ لأن موقعهم من الملوك موقع أسماعهم وأبصارهم وأيديهم وألسنتهم ، مقتبسا ذلك من الحديث القدسي الشريف : « ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه ، ولا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه .. » وذلك من أول الرسالة : « أما بعد .. حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة .. » إلى قوله : « ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم » .

وأما الموضوع ، تناول عبد الحميد فيه مقاييس الكتابة النقدية وأسسها البلاغية وسماتها الفنية وعواملها المؤثرة وروافدها المتنوعة ، ومصادرها المتعددة وغيرها مما سنوضحه بعد ذلك من القيم الخلقية والفنية من أول قوله : « وليس أحد أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة .. » إلى قوله : « وحمد الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته » .

وأما الخاتمة فتنتهي إلى الحكم والغاية ، والنتيجة والنهاية ، ثم الدعاء بتمام النعمة ، وحفظ الله ورعايته ، والسعادة والرشاد ، ثم التحية بالسلام والرحمة والبركة ، من أول قوله : « وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل .. » إلى قوله : « والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

القيم الخلقية في رسالة عبد الحميد إلى الكتاب :

١ ـ روعة الاستفتاح وجمال الابتداء بالحمد لله تعالى ، والثناء على الله عز وجل ، فهو المبدع للخلق ، وصاحب المنة والنعمة ، وأعظم نعمة هي الإسلام التي يتقاصر دونها أسمى غايات الحمد والثناء له وحده سبحانه ، وهذه أعظم القيم وأسماها في كل نص أدبي .

٢ ـ الدعاء إلى الله سبحانه وتعالى للكتاب ، ومبدعي فن الكتابة بالحفظ والرعاية والرشاد والهداية ، لأن الدعاء مخ العبادة ، وكل عمل يخلو من الدعاء فهو منزوع الخير والبركة والتوفيق ، ومبتور من الرضا والسعادة .

٣ ـ منزلة الكتاب في الأمة أرفع منزلة بعد منازل الرسل والأنبياء والخلفاء والملوك الصالحين ، فمرتبتهم بين الناس أعلى المراتب بعدهم ؛ لأنهم أهل الأدب والعلم والرواية والمروءة ، لا يستغنى عنهم الحكام ، ولا الراعي ، ولا الناس والرعية ، بهم يسعدون ، وعليهم عمارة الكون والحياة ، وقد تأثر في ذلك بالقرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ فاطر : ٢٨ - ٣٢ ، وقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ آل عمران : ١٨ ، وغيرها من الآيات والأحاديث ، كالحديث القدسي السابق وحديث أبي الدرداء في فضل العلم على العابد ، وحديث أبي هريرة : « من سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقه إلى الجنة » ، وغيرها من الأحاديث الكثيرة .

٤ ـ أن يتحلى الكتاب بالصفات الحميدة والأخلاق الكريمة ، والقيم السامية ؛ فهم أولى الناس بذلك ؛ لأنهم يحملون أمانة الكلمة ، ولا بد للكلمة أن تكون طيبة لا خبيثة ولا مدمرة ، لتقيم مجتمعا صالحا ، وأمة قوية ، ولنتذكر آيات سورة إبراهيم في الكلمة الطيبة كالشجرة النافعة ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة الضارة .

ثم أخذ عبد الحميد يذكر هذه القيم : هي الثقة والحلم في موضعه والإقدام في موضعه ، والإحجام في موضعه ، والعفاف والعدل والإنصاف وحفظ الأسرار والأمانة في كتمانها وكشفها ، والوفاء عند الشدائد ، والعلم بالنوازل والمصائب والشدائد ، والرضا بقضاء الله وقدره عند نزولها ، ومشاركة الناس بالعاطفة والوجدان والمساعدة ، ووضع الأمور في نصابها ، والطوارق في

أماكنها ، والإتقان في كل فن من فنون العلم والأدب والإحكام فيه ، وإن لم يستطع الإتقان وتمام الإحكام ، أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، وأن يعرف بعمق عقله وغزارته ، والتفوق في تجربته وحسن أدبه ، أن يعرف بذلك كله الشيء قبل وروده بمعنى أن يكون ملهما ، صاحب موهبة وذوق ؛ ليقف على بواطن الأمور قبل أن يتحدث عنها ويكتب فيها ، وأن ينظر إلى عاقبة الأمور قبل صدورها وأن يتخذ لكل أمر عدته وعتاده ، ويمهد لكل وجه هيئته وعادته ، وأن يتمتع بروح التنافس والمغالبة ؛ لأنها منطلق التفوق والإبداع في صنوف الآداب واتجاهاتها ، وفي التفوق في الدين مبتدأ بكتاب الله عز وجل ، وعلم الفرائض وعلوم العربية وفن الخط ، ورواية الأشعار ، ومعرفة غريبها ومعانيها ، ومعرفة أيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرتها ، كما يجب أن يتحلى بالترفع عن الطمع والدناءة وسفاسف الأمور وحقيرها ، وأن يترفع في الكتابة عن القبيح والدنايا والسعاية والنميمة ، والجهالات ، والكبر والصلف والعظمة والتعالي ، ويحثهم على المودة والمحبة في الكتابة ، والتواصي بصفات أهل الفضل والعدل والنبل من السلف الصالح ، وعلى التواصي بالضعيف والمرزوء بالعطف والمواساة والتكافل والتضامن ، وعلى التواصي بالشيخ المعمر الكبير بالتقدير والمشورة ، وإظهار فضل تجاربه السابقة وفضل سبقه للمعارف ، على سبيل البرّ به ، ليكون أحفظ عليه من أخيه وولده .

وحث الكاتب على التواصي بنسبة القول والفضل والسبق لصاحبه ويحذره من السقطة والزلة والخطأ والملل عند تغير الحال ، ويحث على الوفاء للصاحب ورعاية حقه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ، وأن يطبق ذلك بفعله وسلوكه عند الحاجة إليه في جميع الأحوال مع الرخاء والشدة والحرمان ، والمواساة والإحسان ، والسراء والضراء ، وحث على مراقبة الله في أمور الناس وحاجاتهم طاعة لله وابتغاء مرضاته ، فيكون للضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، وفي الحكم عادلا ، وفي الإشراف كريما ، وللفيء موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متآلفا ، وعن الإيذاء ممتنعا ، وفي المجالسة متواضعا حليما ، وفي استخراج الحقوق منصفا ورفيقا ، وأن يعين على حسن الأخلاق وتقديرها ، وأن يحتال بأجمل حيلة والطفها في انصراف غيره عن

الرذائل والقبائح ، وهو ما سماه بحسن السياسة في معاملة المحسنين والمسيئين وأصحاب القيم السامية ، وأهل القبائح والرذيلة .

وأن يتسلح الكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، وحسن معاملته لمن يحاوره ويناقشه باتساع الصدر ؛ فيفهم عنه إن كان كذلك ، وينصرف عنه بحذر ولطف إن كان غير ذلك ، لأن الصاحب في المناقشة أولى بالرفق والمصانعة والمجاملة ، وتقويم وده ومحبته من غيره ، وأن يتصف كذلك بإمعان النظر والروية ، وطول التأمل في الفكر ، لأن ذلك يحصنه من الجفوة والخطأ والنبوة ، ويرتفع به إلى القيم السامية من الموافقة لا الاختلاف ، والمؤاخاة والشفقة .

ويحث الكاتب على ألا يتجاوز حقه وقدره في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ومسكنه وخدمه ، حتى لا يقع في إطار التقصير والتضييع والتبذير ، ثم يستعين على ذلك كله بالعفاف والقصد والاعتدال ، لا الإسراف والترف ؛ فإن عاقبة ذلك الفقر والمذلة والهوان .

ثم يحذره من آفة التبذير المتلفة ؛ فإنها تفسد الأعمال ، وعليه أن يقتصد في مجلسه قصد الكافي في منطقه وابتدائه ، وإجابته ومجامع حجته ، مع التوجه إلى الله في ضراعة وخشوع أن يوفقه وأن يسدد خطاه ، وأن يجنبه الغرور ، وأن يكل إلى أمره ؛ فذلك يبعده عن التردي في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه .

ولا يصح لأحد أن يتفاخر على أخيه بعمله ، وأنه أبصر بالأمور ، وأنه هو وحده تحمل العبء الأكبر في عجب وفخر ، فإن العاقل من تخلى عن العجب بنفسه ، ويصف صاحبه بأنه أعقل منه وأحمد ، وأفضل وأقوى ، حتى لا يغتر الإنسان برأيه ، ولا يزكى بنفسه ، ولا يتكاثر على أخيه أو نظيره أو عشيره ، بل يرد الحمد لله وحده والثناء عليه سبحانه متواضعا لعظمته ، وخاضعا لعزته ومتحدثا بنعمته على عباده .

٥ ـ وفي الختام يذكر الكتاب ويحثهم على تطبيق هذه المقاييس بالعمل وأن تتحول هذه النصائح إلى سلوك ، وألا يتخلى منهجه الخلقي والفني عن العمل والسلوك ، بل يجب أن يتحلى بذلك كله ، لأنه جوهر الكتابة ، وغرة فن الكلام ، ومن تمام هذه النعمة ذكر الله عز وجل في الختام مثل بداية الكلام ؛ لأنه

وحده بيده تحقيق هذه النعم ، لكي تتحقق السعادة ، ويثمر الرشاد ، وينتشر بين الناس السلام والرحمة والبركات في ختام الرسالة بتحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البناء الفني في رسالة عبد الحميد إلى الكتاب :

فأما السمات العامة للبناء الفني : أن الرسالة تأثرت بأسلوب القرآن الكريم في العذوبة والسلاسة وروعة التعبير دون اهتمام بالغريب والحوشي كما تأثرت بالحديث الشريف في بلاغته وسلامته وسلاسته ، فلا يحتاج القارئ إلى معاناة في تحصيل المعنى ، بل يتأتى بأدنى تأمل دون اعتماد على معاجم اللغة العربية .

كانت رسالة عبد الحميد تمثل مرحلة الانتقال من الاهتمام بقصر الفقرات والاعتماد على السجع العذب إلى مرحلة جديدة ، مهدت للترسل في النثر الأدبي الذي تم على يد الجاحظ ، فكانت رسالته تجمع بين المرحلة السابقة واللاحقة فنجد بعضها يقوم على السجع وقصر الجمل ، وبعضها لا يهتم بذلك حسب قصر المعنى أو غزارته ؛ فتكون الجملة قصيرة أو متراسلة طويلة ، وقد يتعاقبان معا مثل : « وصرفهم في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات ، إلى أسباب معايشهم ، وأبواب أرزاقهم » ، ثم ينتقل إلى الترسل « فجعلكم معشر الكتاب في أشراف الجهات ، أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية » ، وهكذا في مواطن متفرقة من الرسالة .

كان عبد الحميد الكاتب ذا موهبة عجيبة في تصوير القيم الخلقية تصويرا رائعا ، دون أن تشعر بأنه توقف ليفكر في البحث عن صورة أو عبارة ، بل تكاد الصور تتلاحق في تزاحم ، تريد الصورة أن تسبق غيرها في موقعها ، مما يدل على عمق ثقافة الكاتب وثراء حقله في اللغة والأسلوب والتصوير المستمد من حضارة الإسلام في العصر الأموي .

ومن العجيب أن عبد الحميد في هذه الرسالة يقرر قواعد الأسلوب في الكتابة ، ومقاييس النقد في بنائها الفني ، والشأن في ذلك أن يكون تقريرا في علم قواعد البلاغة وأسس النقد ، لكنها بموهبته الفنية قد شكلت من هذه

المقـاييس النقدية والبـلاغيـة لوحة فنيـة ، وصورة كليـة تنبض بالحـيوية والحـركة والتـشخيـص ، تتناسق فيـها الروافـد من الألفاظ والأسـاليب والأخيلة والإيـقاع والموسيـقى مع عناصر الصورة من الألـوان والحركات والصـوت والطعم والرائحة والحجم والشكل في التـصوير الأدبي القوي المؤثر ، الذي يحرك العـواطف ، ويهز المشاعر ، ويثري الخواطر .

كان عـبد الحـميد الكاتب منظما في عـرض أفكاره ، وتصوير موضـوعه تصويرا تاما لأفكاره ومشاعره ، حيث بدأ رسـالته بمقدمة حددت مـعالم الموضوع في إيجاز سريع كأنها لقطة فنية اكتنزت فيها كل الخيوط مجدولة في خلية تنبض بمنابع الموضوع وروافده ؛ فالكتـاب في أعلى المراتب بعد الرسل والأنبياء والملوك الصالحين في صناعتهم الفنية ، فبالكتاب يسود الأمن ، وتعمر البلاد ، فكل حرف في هذه اللقطة ، اتسع بعد ذلك ليشكل لوحات فنيـة وصوراً جزئية وكلية تفصل جوانب الموضوع المختلفة بعمق وحيوية ، ثم تكون الخـاتمة التي تتجمع فيها الخيوط مرة أخرى لتحـدد النتيجة والحكم النهائي على الغاية من الكتابة في عـبارة موجزة ومـثل ضربه مطابقـا لها : « من يلزم الـنصيـحة يلزمـه العمل » وهو جـوهر هذا الكتـاب ، وعزة كلامـه ، مع الثناء العظيم على الله عـز وجل لنعمـة التوفـيق في تحقيق الغاية والنتيجة .

وأما التـصوير الأدبي : فقد شبه الكـتابة بالصناعة في الدقة في تناسق الخطوط والألوان والزوايا والأشكال ، ثم التـوازن والمزاوجة والسـجع والترادف في قـولـه : « صنوف الصناعـات ، وضـروب المحاولات ـ إلـى أسـبـاب معـايشـهم وأبواب أرزاقهم » ، والصورة الأدبية في تشبيه الأرزاق بالمبنى الضخم الذي جمع أبواب الرزق المتنوعة عـلى سبيل الاسـتعارة المكنيـة ، ثم الاستعـارة في « أشرف الجهات » ، وفي « تنتظم للخلافة محـاسنها » ، و« تستقيم أمورها » ، و« ويصلح السلطان » ، و« تعـمر البلاد » ، و« لا يـستغنى الملـك عنكم » ، ثم الاقتـباس من الحديث القدسي الشريف الذي يقوم على التشبيه التمثيلي الرائع والبليغ متأثراً به في ذلك ؛ لأنه لم يتمـثل بنص الحديث وإنما بمعناه ، ثم ما يضـمه هذا التشبيه أو تلك اللوحـة الفنية مـن صور أدبية جزئيـة تزاحمت فيهـا الاستعارات والمجـازات « أسمـاعهم بهـا يسمـعون ، وأبصـارهم بها يـبصرون ، وألسنـتهم بها يـنطقون

وأيديهم بها يبطشون » ، مع روعة التصوير في التجدد والاستمرار في تكرارالمضارع ، والتقابل بين الجمل والعبارات ، والطباقات المتنوعة بين الأبصار والأسماع والألسنة والأيادي ، وبين « يبصرون ويسمعون وينطقون ويبطشون » والمزاوجة التي تنتهي بتوقيع متجانس ، يشبه الروي في قافية القصيدة .

والصورة الأدبية في انتزاع نفس أخرى من نفسه يحتاج إليها في قوله : « فإن الكاتب يحتاج من نفسه .. » ، والصورة الرائعة النابعة من الإيقاعات الموسيقية المتنوعة في المقابلة والتوازن والمزاوجة في قوله : « أن يكون حليما في موضع الحلم - فهيما في موضع الحكم - مقداما في موضع الإقدام - محجاما في موضع الإحجام » وغيرها ، والصور الأدبية الجزئية النابعة من الاستعارات في « يأتي من النوازل » ، و« يضع الأمور مواضعها » ، و« الطوارق أماكنها » مع التوازن والتقابل والسجع في تشكيل إيقاعي وموسيقي تطرب له الأذن ، وتنفتح له جوانب الإدراك والإحساس في النفس .

ثم تأمل الاستعارات في تجسيم المجردات في قوله : « وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر قبل صدوره ؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته » ، ثم تصوير ذلك الصراع النفسي والعملي في صيغة المفاعلة : « فتنافسوا » ، ثم التشبيه والمجاز في قوله : « ثم العربية فإنها ثقاف قلوبكم » ؛ فهو يصور العربية المهذبة الصادرة عن القلب حقل اللغة والشاعر ، واللسان أداة التعبير والنطق يشبه ذلك بالثقاف الذي يصقل الرمح إنها صورة أدبية تلاحم فيها التشبيه مع المجاز المرسل ، فعن القلب ينطلق اللسان بالتعبير ، ثم تشبيه الخط الجميل في الكتابة بالحلي والعقود الثمينة على صدور الحسان الغانيات بالجمال ، والاستعارة المكنية في « مذلة للرقاب ، ومفسدة للكتاب ، وتنزهو صناعاتكم عن الدناءات » ، ثم التشبيه للصفات السابقة فهي « كالعداوة مجتلبة من غير إحنة » .

ثم تأمل جمال الاستعارة بالكناية في « نبا الزمان » ، و« حتى يرجع إليه حاله » ، و« يثوب إليه أمره » ، و« أقعد أحدكم الكبر » في صور أدبية متزاوجة تقوم على التشخيص ، الذي يبعث الحياة والحركة في المجردات والمعاني ، ثم صورة التشبيه الضمني وهو أن يحافظ الكاتب على العاجز الكبير ويرعاه كما

يحفظ أخاه وابنه ، والاستعارات التي تجسم المعاني والمجردات في قوله : « عرضت في الشغل محمدة » ، و« فلا يضيفها إلى صاحبه » ، و« إن عرضت مذمة » و« فليحملها هو من دونه » ، و« ليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فإن العيب أسرع إليكم منه إلى القراء .. وأفسد منه لها » ، إنها صور أدبية متزاحمةتجسمت فيها المعاني والمجردات ، وظهرت في تشخيص يفيض بالحيوية والمشاركة في الحذر والسرعة والفساد بين المشبه والمشبه به في ركني الاستعارات المكنية السابقة .

ثم تأمل روعة الصورة في الكناية حين تصور التقدير والوفاء في قوله : « يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه » ، ثم ذلك الإطناب البليغ الذي يصور التقدير والوفاء ، فلا تستطيع حذف بعضه ، ولا يمكن إيجازه حتى لا يقف دون تدفق الأفكار والمعاني والمشاعر ، وإلا اختلت الصورة بفقدان بعض روافدها وانعدام جزء من عناصرها ، وذلك في قوله : « فاستشعروا ذلكم ... وأحبهم إليه أرفقهم بعياله » .

ثم تأمل الطباق وما يتركه في النفس من إيقاعات وموسيقى تطرب له النفس ، في صورة أدبية متناسقة الروافد والعناصر والموسيقى في قوله : « فاستشعروا ذلك في حالة الرخاء والشدة والحرمان ـ والمواساة والإحسان والسراء والضراء » ، ثم ذلك التجسيم في تصوير المدح للشيمة كالوسم والعلامة المجسمة المحسة ، وتعظيمها النابع من اسم الإشارة في قوله : « فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها » ، ثم تجسيم الصناعة وتصويرها كالإنسان في شرفه ورفعة شأنه ، مع إفادة التعظيم لهذه الصفات في اسم الإشارة « أهل هذه الصناعة الشريفة » ، ثم دلالة حذف الفاعل في بناء الصورة الأدبية للمجهول حتى تتنوع الأسباب في التولية : « فإذا ولّي الرجل منكم ، أو صيّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمر » أي صيرورة الأمر بأي شكل من الأشكال ، وعلى أية صورة من الصور ، لا من جهة معينة في « أو صيّر إليه أمر » ؛ لتدل الصورة على عدم التعلل لأي سبب من الأسباب للتقصير في حق من يستحق التقدير والوفاء لمن أصابه الضعف من طائفة الكتاب ، وهي صور نابعة ومستمدة من الحقيقة لا من الخيال .

ثم الصورة الأدبية الرائعة في تشخيص الخلائق ووضعها في مجال الاختبار

والامتحـان كالشخص الممتـحن ليميز بين الناجح في أخلاقـه الحسنة ، والراسب لقبحه وتقصيره ؛ فيكافئ المحسن في أخلاقه بالمعاونة والتشجيع ، ويعاقب المقصر لقبحـه برفق وحيلة ، لـكي يصرفـه عن صفـاته الذمـيمـة ، ثم يركب على هذه الصورة الكلية صورة أخـرى ؛ لتزداد جمالا وسحرا وقوة وتأثيرا في تشبيه تمثيلي متعدد الأجـزاء والهيئات ، مثل سائس البهـيمة إذا كان بصيرا بسياسـتها ، التمس معرفة أخلاقـها ، ، وإن كانت نافرة رموحا ، لم يهجها حـتى يركبها ، وإن كانت شبـوبا عنيفة ، اتقـاها من قبل يديها ، وإن خـاف من شرودها ، توقاها من ناحـية رأسهـا ، وإن كانت حـرونا قمع هواها برفق ، وإن اسـتمـرت في عطفها ولـينها أسلس لها قيادتها ، وهكذا شأن الكاتب في سيـاسة الناس ومعاملتهم وخدمتهم ، ومعرفة دواخلهم وطبيعتهم .

وكذلك التشبيه التمثيلي في سياسـة المحاور والمتناظر في حواره ومناظراته بسائس البهيمة ، التي لا تحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا إلا بقدر ما يصيرها إليـه صاحبها الراكب عليهـا ، في أن يفهم عنه ، أو يحذر سطوته ، أو يرفق به ، أو يقـوم وده ، حسب مقـتضـيات الحوار والمنـاظرة ، ثم تأمل التجـسيم والتشـخيص في هـذه الصور الأدبيـة : « شرف صنعـتكم » ، و« أفعـال التضيـيع والتبـذير » ، و« استـعينوا على عفـافكم بالقصـد » ، و« واحذروا مـتالف السّرف وسوء عـاقبة التـرف » ، ثم « فإنهمـا يعقـبان الفقـر ويذلان الرقاب ، ويفضـحان أهلهمـا » ، و« مسالك التدبيـر أوضحها محـجبة ، وأصـدقها حجة ، وأحـمدها عاقبـة » ، و« أن للتبذير آفة متلفـة » ، ثم التشبيه البليغ : « فليـقصدها الرجل في مجلسه قـصد الكافي في منطقه » ، والاستعارة بالـكناية في قوله : « الغلط المضر بـبدنه وعقله وأدبه » ، و« إن الذي برز من جـميل صنعتـه وقوة حـركتـه » ، ثم الكناية في قوله : « فـقد تعرّض بظنـه أو مقالته .. غـير كاف » ، وغـير ذلك من الصور الأدبية الكثيرة إلى نهاية الرسالة .

ولقد آثرت هنا قصدا أن استخرج معظـم الصور الأدبية المستمدة من الخيال مع القليل من الصور المستمـدة من الحقيقة ؛ لكي أثبت مهارة عبـد الحميد الكاتب وموهبـته الفنية في تصـوير المقاييس النقـدية والبلاغية والـقيم الخلقيـة لفن الكتابة تصويرا أدبيا في صور كثيرة ومتزاحمة ومتـراكبة نابعة من الخيال ، فقد رأينا كثيرا

من الصور الخيالية والقائمة على التجسيم والتشخيص والصور الكلية ، وعرضنا حشدا كبيرا من الاستعارات والكنايات والمجازات ، وكذلك التشبيهات البليغة والتمثيلية مع تآزر الصور الأدبية النابعة من الموسيقى والإيقاعات المتنوعة في المحسنات البديعية العفوية الكثيرة والمتراكبة أيضا ، والموسيقى الخفية النابعة من انتقاء الحروف في كلمات عذبة سهلة رقيقة واضحة ذات رنين موسيقي يتناسب في موقعها مع أخواتها في التراكيب والأساليب والصور ، لتؤدي لحنا متناسقا بأوتار مختلفة تتلاءم مع الصور الخيالية والموسيقية ، ومع الصور المستمدة من الحقيقة ، التي انصرفت هنا غالبا ، لأترك للقارئ استخراجها على النحو السابق في استخراج صورها من النصوص السابقة ، وليس بعسير على من مرّ بأكثر من تجربة أن يقف عليها بسهولة .

ولعل الدراسة التحليلية والنقدية لتوضيح القيم الخلقية والفنية في الرسالة وتوضيح روعة التصوير الأدبي وجمال الأسلوب الفني في تصوير القيم الخلقية التي لم تكن عائقا يكدر جمال الأسلوب الأدبي ، ولا مانعا من روعة التصوير الفني ، ولا مضعفا أو مشوها للوحات الفنية الجميلة المتناسقة ، ولا نشازا يفسد الإيقاع الصوتي ، أو يبدد النسق الموسيقي ، لننتهي إلى حقيقة لا مجال لإنكارها وهي : أن النصوص الأدبية السابقة في العصر الأموي تمثل الأدب الإسلامي في مرحلة من مراحله ، وعصر من عصوره الأدبية من ناحية .

وأن الأدب الإسلامي فن وتصوير وإبداع ولوحات فنية حية نابضة ، وليس علما ، ولا شريعة ، ولا فلسفة ، ولا تاريخا ، ولا نظريات في الأخلاق والاجتماع والعلوم والحاسبات ، وإنما هو أدب وفن وإبداع وتصوير من ناحية ثانية .

وأن الأدب الإسلامي في العصر الأموي كما هو واضح من قيمه الخلقية والفنية والتصويرية الغنية بروافدها وعناصرها ، والثرية بمضمونها وأغراضها ، يعد امتداداً للمصدر الثالث ، وهو أدب الصحابة ﷺ بعد المصدرين الأساسين وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من ناحية ثالثة .

وأن الأدب الإسلامي لكونه باللغة العربية لغة القرآن الكريم ، لا يتعارض مع الأدب العربي في أي عصر من العصور كما هو واضح من الدراسة ؛ فهو

يشمل الأدب العربي كله ، بل الأدب الإسلامي أيضا بلغات الشعوب الإسلامية غير العربية بلسانهم ولغاتهم المختلفة ، ما عدا نماذج من بعض الأغراض يرفضها الأدب الإسلامي الذي يحتفظ بالأغراض كلها ، وهذه النماذج المرفوضة هي : الغزل الماجن المكشوف ، والهجاء القبيح الفاضح ، ووصف الخمر ، والغزل بالمذكر ، وشعر الشعوبية والتعصب البغيض ، وشعر الزندقة والوجودية والإلحاد ، وما أشبه ذلك ، وكذلك ما يتعارض مع القيم الفنية الأصيلة ، التي لا تهبط بالأدب إلى الابتذال والعامية والشذوذ ، وما يشوه الفصحى وأسلوبها البليغ مما يبعدها عن لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة ولغة السلف الصالح ، فقد أصبحت خالدة بخلود القرآن لا تنفك عنه ولا ينفك عنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

* * *

ثبت موضوعات الجزء الثاني

رقم الإيداع بدار الكتب

٩٨/٥٣٥٦

I.S.B.N
977 - 19 - 5934 - 4



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير

ت : ٥٢٣٧٢٤٩ / ٥٢٣٧٢٥٠ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة